

الشَّعْرُ فِي بُغْدَادِ

حَتَّى نَهَايَةِ الْقَرْنِ الثَّالِثِ الْهَجْرِيِّ

الدكتور

أحمد عبد الستار الجوّاري



الطبعة الثانية

١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م

تقديم

الدكتور صالح أحمد العلي

ترجع علاقتي الاخوية والفكرية بفقيه المجمع الدكتور احمد عبدالستار الجواري الى اكثر من نصف قرن بدأت بزمالتنا في الدراسة بدار المعلمين العالية ، وظلت وثيقة صافية لا يهزها انقطاع ولا يشوبها كدر ، احتفظ طوالها بتميزه بالاعتزاز بالعروبة والاعتداد بها ، والايمان المخلص العميق بالاسلام ومبادئه القويمة ، وكان مؤمناً بان العروبة والاسلام متلاحمان في النظرية والتطبيق ، وهما عماد المجتمع السليم المنشود في الأعمال والغايات ، فكانا اساس تكوينه وكيانه ، لم يحد عنهما قولاً وعملاً ، يعززهما فيه عمق في التفكير ، وحس سليم في النفاذ الى الجوهر وعزله عما قد يلامسه من مبالغات وتهويلات مشوهة قد تحرفه عن المسار الصحيح ، ومما عمق ذلك في نفسه ويسر له تنفيذه وضوح في الرؤية ، واستقامة في التصرف ، وصراحة في القول والتعبير اكسبته الاحترام والتقدير حتى عند من قد يضيق صدرهم بها او لا تحقق رغباتهم الناشئة .

عاش الفقيه الدكتور احمد عبدالستار متصلاً بالحياة، متابعاً لاجداثها، مشاركاً فيها ، وعاملاً على توجيهها نحو ما يراه المؤمن بالخير والحريص على المصلحة العامة ، فكان حريصاً على الاستزادة من اصدقائه وعلى توطيد علاقاته بهم ، فكان يتابع احوالهم ، ويعين ما استطاع على تذليل ما قد يلقونه

من مصاعب ، وتخفيف ما قد يعانونه من آلام دون ان يحيد عن مثله العليا
في الصدق والاستقامة وخدمة المصلحة العامة .

ولم تقتصر علاقاته الشخصية على اخوانه وعارفيه في العراق ، وانما
امتدت الى رجال من سائر اقطار الوطن العربي ممن عرفوا باعتزازهم
بالعروبة وتمسكهم بالاسلام ومبادئه من اهل الفكر ومتابعي المعرفة
والحرص على الاستزادة منها ، والعمل على خدمة الامة وتوجيه ابنائها
نحو الخير والعمل المثمر .

ان هذه السجايا الحميدة التي كوَّنت شخصية الدكتور احمد
عبد الستار عززت حبه للقراءة والاستزادة من المعرفة ، فلم يقصر دراسته في
الكليات على سماع المحاضرات وقراءة الكتب المقررة ، وانما مدّها الى
آفاقها الاوسع ، فتابع الدراسة ، وكان من ثمارها الاولى رسالته في الحب
العذري التي اجيز بها لشهادة الماجستير ، ثم رسالته « عن الشعر في بغداد »
التي نال بها شهادة الدكتوراه من جامعة القاهرة .

واختياره « الشعر في بغداد في العصر العباسي » مظهر لتوجهات
فكرية تعبر عن تعدد جوانب ثقافته ، هما اهتمامه بالشعر ، وتقديره لبغداد
فالما اهتمامه بالشعر فانه يعبر عن ذوقه الفني ، وتقديره للاحاساسات
البشرية ، ويضيف جانباً جديداً الى ما عرف عنه من عنايته باللغة العربية
في مفرداتها ونحوها وصرفها ، وتبحره في كل ذلك .

واما حصره البحث في بغداد في العصر العباسي فلا يرجع الى الاقليمية
الضيقة التي كان بعيداً عنها ، وانما يرجع الى ان بغداد سرعان ما اصبحت
بعد انشائها مركز الفكر العربي ، وموئل العباقرة المبدعين ، وموطن الفكر
الحزب باوسع آفاقه وتنوعه ، فلم تكن الحركة الفكرية فيها اقليمية ضيقة ،
وانما كانت عربية اسلامية باوسع نطاقها وارحب ميادينها ، يتوجه الفكر

فيها نحو العالمية ويستهدف الخلود ؛ وبهذا كان اسهامها الواسع في الفكر الذي اكتسب تقدير العالم الاسلامي الواسع الارجاء ، وكان له الاثر الاكبر في توجيه الفكر في ذلك العالم الرحب ابان القرون الاسلامية الاولى . فدراسة الشعر في بغداد في العصر العباسي الاول ، شأنه شأن فروع المعرفة الاخرى ، هو دراسة اصل اساسي للفكر العربي الاسلامي وكشف توجهاته الانسانية الواسعة ، وبيان اسس عالمية هذا الفكر .

وكان المجمع العلمي العراقي قد عنى بدراسة بغداد وما يتصل بها ، ونشر عنها عدداً من الكتب المؤلفة والمترجمة ، ولم يغفل الاهتمام بالشعر في بغداد ، فنشر عنه كتاباً للاستاذ جمال الالوسي ، ولكن ذلك الكتاب على قيمته ، لا يغني عن اعادة نشر كتاب الدكتور احمد عبدالستار الجوارى الذي يتميز بغزارة المعلومات ، ودقة الملاحظات ، وتوضيح مجرى التيارات ؛ وهو كتاب نقد من السوق منذ امد طويل ، ولم تبق منه غير نسخ نادرة ؛ فاعادة نشره هو يسر للمعنيين الافادة منه ، وفيه متابعة لخطة المجمع في العناية ببغداد ، ووفاء لعضو اسهم في الاعمال الجمعية في الوطن العربي ، وخص المجمع العلمي ببغداد بعناية خاصة حيث كان عضواً فيه منذ اعادة تأسيسه ، وكرس وقته وجهده وخبرته وعلمه في انماء اسهامه في دراسة ما يتصل بالفكر العربي والحضارة الاسلامية .

لقد كان الفقيه احمد عبدالستار ممن صدقوا ما عاهدوا الله عليه ؛ اسكنه الله فسيح جناته وجعله في عداد من هم احياء عند ربهم يرزقون ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً .

صالح احمد العلي

كلمة المؤلف

يعود الفضل الأول في انجاز هذا البحث الى الأستاذ الجليل أحمد الشايب ، الذي رعى المؤلف في مراحل دراسته في كلية الآداب بجامعة القاهرة خير رعاية ، وأولاه من حذبه وعطفه مالا يوفيه البيان ولا يقوم به التعبير ، واخذ بيده سبيل هذا البحث الواسع المتشعب حتى وفقه الله الى اخراج هذا الكتاب ، فاليه من المؤلف تحية الولد البار المقر بالاحسان المعترف بالجميل .

والى الأستاذ الكبير الدكتور ابراهيم سلامة الذي أشرف على البحث في مراحل نضجه واستوائه فكان خير مرشد وأهدى دليل .

والى اللجنة التي فحصته ، وأرشدت مؤلفه الى ما بدا لها أنه الصواب ، واعانتته مخلصه على العمل العلمي الخالص اوجه الحق واعني بهم الاساتذة الأفاضل حسين كامل سليم وكيل جامعة القاهرة سابقا والأستاذ مصطفى السقا والأستاذ عبد الوهاب حمودة والدكتور شوقي ضيف .

مد الله في اعمارهم ، واضفى عليهم ثوب العافية ، وجعل منهم أئمة يهدون الى الحق ويعينون عليه .

المؤلف

مدخل

الشعراء في بغداد

حتى نهاية القرن الثالث

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لعل هذا الطراز من البحث جديد على الدراسات الجامعية العليا ، اتجهت اليه كلية الآداب بعد ان اختبرت ضروبا اخرى من الابحاث ، كانت تقوم على دراسة الشخصيات الادبية ومكانها من تاريخ الادب ، او دراسة الفنون الادبية في الشعر والنثر ومسائرتها في النشأة والتطور ، او دراسة البيئات العامة وما اصطبغ به من خصائص وما تميز به من مزايا .

- ١ -

ولعل هذا النهج الجديد من الدرس في الادب العربي القديم اجدى على البحث الجامعي وادنى الى طبيعة البحث العلمي واجدر ان يخرج به الدارس الى نتائج قيمة خطيرة .

ذلك لان دراسة الشخصيات تقتضي الباحث ان يتبين مكانها من التاريخ، وان يصلها بما سبقها فأثر فيها ، وبما لحقها فتأثر بها ، وما احاطها فأثر فيها وتأثر بها وكل ذلك يعني بالضرورة ان يتجه البحث اساسا الى البيئة الادبية الخاصة .

اما البيئات العامة فلم يكن معناها ملحوظا في وضوح ، او مقرا مفهوما في تلك العصور، وانما نحن نفرض مفهومها في كثير من الاحيان على الدراسة والبحث ، نستوحي ذلك المفهوم من ظروف حياتنا الحاضرة ، ونستلهمه من

التقسيم الجغرافي الذي نعرفه اليوم وهو تقسيم املته عوامل ومؤثرات ليست كلها طبيعية ، بل ليس اكثرها كذلك ، بل لعل كثيراً منها مصطنع مقصود قضت به ارادة اجنبية معروفة غاياتها ، مفهومة اغراضها ووسائلها •

واما دراسة الفنون الادبية فانها تغفل في غالب الاحيان دراسة البيئة وآثارها الخطيرة في الادب دراسة تناسب تلك الخطورة، وتتجاوز عن وصل الادب بشخصيات منشئية ، وعن تكوين تلك الشخصيات وعناصره ومؤثراته •

ولعل دراسة البيئات الخاصة اقرب الى الكمال ، وابعد عن المآخذ التي وصفنا ؛ ذلك لان على الباحث ان يجمع فيها بين دراسة البيئة المحدودة الواضحة المعالم وعلاقتها بشخصيات الادباء والشعراء ، وما احدثت في الفنون الادبية من تطور وما انشأت فيها من تجديد • واهم من ذلك واطهر ان دراسة البيئة الخاصة بعيدة - الى مدى بعيد - عن تحكم المفاهيم المعاصرة التي تفرض على الواقع التاريخي ما لم يكن مفهوما فيه ، كهذا التقسيم الجغرافي المصطنع الذي تعيش فيه بلادنا العربية اليوم • واذا اضفنا الى ذلك ان البيئة الخاصة محدودة بالحدود الطبيعية واضحة المعالم في التكوين الاجتماعي ادركنا انها ايسر على البحث العلمي المتعمق واكثر ضمانا للحكم الصادق الدقيق والنتائج القريبة من التحقيق •

- ٢ -

وليس البحث في تاريخ بغداد بالجديد الذي يطرق لأول مرة ، وانما هو في الواقع وصل لسلسلة من المباحث في تاريخ هذا البلد بدأت منذ قرون • واول ما نعرف من تلك المباحث تاريخ بغداد لأحمد بن ابي طاهر الملقب بطيفور ولم يصل الينا منه الا جزؤه السادس ^(١) • وهذا الجزء يبحث في عصر المأمون ويعنى بشخصية هذا الخليفة وألوان الحياة في عصره خاصة •

(١) اعتمدت من هذا الكتاب على الطبعة الاوربية . واليها الاشارة في اثناء البحث .

وثاني هذه المباحث تاريخ بغداد للحافظ ابي بكر الخطيب البغدادي ، وقد صدر الخطيب كتابه هذا بنبذة تاريخية عن بغداد وتسميتها وانشائها ، وطرف من اخلاق اهلها وطبائعهم وعاداتهم ، ثم قفى على ذلك بالترجمة لمحدثيها وحفاظها وعلمائها ، لان الرجل كان من المحدثين فغلب عليه ذلك ، وجعله اكبر همه في كتابه (٢) .

وكتب بعض المعاصرين من المستشرقين في تاريخ بغداد وعنوانا بدراسة خطتها عناية خاصة فعل المستشرق جي لسترنج Guay Le Strange الذي وضع في خطط بغداد كتابه المعنون « بغداد ايام الخلافة العباسية » Baghdad During the Abbasid Caliphate

وقد ترجمه الى العربية السيد بشير يوسف فرنسيس من امناء المتحف العراقي في بغداد وطبعه فيها سنة ١٩٣٨ .

وكتب بعض الافاضل من الباحثين عن بغداد مقالات وبحوثا ووضعوا لها تخطيطات تبين مواقعها المهمة ، كالمرحوم الاستاذ يوسف غنيمة والدكتور مصطفى جواد والدكتور احمد سوسة وغيرهم .

اما دراسة الحياة السياسية والاجتماعية والعقلية في بغداد فلم يكدر يخلو منها كتاب يعرض لدراسة التاريخ العربي الاسلامي في العصور العباسية . واحسب ان عمدة ما في هذا الباب كتاب « ضحى الاسلام » لاستاذنا المرحوم الدكتور احمد امين فهو وحده الذي استقل بالبحث في الحياة الاجتماعية والعقلية بحثا علميا لا يعرف له نظير فيما كتب بالعربية حتى اليوم .

واما الحياة الادبية فنحن لا نعرف احدا من القدماء والمحدثين اخذ نفسه

(٢) لا اعرف لهذا الكتاب الا طبعة واحدة تمت في مصر .

بدراستها والبحث فيها بحثاً يصح أن يرجع اليه امثالنا من الدارسين ليجدوا فيه سنداً يستندون اليه في خوض هذه المباحث .
وعمدة ما في هذا الباب من الدراسة ما يتناثر في موسوعات الاقدمين من تراجم الشعراء واخبارهم ، ودواوين اولئك الشعراء وما كتب عنهم مؤرخو الشعر ونقاده . ولعل هذه المصادر وارواها لغلة الباحث كتاب الاغاني لأبي الفرج الاصبهاني^(٣) .

— ٣ —

وقد كان من توفيق الله ان توافق كلية الآداب في جامعة القاهرة على ان اقوم بهذا البحث عن الشعر في بغداد حتى نهاية القرن الثالث ، فاستعنت بالله واخذت تقسي به بضع سنين ، حتى خرج بين يدي هذا السفر ثمرة لجهود بذلت له ما استطيع .

وقد تخيرت بغداد موضوعاً لبحثي من اجل اسباب عدة ؛ منها اني واحد من ابناء بغداد ، اشعر اني اطيع في خدمتها شيئاً قد يزيد على ما يطيق غيري ، لان للبيئة مزاجاً يتحدر اليها من التاريخ ، ويظل يشيع في ثنايا حياتها مهما تطاول بها الزمان . واقرب الى فهم تلك البيئة وتذوق مزاجها من نشأ فيها وذاق حياتها وتقلب فيها . وقد شعرت وانا ابحت في الموضوع واجمع شتاته ان اتسايي الى بغداد ونشأتي فيها وتذوقي لحياتها قد اعاني على فهم جوانب مهمة من الوان حياتها القديمة ، ويسر لي ان احيا بين اهلها الاقدمين ، وان المس بعض مظاهر الحركة في الحياة الاجتماعية والعقلية والادبية من خلال ما كنت اقرأ في كتب التاريخ .

اما اختيار هذه الحقبة بالذات فلأن بغداد كانت منذ انشائها مجمع الحياة العربية والاسلامية ، ومصدر الاشعاع في العلم والحياة الاجتماعية ،

(٣) اعتمدت على طبعة الساسي واليها رجعت واليها الاشارة في اثناء البحث .

ومنار الحضارة ومركز التوجيه فيها . ولأن القرن الثاني - وفيه كان انشاء بغداد - قد شهد وثبات ضخماً في الحياة الاجتماعية والعقلية والادبية . ثم اخذت نتائج تلك الوثبات في التركيز والاستقرار في اوائل القرن الثالث ، واثمرت في الشعر بوجه خاص طريقته المثلى التي تمكنت منه وتحكمت في مجرى حياته حتى عصرنا الحاضر .

واذن فدراسة الشعر في بغداد ، منذ ان انشئت حتى نهاية القرن الثالث ، تعني دراسة الشعر العربي في حقبة خصبة ، بل هي من اخصب الحقب في تاريخ الشعر على ما سرى في ثنايا البحث .

— ٤ —

وقد رأيت لزما علي ان احاول البحث في تاريخ بغداد ، وان انطلق في مجال حياتها القديمة ما استطعت ، فقرأت شيئاً من الكتب التي تبحث في تاريخ العراق القديم ، وتلمست - مستعينا ببعض الافاضل من الباحثين فيه - موقع بغداد من ذلك التاريخ ؛ ثم بحثت في تاريخها بعد الاسلام حتى بلغت بها الى وقت ان اصطفاه ابو جعفر المنصور عاصمة للخلافة . وبحثت في اسباب اختيارها واختيار موقعها بالذات محاولاً ان استتج من بعض الخصائص التي نبتت فيها من اول يوم اسمت فيه .

وكان عماد البحث في هذا الفصل طائفة من كتابات الباحثين في تاريخ العراق القديم والخطط ، امثال رولنسون وواليس بدج ولسترنج ، وكتب التاريخ العام ، كتاريخ الامم والماوك لابن جرير الطبري والكمال لابن الاثير ومروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي وامثالها .

ثم عمدت بعد ذلك الى الحياة الاجتماعية والعقلية في بغداد فحاولت ان اتصورها تصوراً عاماً وبحثت - على قدر ما تهيأ لي من الوسائل - في التكوين

الاجتماعي والعقلي حتى استطيع ان اتصور البيئة بعواملها المتعددة التي اثرت في الشعر وفي السبيل التي سلكها الى التطور والتجديد .

وقد وجدت أن على الباحث - لكي يعرف مكان بغداد في تاريخ الشعر العربي - أن يتصور هذا الشعر من قبل بغداد ، وأن يعرف مكانه من حياة العرب في العصور القديمة ، وما يتميز به الشعر العربي عن مكان الشعر عند بعض الامم ذات الاثر البعيد في تاريخ الحضارة ، وكيف وصل الى بغداد وماذا أصاب من التطور قبل وصوله اليها .

وبعد أن ارتسمت في البحث صورة عامة لبغداد في التاريخ ، وللشعر حين وصل اليها ، دخل البحث في العوامل التي توافرت في بغداد فأثرت في الشعر ، فكان للعامل السياسي فصل ، وللعامل الاجتماعي فصل آخر ، ولكل من العامل الحضاري والعامل العقلي فصل .

وبعد أن تصورت الحياة في بغداد من نواحيها المتصلة بالشعر والمؤثرة فيه ، اخذت في استخلاص النتائج واستنباط العوامل التي اتجهت بالشعر الى التجديد او المحافظة ، فتلست عوامل التجديد التي كانت تدفع بالشعر في مجالات جديدة ، وعوامل المحافظة التي ارادت للشعر ان يبقى على صلاته بالقديم ، والانقياد الى تيار الحياة الجديدة انقياد المندفع فيه بلا روية ولا أناة . ثم حاولت ان اتبين ما اعقبه كل ذلك في وجهة الشعر وفي مذاهب الشعراء ، واجملت تلك المذاهب وخصائصها ، وقسمت الشعراء وفقاً لمذاهبهم الفنية وتعرضت لما اعقبته تلك المذاهب .

ثم جعلت لثمرات التجديد في شعر بغداد باباً قصرت على الظواهر الرئيسية ، وتجاوزت فيه عن المسائل الجزئية الخليفة بدراسة الشخصيات والفنون الشعرية ، وعرضت في هذا الباب لما جد في موضوع الشعر وفكرته ،

ثم لما أصابه في صورته وأسلوبه من تجديد أو تطور ، وبينت قيمة كل من أولئك
وأثره في تاريخ الشعر العربي •

وقد جعلت خاتمة البحث صورة مجملّة لحياة الشعر في بغداد ، واشترت
فيها الى بعض النتائج التي لم اكن قد وقفت عليها قبل ان آخذ نفسي بهذا
البحث •

ذلك جهد قدمت فيه ما استطيع ، ولعل ان يكون فيه ما قصدت اليه من
خدمة البحث العلمي وجلاء وجه الحقيقة فيه • وما توفيقى الا بالله عليه توكلت
واليه أنيب •

احمد عبدالستار الجوّاري

الباب الاول

تمهيد

الفصل الاول

بغداد في التاريخ

١- بغداد في العصور القديمة

لعل أقدم ما عرفه المؤرخون عن بغداد ذكر اسمها في بعض الألواح المكتوبة بالمسمارية ، وأقدم هذه الألواح عهداً وأبعدها زمناً لوح يبدو أنه كتب في عهد حمورابي ملك العموريين في بابل في القرن الثامن عشر قبل الميلاد . وقد كتب اسم بغداد في اللوح على شكلين : بكدادا (Bagdada) وبكدادو (Bagdadu) . وأكثر هذه الكتابات تدل على ان المدينة المسماة بهذا الاسم تقع في موضع قريب من مدينة بغداد اليوم . بل يذكر رولنسون (Rawlinson) أنه كان في زمن السومريين مدينة مهمة كانت تقع في موضع بغداد المعروف اليوم او على مقربة منه . وهكذا لا تزال بغداد تحتفظ باسمها الذي عرفت به منذ مدة لا تقل عن اربعة آلاف عام^(١) .

وقد ورد ذكر بغداد في عدة الواح مكتوبة بالخط المسماري اهمها
الألواح الآتية :

— لوح قانوني يرجع عهده الى زمن الملك البابلي حمورابي وهو الذي مر ذكره آنفاً .

(١) Encyclopaedia Britainica, Article : Bagdad .

٢ - حجر من معالم الحدود يرجع الى عهد نازيمارتاش (Nazimaruttash)
 ٣ - حجر آخر من أحجار الحدود ، وجده طبيب أوروبي في عام ١٧٨٠ م
 بالقرب من خرائب طيسفون ، ويرجع تاريخه الى القرن الثاني عشر قبل
 الميلاد وقد ورد فيه ذكر بلد يقع قريباً من مدينة بغداد^(٢) - (Bagdada)
 ٤ - حجر ثالث من أحجار الحدود يعود الى عهد الملك البابلي بردوخ بالادان
 الثاني (١٢٠٨ - ١١٩٥ ق م) يذكر فيه نهر أرا را في سهل بغداد
 ويذكر فيه ايضاً مكاناً يسمى شبت شاري (Shubat Sharri)
 في اقليم بغداد .

٥ - في الحرب التي قامت بين الملك الاشوري أداد نيراري (Adad Nirari)
 الثاني (٩١١ - ٨٩١ ق م) وبين الملك البابلي نابوشنوكين
 (Nabu Shunukin) وقد ذكر بين المواضع التي احتلها ذلك الملك مدينة
 بكدادو .

٦ - ويبدو مما تقدم ان بغداد كانت مدينة ذات قيمة كبيرة في العهود القديمة،
 وأنها كانت أيضاً مركزاً ادارياً لاقليم بابلي ، ولكن يبدو كذلك أنها فقدت
 قيمتها هذه بعد ان اجتاحتها الملك الاشوري اداد نيراري الثاني في حربه
 التي أسلفنا الإشارة إليها ، وأصبحت منزلاً للكراميين . وقد ذكرها
 تيجلا ثليسر الثالث (Tiglathpilesar III) في سياق حديثه

عن قبيلة آرامية (٧٤٥ - ٧٢٧ ق م) .

٧ - وقد ورد ذكر بغداد أيضاً في قائمة مكتوبة على لوح مسماري عثر عليه في
 نينوى^(٣) يعود الى القرن السابع قبل الميلاد .

٨ - وفي عام ١٨٤٨ م عثر الباحثة الآثاري رولنسون (Rawlinson)

(٢) Rawlinson : Cuniform Inscriptions, Vol. I, p. 70

(٣) نينوى عاصمة الاشوريين .

على قطع من الآجر مختومة باسم الملك نبوخذ نصر الثاني في بقايا جدار
مبنى على الضفة الغربية لنهر دجلة في بغداد^(٤) .

ووجد مثل كل من اوپير (Oppert) عام ١٨٥٣ م وبونيون
وهاربر (Pognon & Harper) في الموضع نفسه .
ولا يزال جزء من هذا الحجر باقياً الى اليوم على الضفة الغربية لنهر
دجلة ؛ وهناك ايضاً بقايا بناء يشبه هذا الحجر في الجهة الجنوبية الغربية من
بغداد قرب قناة الخر^(٥) .

٢- تسمية بغداد واصلها

وفي اصل تسمية بغداد خلاف قديم حديث بين المؤرخين والباحثين ،
وادعى عدد ممن أرخوا لبغداد وبحثوا في نشأتها وفي تأسيسها ان اسمها فارسي
يروى الخطيب البغدادي بسنده عن ابن الكلبي « ان بغداد اسم فارسي منشؤه
انه اهدي الى كسرى خصي من المشرق فأقطعه ببغداد ، وكان لهم صنم في
المشرق يقال له البغ ، فقال « بغ داد » يقول اعطاني الصنم .
والفقهاء يكرهون هذا الاسم من اجل هذا^(٦) .

ويروي الخطيب في موضع آخر من تاريخه ان بعض الاعاجم يزعم ان
تفسير اسم بغداد بستان رجل ، فبغ بستان و داد اسم رجل^(٧) .

وهو يشرح ذلك في خبر آخر يرويه بسنده عن ابي القاسم المظفر بن عاصم
ابن ابي الاغر انه قال: « دخلت الى بغداد وهي اجمة ليس فيها الا كوخ الى

(4) Wallis Budge : By Nile & Tigris, Vol. I, P. 186.

(٥) دائرة المعارف الاسلامية - مادة « بغداد » (الترجمة العربية) .

(٦) الخطيب البغدادي - تاريخ بغداد . ج ١ ص ٥٨ .

(٧) نفسه ص ٦٠ واسم البستان بالفارسية « باغ » لا « بغ » ولعلها سهلت
فحذفت منها الالف .

وفيه رجل من الاولين ينظر ببقلّة له ، فلما ان جاء المنصور ووضع الاساس قال : « ما اسم هذا الموضع ؟ » قالوا : « لا ندري ، ولكن ههنا رجل من الاولين ، سله » . فبعث اليه فقال له : « ما اسمك ؟ » فقال : « اسمي داذ » « وما يقال لهذا الموضع ؟ » فقال : « هذا باغ لي » . يعني البستان . فقال : « سموه باغ لداذ » (كذا) فسميت بغداد (٨) .

وقد التفت ابو بكر الخطيب البغدادي الى خلل هذا القول فذكر ان ما زعمه ابن ابي الاغر من ان المنصور هو الذي سماها بغداد قول لم يتابعه عليه احد (٩) .

ويروي ياقوت بسنده عن حمزة بن الحسن ان بغداد اسم معرب عن داذويه (١٠) .

ومهما يكن من شيء فان المؤرخين يجمعون على ان اسم بغداد اسم قديم ، كان يعرف به الموضع الذي بنى ابو جعفر المنصور فيه عاصمة ملكه ، او موضع قريب منه (١١) .

ويجتمع لدينا مما بين ايدينا من اقوال المؤرخين والباحثين ثلاثة اقوال في اصل تسمية بغداد بهذا الاسم :

اولها - ما ذكرناه من روايات المؤرخين القدامى التي تكاد تجمع على ان بغداد معناه عند بعضهم عطية باغ ، اي عطية الصنم (١٢) ، او عطية

(٨) الخطيب البغدادي - تاريخ بغداد ج ١ ص ٦٢ .

(٩) نفسه ص ٦٢ .

(١٠) معجم البلدان (بغداد) .

(١١) الفخري في الاداب السلطانية ص ١٤٠ .

(١٢) و (١٣) يروي الخطيب ان عبدالله بن المبارك كان يقول « لا يقال بغداد بالذال فان بغ شيطان وداذ عطية وانها شرك ولكن تقول بغداد وبغدان كما تقول العرب » ص ٥٩ من تاريخ بغداد ج ١ .

الملك (١٣) • ومعناه عند الآخرين بستان داذ (اسم رجل) او بستان داذويه (١٤) •
 القول الثاني - ما يذهب اليه الاستاذ يوسف غنيمة اذ يرى ان اسم بغداد
 أرمي الاصل مكون من جزئين : في (ب) المختصر من كلمة في (بيت)، وهو كثير
 الوجود في اسماء المدن كما في بعقوبة وباعشيقا ، وكدادا ومعناها في الارمية
 الضأن او الغنم ، فيكون اصل الكلمة بكدادا ومعناها بيت الغنم •
 ومما يقرب هذا الظن عند الاستاذ يوسف غنيمة ان بغداد كانت ، قبل
 بناء المنصور مدينته فيها ، سوقاً ؛ ويتحمل ان تكون تلك السوق سوقاً
 للغنم (١٥) •

القول الثالث - ما قدمناه في اول هذا البحث من عثور المنقبين الآثاريين
 على اسم بغداد منقوشاً على الألواح المسمارية من عهد حمورابي ومن بعده •
 والقولان الثاني والثالث ييجان للباحث ان يرجح ان اسم بغداد اسم
 سامي الاصل على اختلاف في معناه و(ما كان يراد به ، على حين ينص المؤرخون
 الذين يقولون بالرأي الاول على انه اسم فارسي معرب •
 ويبدو ان القولين الثاني والثالث ينتهيان الى غاية واحدة ويسلمان الى
 نتائج متشابهة وان يكن القول الثالث اقوى تلك الاقوال واثبتنا للنقد واخلقها
 لدى الباحث بالقبول • ذلك لانه ، كما رأينا ، يعتمد على ادلة مادية شاحصة
 مملوسة لا سبيل الى الطعن فيها على رغم الشك الذي يلقيه دلا فيدا
 (Della Vida) في صحة ذلك القول (١٦) •

والعجيب أنه لا يسوق على دعواه فارسية الاسم أي دليل ، وانما يقيم
 شكه (ساميته على أن النقش الذي يرجح بعض الباحثين أنه اسم بغداد يبدأ

(١٤) معجم البلدان لياقوت مادة (بغداد) •

(١٥) مجلة لغة العرب الجزء الرابع سنة ١٩٢٦ •

(١٦) دائرة المعارف الاسلامية مادة (بغداد) :

المعروف ان داد بالدال لا بالذال معناه اعطى بالفارسية من المصدر دادن
 وعلى هذا فكلام ابن المبارك لا طائل وراءه » •

بصوت يشترك في الدلالة على لفظ (حو) ولفظ (بكد) في الكتابة المسمارية.
ويرى البحاثة الاستاذ طه باقر امين المتحف العراقي أن قراءة الاسم باللفظ الاول
تجعل الكلمة خالية من المعنى في حين ان المقطع (بكد) ولفظ بكدادو
(Bagdado) وبكداته (Bagdatte) يستعمل في اللغة

البابلية القديمة بمعنى الناس والاشخاص وربما بمعنى المواضع (Localities)
ومما يدل على ذلك ان هناك قبيلة تسمى باسم بكدادو (Bagdadu)
ورد ذكرها على لسان بعض ملوك الآشوريين *

ما تقدم يمكن ان يقال ان اسم بغداد سامي الاصل ، وأن بغداد قد
خرجت الى الوجود من قبل ان يقوم الحكم الفارسي في العراق ؛ وقد يجوز ان
يكون هذا الاسم مما ورثه الفرس من الأسماء والالفاظ السامية القديمة التي
انتقلت الى العرب بعد الفتح الاسلامي . وقد كشفت الابحاث الآثرية الحديثة
عن طائفة كبيرة من الاسماء والمفردات ، كان يظن أنها فارسية الأصل ، ثم ثبت
لدى الباحثين ان الفرس قد اقتبسوها من اللغات السامية القديمة واحتفظوا بها
ووصلت بطريق لغتهم الى العرب ؛ من ذلك أسماء بعض النباتات والاشجار وما
الى ذلك (١٧) .

ويترب على هذا الترجيح نتائج تاريخية خطيرة في تاريخ الحضارة
الاسلامية التي حملت بغداد شعلتها بضعة قرون ، ونسب الفضل فيها الى غير
العرب الى حد كبير وبخاصة الفرس . ونحن لانود ان نتعجل الخوض في تلك
النتائج او نقطع فيها برأي ، وانما يهمننا ان نشير الى ان بغداد او موضعها وما
كان يحيط به قد أصبح ميراثاً للآراميين ، حتى ان القرى التي بقيت تحيط بها
بعد ان اصبحت عاصمة العباسيين كانت بأسماء آرامية ويقيم في اكثرها فريق من

(١٧) يلاحظ ان الفرس كانوا يستخدمون الخط المسماري في كتابتهم . وقد
نشرت بعض ابحاث في المفردات واسماء الاشجار والنبات في اعداد
مجلة سومر سنة ١٩٥٢ - ١٩٥٣ .

النصارى الآراميين ، وقد بقي اكثرها معروفاً في العصر العباسي يقصده الناس للنزهة والترويح عن النفس ويلتمسون فيه اسباب اللذة والمتعة من خمر وغناء وهو مختلف الضروب والالوان .

من هذه القرى : قطر بل وهي قرية بين بغداد وعكبرا - ينسب اليها الخمر ويذكر ياقوت انها ما زالت الى ايامه متنزهاً للبطالين وحانة للخمارين^(١٨)، وكانت تقع شمالي بغداد . ومنها ايضاً كلواذي وكانت تقع جنوبها . قال الشاعر ابو الفرج البغياض يذكرهما^(١٩) :

كم للصبابة والصباء من منزل	ما بين كلواذي الى قطر بل
جادته من ديم المدام سحابة	أغنته عن صوب الحيا المتهلل
غيث اذا ما الراح أومض برقه	فرعوده حث الثقل الاول
نطقت مواقع صوبه بسحابة	تهمى على كرب الفؤاد فتجلي
راضعت فيه الكأس أهيف يشني	نحوي بجيد رصا وعيني مغزل
فأتى وقد نقش الشعاع بنانه	بموج من نسجها ومبقل
وكسا الخضاب بها بنائاً يا له	لوانه من وقته لم ينصل

ومن تلك القرى ايضاً قرية قطفتا ، وهي محلة كانت بالجانب الغربي مجاورة لمقبرة الدير التي يقع فيها قبر الشيخ معروف الكرخي^(٢٠) ، ومنها قرية روثالا او ورثال وسونيا ، وقد اصبحت (ما بعد بناء بغداد جزءاً منها وصار مكانها محلة تعرف بالعتيقة^(٢١)) ، ومن تلك القرى ايضاً بادوريا وبنورا وغيرهما^(٢٢) .

١٨ - ١٩) معجم البلدان لياقوت ، مادة (قطر بل) و (كلواذي) .
(٢٠) معجم البلدان لياقوت مادة (قطفتا) . والشيخ معروف الكرخي صوفي مشهور لا يزال قبره قائماً في الجانب الغربي من بغداد .
(٢١) معجم البلدان مادة (روثالا) و (سونيا) .
(٢٢) معجم البلدان مادة (بادوريا) و (بنورا) .

وإذا صح ما يغلب على الظن وما يرجحه الاثاريون من ان هذه القرى التي دخل بعضها في بغداد كانت قرى آرامية وكان يقيم فيها فريق من النصارى السريان بقوا الى عهود متأخرة أهل اللهو والأنس والخمر في بغداد جازلنا ان نستنتج أن جزءاً كبيراً من الحضارة العباسية ، هو الذي يتصل باللهو والأنس ومجالس الشراب ، منحدر من اصول سامية عراقية قديمة لقحت ببعض ما جاء به ساكنو المدينة الجدد من حضارة الحجاز وحضارة الشام وحضارة فارس . وجاز لنا ايضاً ان يكون لنا بين القائلين بفارسية الحضارة العباسية وبين القائلين بيونانيتها رأي ثالث لعل له ما يؤيده ويشد أزره من التاريخ القديم ؛ وهو أن الحضارة البغدادية والمزاج البغدادى الذي اشتهر في التاريخ باللفظ والظرف والرقّة مزاج يستمد ببعض معينه من أصول سامية قديمة لا تزال معروفة عند أهل بغداد ، حتى اليوم بذلك (٢٣) .

٣- مبدأ معرفة العرب بها

أما مبدأ معرفة العرب المسلمين ببغداد فيبدو ان اول ذكر لها في التاريخ كان سنة ثلاث عشرة للهجرة (٢٤) . وتفصيل ذلك ما يرويه الخطيب البغدادى اذ يقول :

« كانت بغداد في أيام مملكة العجم قرية يجتمع فيها رأس كل سنة التجار

(٢٣) كان من آثار هؤلاء السريان في بغداد أن أهل الظرف والترف واللهو كانوا يحتفلون بأعيادهم ويشاركونهم في لهوهم وأنسهم . قال ابو الفرج « أخبرني علي بن هرون المنجم عن زرياب ، قالت : « زرت عبدالله بن المعتز في يوم السعانيين فسر بورودي وصنع من وقته لحناً في شعر عبدالله بن العباس الربيعي :

انا في قلبي من الظبي كلوم فدع اللوم فان اللوم لوم
حبذا يوم السعانيين وما نلت فيه من سرور لو يدوم
الاغاني ج ٩ ص ١٣٥ .

(٢٤) لسترنج - بغداد عاصمة الخلافة العباسية ترجمة بشر فرنسيس ص ٢٠ .

يقوم بها للفرس سوق عظيمة فلما توجه المسلمون الى العراق وفتحوا اول السواد ذكر للمثنى بن حارثة أمر سوق بغداد « (٢٥) » .

ويروي الخطيب ايضاً ان اهل الحيرة قالوا للمثنى « ألا ندلك على قرية تأتيها تجار مدائن كسرى وتجار السواد ، ويجتمع بها في كل سنة من أموال الناس خراج العراق ، وهذه ايام سوقهم التي يجتمعون فيها ، فان أنت قدرت على ان تعبر اليهم وهم لا يشعرون ، أصبت ما يكون فيه عز المسلمين وقوة على عدوهم ؟ » - قالوا : وبينها وبين مدائن كسرى عامة يوم (٢٦) . فقال لهم : « فكيف لي بها ؟ » فقالوا له : « ان أردتها فخذ طريق البر حتى تنتهي الى الأنبار ، ثم تأخذ رؤوس الدهاقين فيبعثون معك الأدلاء ، فتسير سواد ليلة من الأنبار حتى تأتيهم ضحى ٠٠٠ » ثم سار بهم فصباحهم في أسواقهم (٢٧) .

والظاهر ان هذه القرية التي عرفها الفاتحون المسلمون في العام الهجري الثالث عشر قد أصبحت في ما بعد جزءاً من العاصمة العباسية الواسعة الرقعة ، المديدة الأطراف ، لأن المؤرخين يكادون يجمعون على ان مدينة المنصور التي عرفت بعد بنائها ببغداد قامت في موضع كان يعرف بهذا الاسم قبل ان تعرف به العاصمة العباسية ، كما اسلفنا في أول هذا الفصل . والمرجح ايضاً ان هذه القرية التي وردت في الالواح المسامرية ثم في الشاهنامة الفارسية (٢٨) قد أصبحت بعد بناء المنصور ضاحية من ضواحيها ، كما يقال في هذه الأيام ،

(٢٥) تاريخ بغداد ص ٢٥ .

(٢٦) الظاهر ان موضع هذه القرية ليس هو موضع المدينة المدورة التي بناها المنصور لان بينها وبين المدائن أقل من هذه المسافة .

(٢٧) تاريخ بغداد - ج ١ ص ٢٦ .

(٢٨) ذكر الاستاذ فيق وهي أنه ورد في الشاهنامة ان الملك اردشير بن بابك احتفل بتتويجه (سنة ٢٢٦ م) في بغداد فان صح هذا دل على انه كان لبغداد شأن عظيم في اواخر ايام الفرثيين - يراجع بحث القصد والاستطراد في اصول معنى بفسداد . (مجلة المجمع العلمي العراقي ١٠٣٦٩ ١٠ م - ١٩٥٠ م) .

بدليل ما ذكره الخطيب البغدادي من انها تبعد عن مدائن كسرى مسافة عامة يوم ، وبدليل ما يرويه ياقوت الحموي عن ورود المنصور اياها اول مرة ، وانه استشار دهقان بغداد - وكانت قرية في المربعة المعروفة بأبي العباس الفضل ابن سليمان الطوسي^(٢٩) ، فأشار عليه الدهقان ان ينزل في نفس بغداد^(٣٠) .

نستخلص مما تقدم ان بغداد كانت قبل المنصور قرية صغيرة هي بقية مدينة سامية او سومرية قديمة العهد ، وكان يحيط بها قرى اخرى صغيرة يرجح انها من بقايا الساميين والسومريين الذين اسسوا حضارة وادي الرافدين ، ثم تقلبت بهم صروف الزمن وتغيرت بهم الاحوال فكانوا ركيزة من ركائز المسيحية في الهلال الخصيب ، بدليل ما كان يقوم في تلك المواضع من الاديرة والمعابد .

وكان موضع بغداد قبل ان يبنى المنصور فيها مدينته مثل ارض السواد ، تمسح ويؤخذ عنها الخراج^(٣١) ، وهي ارض وقف وقفها عمر بن الخطاب^(٣٢) . وبقيت كذلك حتى قدمها ابو جعفر المنصور سنة خمس واربعين ومائة للهجرة .

٤ - بناؤها

ولبناء بغداد قصة لا تخلو من الطرافة تتداولها كتب التاريخ فتتفق في اساسها وقد تختلف في بعض تفاصيلها . ومجمل هذه القصة ان ابا جعفر المنصور بنى لنفسه - بعد ان آل اليه امر الخلافة - مدينة عرفت باسم

(٢٩) تقع هذه المربعة في الجهة الشمالية الغربية من المدينة المدورة في ما سمي بمحلة الحربية الى الشمال من اتجاه باب الشام - تراجع الخارطة (٣٠) معجم البلدان .

(٣١) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧ .

(٣٢) نفسه ص ٩ - ويروي الخطيب اقوالا تدل على ان ارض بغداد وقف لا يجوز بيعها واقوالا اخرى تدل على انها ارض صلح فبيعها جائز - ص ١٦ نفسه .

الهاشمية الى جانب الكوفة ، وكان قبالتها مدينة ابن هبيرة قائد الامويين وعاملهم بينهما عرض الطريق • وبني ابو جعفر ايضا مدينة بظهر الكوفة سماها الرصافة اي انه القى بنفسه بين فكي عدوه •

وكانت الكوفة من قبل مقراً لأخيه وسلفه في الخلافة أبي العباس السفاح، ثم حدث بين العباسيين ما أياس العلويين من المشاركة في الثمرة التي شاركوا في غرسها وتعهدها حتى آتت اكلاها دولة جديدة كانت تدعو للمرضى من آل محمد • فلم يطب للمنصور مقامه في الكوفة بعد ان افسد اهله جنده عليه (٣٣) ، فتحول الى الهاشمية ثم لم يلبث ان حدث له في الهاشمية ما ازهده في المقام بها ، فقد ثارت به الراوندية ، وهم قوم من خراسان كانوا يقولون بتناسخ الارواح، ويزعمون ان ربهم ابو جعفر المنصور، وقدموا على ابي جعفر فطافوا بيته ، كما يطاف بالكعبة ، وقالوا : « هذا بيت ربنا » ، فخرج اليهم ينهاهم وينهرهم فلم ينتهوا ، بل تكاثروا عليه وكادوا يقتلونه لولا ان انقذه منهم القائد الاموي معن بن زائدة الشيباني الذي كان ابو جعفر المنصور يطلبه ويتربص به (٣٤) •

ولعله احس حينئذ ان مقامه بين اهل الكوفة او قريباً منهم امر يعرضه للمخاطر ومتاعب كثيرة وخاصة بعد ان قلب بنو العباس ظهر المجن لابناء عمهم العلويين — واهل الكوفة شيعتهم — واستأثروا دونهم بالخلافة والسلطان •

ولما ايقن المنصور بذلك ، اراد ان يتحول عن الهاشمية ليأمن على نفسه وعلى جنده ، فخرج من الهاشمية ، يطلب مكاناً يقيم فيه مقراً جديداً للخلافة ،

(٣٣) الطبري — تاريخ الامم والملوك ج ٩ ص ٢٣٨ الطبعة الاوربية .

(٣٤) الفخري في الآداب " لطلانية ص ١٣٧ — ١٣٨ •

وفي ذلك يقول مروان بن ابي حفصة بمدح معن بن زائدة :

بالسيف دون خليفة الرحمن

من وقع كل مهند وسنان

مازلت يوم الهاشمية معلناً

فمنعت حوزته وكنت وقاءه

وطاف في ارض السواد مصعداً منحدراً حتى بلغ موضع بغداد ، فاستطاب مكانه واستعذب هواءه .

وتحكي كتب التاريخ انه لقي في ذلك المكان راهبا اخبره ، او اخبر من كان معه ، انه يجد في كتبهم ان الذي يبني مدينة في هذا المكان رجل يسمى مقلصا .

فاستبشر ابو جعفر بذلك وتفاءل لانه كان يلقب في صغره بمقلص (٣٥) . ونزل ابو جعفر في احد الاديرة التي كان يقيم بها الرهبان في ذلك الموضع ، ودعا بصاحب الدير واحضر البطريق وصاحب بغداد وصاحب المخرم (٣٦) وصاحب الدير المعروف ببستان القس وصاحب العتيقة (٣٧) ، فسألهم عن مواضعهم وكيف هي في الحر والبرد والامطار والوحول والبق والهوام ، فأخبره كل واحد بما عنده من العلم فوجه رجالا من قبله وأمر كل واحد منهم ان يبيت في قرية منها وأتاه بخبرها .

وشاور المنصور الذين احضرهم فاجتمع اختيارهم على صاحب بغداد فأحضره وشاوره (٣٨) . فقال :

« يا امير المؤمنين سألتني عن هذه الامكنة وما تختار منها واني ارى ان تنزل اربع طساسيج في الجانب الغربي طسوجين وهما قطر بثل وبادوريا وفي الجانب الشرقي طسوجين وهما نهر بوق وكلواذي فانت تكون بين نخل

(٣٥) الطبري ج ٩ ص ٢٣٩ .

(٣٦) المخرم اقطاع ينسب الى مخرم بن يزيد بن شريح بن مخرم بن مالك بن ربيعة بن الحارث بن كعب كان ينزله ايام نزول العرب السواد في بدء الاسلام اقطعه اياه عمر بن الخطاب على رواية ابن الكلبي او كسرى في رواية اخرى - يراجع معجم البلدان لياقوت .

(٣٧) العتيقة قنطرة على نهر الصراة من بناء الفرس الساسانيين - الطبري ج ٩

ص ٢٨٠ .

(٣٨) الطبري ج ٩ ص ٢٣٩ .

وقرب الماء ، فان اجذب طسوج وتأخرت عمارته كان في الطسوج الاخر
العمارات ؛ وانت يا امير المؤمنين على الصراة تجيئك الميرة في السفن من الصين
والهند والبصرة وواسط في دجلة ، وتجيئك الميرة من ارمينية وما اتصل بها
في تامرا حتى تصل الى الزاب ، وتجيئك الميرة من الروم وآمد والجزيرة
والموصل في دجلة ؛ وانت بين انهار ولا يصل اليك عدوك الا على جسر او قنطرة ،
فاذا قطعت الجسر واخربت القناطر لم يصل اليك عدوك ، وانت بين دجلة
والفرات لا يجيئك احد من المشرق والمغرب الا احتاج الى العبور . وانت
متوسط البصرة وواسط والكوفة والموصل والسواد كله ، وانت قريب من
البر والبحر والجبل » .

فازداد المنصور عزمًا على النزول في الموضع الذي اختاره (٣٩) .
ولما عزم المنصور على بناء مدينته احضر المهندسين وذوي الخبرة بالبناء
واخبرهم بالصفة التي اراد ان تبني مدينته على غرارها وجلب الصناع
والنجارين والبنائين من كل مكان واجرى عليهم الارزاق ولم يبدأ بالبناء
الا بعد ان تكامل لديه من اهل المهن والصناعات ما اراد .

والذي يبدو مما يرويه المؤرخون انه هو الذي صنع الخطة وامر
بتنفيذها ، وانه هو الذي اراد لمدينته ان تكون مدورة يتوسطها قصره
ومسجده . ويفهم من ذلك ان المنصور هو الذي ابتكر هذا الطراز في
تخطيط المدن لانه هو الذي اشار بأن تبني المدينة على هذه الهيئة (٤٠) .

وقد ابتداء المنصور اساس المدينة المدورة سنة خمس واربعين ومائة

(٣٩) الطبري ج ٩ ص ١٧٤ - ٢٧٥ . الكامل لابن الاثير ج ٥ ص ٤٣٥ - ٤٣٧ .
(٤٠) تاريخ بغداد ج ١ ص ٦٧ ولسترنج ص ٢٣ . يذهب الدكتور مصطفى
جواد الى ان مهندس بغداد قلد التصميم البنائي لمدينة الحضر من حيث
الشكل والمساحة .

للهجرة^(٤١) في بعض ما يرويه الخطيب البغدادي او في سنة اربع واربعين ومائة وبضعة اشهر في رواية اخرى •

• وتم البناء في حدود سنة ست واربعين ومائة للهجرة^(٤٢) •

• (و) هذه السنة فرغ ابو جعفر المنصور من بناء ما كان يحتاج اليه كقصر الخلافة والدواوين والخزائن ونزلها مع جنده ، ونقل اليها الخزائن والاموال والدواوين وسماها مدينة السلام^(٤٣) •

ويظهر ان المنصور قد استعجل النزول بها فنزل قبل ان يستتم بناء السور المحيط بها ، فان ذلك لم يتم الا في سنة تسع واربعين ومائة للهجرة او قبل ذلك ببضعة اشهر^(٤٤) •

وقد اتم ابو جعفر المنصور بناء مدينته على ما اراد ، واسكن فيها من اراد من الناس •

وقد رحل اليها بعد بنائها كثير من اهالي البصرة والكوفة والامصار المجاورة^(٤٥) ممن كانت المدينة تحتاج اليهم للوفاء بمطالب اهلها من الاعمال التجارية والصناعية •

ويبدو ان هذه الاعمال التجارية والصناعية قد اتسعت وصارت تتطلب مجالا رحباً لا يتيسر لها في داخل المدينة المدورة فاضطر ابو جعفر ان ينقل الاسواق من المدينة الى باب الشعير والمحول وقد كان ذلك على ما يرويه الخطيب سنة سبع وخمسين ومائة ١٥٧ هـ^(٤٦) •

(٤١) تاريخ بغداد ج١ ص ٦٧ •

(٤٢) نفسه ص ٦٧ •

(٤٣) تاريخ بغداد ج١ ص ٦٧ •

(٤٤) تاريخ بغداد ج١ ص ٦٧ •

(45) De Lacy O,Leary:How Greek Science Passed to the Arabs, P.149.

(٤٦) الخطيب - ج١ ص ٦٧ ويذكر ابن الاثير في علة نقل الاسواق ان رسولا لملك الروم انتقد وجود الاسواق في داخل المدينة وأشار على أبي جعفر بنقلها ففعل ؛ ابن الاثير ج٥ ص ٤٣٩ •

وقد اتسعت الكرخ اتساعاً حتى أصبحت اوسع محلات بغداد وبلغت من التنظيم مبلغاً كبيراً فأصبح فيها لكل تجار وتجاره شوارع معلومة وصفوف في تلك الشوارع وحوائيت وعراض ؛ وليس يختلط قوم بقوم ولا تجارة بتجارة ولا يباع صنف في غير صنفه ولا يختلط اصحاب المهن من سائر الصناعات بغيرهم . وكل سوق مفردة وكل اهل تجارة منفردون بتجاراتهم وكل اهل مهنة معزلون عن غير طبقتهم (٤٧) .

وهكذا اقتضى توسع المدينة في عهد بانيها ان تستقل بالتجارة والصناعة بقعة جديدة اسوارها بلغت من التنظيم الى هذا الحد الذي سلف وصفه .

وظلت الكرخ وسوقها تزداد اتساعاً حتى أصبحت محلة عظيمة من محلات بغداد أو مدينة الى جانبها فيها الأسواق وفيها المساكن وفيها بيوت اللهو والانس حتى أصابها الاهمال فاحترقت في زمن الوائق (٤٨) .

وكما استقلت التجارة والصناعة بحجي من احياء بغداد أسس لهذا الغرض فقد ابنتى أبو جعفر المنصور الرصافة (الجانب الشرقي من بغداد لتكون مقراً لابنه وولي عهده محمد المهدي وعسكراً لجنده .

وفي أسباب بناء الرصافة يذكر المؤرخون أن الجند قد شغبوا على أبي جعفر المنصور فتحوف ان يبلغ ذلك مبلغ الخطر فاستشار في ذلك جماعة من أهل بيته فأشار عليه قثم بن العباس بن عبدالله بن العباس ان يعير بابنه المهدي الى الجانب الشرقي وأن يجعل معه قطعة من العسكر ويبنى له هناك مدينة فيصير هو في جانب وابنه في جانب ، فاذا ارتاب أحد الجانبين استعان عليه بالجانب الآخر . أخذ أبو جعفر المنصور بأشارة ابن عمه هذا فبنى الرصافة واسكن

(٤٧) لسترنج ص ٦٥ .

(٤٨) لسترنج ص ٦٦ .

فيها ابنه محمداً وعسكره^(٤٩) وكان بناء الرصافة سنة احدى وخمسين ومائة حين قدم محمد من خراسان .

ولما ولي محمد المهدي الخلافة جعل الرصافة مقراً له ولم يعد الى مدينة أبيه بالجانب الغربي فأدى ذلك الى اتساع الرصافة وزيادة العمران فيها .

وقد أنشئ في الرصافة أول الأمر جامع المهدي وقصره المعروف بقصر الرصافة وكان يحيط بها سور يفصلها عما جاورها . وبعد ان تولى المهدي اتجه اليها العمران فاتصلت العمارة جنوبيها وشمالها ونشأت محلتا سوق يحيى والمخرم في الجنوب ومحلتا الخضيرية والشماسية في الشمال .

وفي المخرم كانت دار الوزارة العباسية (الحقةبة التي نحن بصدد البحث فيها وفي الشماسية كانت دار الروم وأكثر مساكن النصارى .

٥- اسبابه ، وصف عام

وقد ذكر المؤرخون لبناء بغداد اسباباً منها ما لقيه ابو جعفر المنصور في الكوفة وفي الهاشمية من ظروف غير ملائمة لما كان بسبيل القيام به من توطيد الخلافة وتثبيت دعائمها .

ولعل من حق الباحث في انشاء بغداد وفي تاريخها ألا يكتفي بطواهر تلك الأسباب السياسية والعسكرية . ولعل تلك الأسباب ايضاً في حاجة الى التفسير والايضاح فان في موقع بغداد وفي مجرى الحياة السياسية والاجتماعية فيها ما يبيح للباحث ان يستنتج اسباباً اخرى لعلها أعمق وأدق وأولى بالاهتمام .

لقد تكونت الدولة العباسية تكويناً لايمكن ان يعد بحال من الأحوال استمراراً لتكوين الدولة الاموية التي قامت هي على انقاضها . وانما كان تكويناً فيه عناصر جديدة في الحياة الاسلامية لم يكن لها من قبل مزيد من

(٤٩) الفخري ص ١٥٠ - ١٥١ وابن الاثير ج ٥ ص ٤٩١ - ٤٩٢ .

المشاركة المؤثرة في حياة الدولة بل كان يحول بينها وبين ذلك شيء من شعور الأمويين بالتمييز بين الطبقات ورثوه من اجدادهم في العصر الاسلامي وفي ما قبله ، هذه العناصر هي التي تصدت في أواخر العصر الأموي لتحمل الدعوة الجديدة للرضا من آل محمد ، وكان مجال نشاطها العراق وخراسان فكان من الطبيعي ان تلتبس مجال العمل في الدولة الجديدة في مكان آخر غير المجال الذي كان يعمل فيه الأمويون وأنصارهم ، مكان بكر من الوجهة السياسية .

فالكوفة لا تصلح أن تكونه لأن الكوفة علوية من أول أمرها ، وقد نصرت الدعوة يوم كانت للرضا من آل محمد ، فلما كشفت الدعوة عن حقيقتها وتبين انها لبني العباس من دون غيرهم تململ في اهل الكوفة تمردهم وتهبوا للوقوف في وجهها والانتفاض عليها .

ولا تصلح له البصرة فان البصرة عثمانية زيرية خارجية وما شئت من الافكار والحركات السياسية والمذاهب الدينية والفلسفية .

كان لازماً على المنصور اذنان يختار لدولته الجديدة ارضاً بكرأ لم يحرث فيها الأمويون ولم يغرس فيها العلويون ولم يجن منها الخوارج ، ارضاً يأمن فيها على الاساس الذي اراد ان يقيم عليه بناء الدولة الجديدة ، ويضمن لنفسه الحرية المطلقة في ان يبني كيف يشاء وان يستخدم في مواد بناء الدولة ما يشاء .

فكان مثله في ذلك مثل الزارع المتيقظ الحريص الذي يريد ان يستنبت نباتاً يحرس عليه ويجهد في الحفاظ عليه ، وكان يعرف اي اثر للجو والتربة يكون في النبات فتجنب ما كان يعرف من الاجواء والترب التي شهد اثرها في النبات من قبل ، وما يمتنع ان يحيط بالنبت من ادغال واشواك قد تستعصي في ما بعد على التزكية والتنقية ، فتلتف بالنبتة الناشئة وتعيش عليها كالنبات الطفيلي حتى تمنع نماءها او تسير به في طريق غير التي يريدونها ، او تستولي

عليها حتى تدها في مهدها او تخنقها من قبل ان تبلغ اشدها •

وكان ايضا مفتاح العينين لما يمكن ان تقذف به الريح الى هذه الارض مما يمكن ان يكون خطراً على حياة تلك النبتة ، فكان يسارع الى القضاء عليه آمناً من تألب امثاله عليه وعليها ، مطمئناً الى انه يعالج ذلك وهو يواجه الدخيل المخشي الخطر قبل ان يستفحل امره ويستشري خطره •

ومن المهم ان نلاحظ ايضاً ان بغداد كانت عنواناً لدولة ذات مفهوم جديد في التاريخ العربي الاسلامي استمدته من حياة مؤسسها الحقيقي ابي جعفر المنصور اذ هو في الواقع واضع اساسها في السياسة والحضارة والثقافة ، وكان هو المؤثر الاول في تكوينها على الشكل الذي تكاملت فيه فيما بعد • وفي سلالته بقيت خلافتها واستمر امدها •

ولعل للباحث شيئاً من الحق في اتخاذ شخصية هذا الخليفة الفذ صورة عامة اولية يستدل منها على ملامح الدولة حين تكونت وحين تأسست وتكاملت •

كان ابو جعفر المنصور قرشياً من ولد العباس بن عبدالمطلب ، فهو يختلف من حيث تاريخ اسرته عن سواء من سداة قريش علويهم وامويهم • فان لبيته في الجاهلية مكانة تداني في شأنها مكانة البيت الاموي في الجاه وفي الشراء ؛ وتاريخ جده العباس في الجاهلية معروف غير خفي ، فقد كان العباس تاجراً ذا حظ عظيم من الدنيا بخلاف اخويه ابي طالب وعبدالله ، وكان له بساتين في الطائف ، وكان يتخذ في اسفاره سمت الملوك الأقدمين ، ولهذا علا مقامه بين سداة قريش فكانت له سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام^(٥٠) • ثم استمرت مكانة هذا البيت بعد الاسلام فكان العباس ، وهو عم النبي ، ركناً من اركان الاسلام يحمي المسلمين في مكة ويخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بما كان

(٥٠) دائرة المعارف الاسلامية مادة (العباس) •

يبيته له المشركون من المكائد وما كانوا ينوونه له من الأذى (٥١) .
 وكان ابنه عبدالله العباس - وهو جد ابي جعفر - حبر الأمة وعلماً من
 اعلام المعرفة في الحديث وفي قراءة القرآن وفي راحة الرأي وسداد الفكر .
 وبقي هذا البيت بمنجاة من مظالم الأمويين والعسف الذي الحقوه
 بخصومهم في السياسة بالقياس الى آل علي وآل الزبير .

حتى ان الباحث ليستطيع ان يقول ان آل العباس قد سألتهم الظروف التي
 احاطت بالدولة الاسلامية فلم يصابوا بأذى كالذي اصاب العلويين مثلاً . ولعل
 سبب ذلك انهم ورثوا عن جدهم العباس وعياً وبقظة لشؤون الحياة الدنيا الى
 جانب نصيحتهم من الحياة الدينية الاسلامية فكانوا لذلك اقل اندفاعاً في الدفاع
 عن المثل العليا في الدين وفي السياسة اذا قيسوا بالحسين بن علي وعبدالله بن
 الزبير . ويمكن ان يوصفوا في سياستهم بالواقعيين الذين لا يقدمون على امر
 لا تضمن نتائجه ولا تؤمن عواقبه . ولقد كانوا على شيء من المكانة المرموقة
 عند الامويين يزيد على ما كان لغيرهم من بيوتات قريش ؛ وقد ضمن لهم هذا
 الشيء واقعتهم التي وصفت آنفاً والتي تروى عن جدهم العباس بن
 عبدالمطلب فيها اخبار ونوادير من حيث تعلقه بالمال واقباله على الدنيا اقبالا
 يخالف زهد ابي بكر وعمر وعلي (٥٢) .

(٥١) نفسه .

(٥٢) كان العباس في صف قريش اول ايام الدعوة الاسلامية ثم لما رأى
 انتصار الرسول ابن أخيه وما بلغ من سطوع نجمه واخضاع خصومه
 انحاز اليه وتقرّب منه ، والدليل على ذلك انه كان يحارب في صفوف
 المشركين يوم بدر وقد أسر وافتدى نفسه .
 وكان ايضا علم حانب عظيم من الدهاء السياسي والوعي الاقتصادي - ان
 صح هذا التعبير - فقد صحب فاطمة رضي الله عنها يوم ذهبت الى ابي
 بكر تطالبه بنصيبها من ميراث ابيها صلى الله عليه وسلم . وحاول ان يحمل
 عليها على الا يشارك في اختيار خليفة لعمر وان لم يفلح في ذلك
 (دائرة المعارف الاسلامية) .

لقد كان العباسيون يتميزون بهذه النظرة الواقعية للحياة ، تلك النظرة التي ترضى بالواقع ما دام واقعاً وتوطن النفس على الافادة منه والمسايرة له . وكانت هذه النظرة الواقعية هي الاساس المتين والبذرة القوية التي ضمنت لهم نجاح الدعوة وقوة بناء الدولة واستمرارها في الحكم اجيالا طويلة لم تنتهياً من قبل لأسرة اخرى .

ولقد كان بناء بغداد وتخطيطها حافلا بالمعاني التي اشرت اليها في خلال الكلام السابق .

لقد بناها ابو جعفر المنصور — كما شاء — مدينة مدورة مسورة يتوسطها قصره ومسجده وتحيط بها دواوين الدولة ثم قصور اهل بيته ورجال دولته (٥٢) . وجعل حول هذه المدينة سوراً وخندقاً يقيانها هجمات المهاجمين ويصدان عنها عدوان المعتدين .

هكذا اراد المنصور ان يتخذ لنفسه حاضرة ليس فيها اناس لا يأمنهم ولا يطمئن اليهم ، بل اختار سكانها الاقربين اليه اختياراً لا شائبة فيه ، واحاط نفسه بهم احاطة السوار بالمعصم كما يقولون واستبعد من جواره كل من كان يتوقع منه شغباً او لفظاً حتى التجار واهل الحرف .

وقد اختار المنصور لمدينته الجانب الغربي من نهر دجلة لأن هذا الجانب متصل ببلاد العرب شامها ونجدها وحجازها من دون فاصل او حاجز . ولعل حفظ التوازن بين العناصر الاعجمية التي قامت في الدعوة العباسية بنصيب موفور وبين العنصر العربي وهو مادة الدولة الاسلامية وعصبها الذي يفرع اليه في الملمات هو الذي زين ذلك لأبي جعفر المنصور وحمله على ان يتخذ الجانب الغربي من نهر دجلة موضعاً لمدينته ، وهو الذي جعله يؤثره على مكان المدائن عاصمة الساسانيين التي تقع في الجانب الشرقي من نهر دجلة .

(٥٣) يذكر ابن الاثير ان المنصور جعل مدينته مدورة لئلا يكون بعض الناس اقرب الى السلطان من بعض (الكامل ج ٥ ص ٤٣٩) .

وهكذا كان أبو جعفر المنصور يريد أن يجمع بين صلته بأنصار الدعوة العباسية من الفرس ويؤمن لنفسه خط الرجعة — كما يقول المعاصرون — فيجعل نفسه قريباً من أهله وعشيرته وذوي قرباه من العرب .

يضاف إلى ذلك أن الجانب الغربي بالنسبة لنهر دجلة شرف لا يبلغه ماء النهر إذا فاض إلا بعد أن يفيض على الجانب الآخر ، فهو من أجل ذلك آمن وأبعد عن الخطر . ثم أنه يكاد يقع بين النهرين دجلة والفرات في الرقعة التي يقترب فيها أحدهما من الآخر (٥٤) بحيث يتيسر له الري من أيهما شاء ، هذا علاوة على لطافة الجو وطيب المناخ واعتدال الهواء الذي تستفيده المدينة من هذا الموقع .

ولعل أبا جعفر كان يتوقع من الشرق — بلاد فارس وخراسان — شغباً وعصياناً كالذي وقع من أبي مسلم الخراساني فأراد أن يجعل نهر دجلة حائلاً بينه وبين الجند الفرس والخراسانية . وما يدرينا لو أنه أراد أن يفتك بأبي مسلم وهو بالجانب الشرقي من نهر دجلة لوفدت عليه اتباع أبي مسلم من الجند الخراسانية يطالبون بثأره ويهددون العاصمة والدولة بالانهيار . وهم قد حاولوا مثل ذلك فحال بينهم وبين غرضهم النهر وأسوار المدينة المدورة وخنادقها .

لقد كان أبو جعفر المنصور — فيما يبدو للباحث ويرجح لديه — عارفاً أن بلاد فارس وخراسان موطن لنزعات فكرية وسياسية ذات خطر على كيان الدولة ، وهو سلك مع القوم مسلك السياسي المحنك ، فاستغل سخطهم على الأمويين واندفاعهم في الحماسة لتقويض دولتهم وعظفهم على آل بيت الرسول وولاهم لهم ، فاستفاد منهم ما وسعه أن يستفيد ولكنه بقي يقظاً لما يمكن أن يترتب به وبدولته من تلك البقايا الموروثة من ديانات الفرس

(٥٤) لا يكاد نهر الفرات يبعد عن موضع بغداد أكثر من بضعة عشر ميلاً .

واتجاهاتهم الدينية ومذاهبهم الفكرية ، جذرا من انقلابهم عليه وانتفاضهم على ولايته لذلك ابقى على صلته بالعرب فقرب عاصمته منهم وجعلها متصلة بهم لا يفصل بينها وبينهم فاصل •



كان حفظ التوازن الذي اشرت اليه طابعا تتسم به بغداد بوصفها مركز الخلافة وموطن النشاط في السياسة والعلم والادب ، وكانت بفضل هذا الاساس الذي اختطه فيها مؤسسها ابو جعفر المنصور تسلك سبيلا وسطا في الحياة السياسية والاجتماعية والادبية • فلم تسلم قياد الحياة العامة للاعاجم يسرونها كما كانوا يشتهون ، بل كان فيها جانب حفيظ على العروبة يترصد خطوات الاعاجم ويقابل مساعيهم بما كان في وسعه من عمل مضاد ، او يحول بينهم وبين ما يشتهون بالعنف الصريح تارة وباللين الخفي تارة اخرى •

وكان هذا المظهر واضحا في حياتها الادبية وفي الشعر — وهو موضوع بحثنا — بصفة خاصة • فلم تكن نزعات التجديد والانقلاب لتنفرد بالتأثير فيه ، بل كان جانب المحافظة يعلن عن نفسه ويثبت وجوده ، حتى قيض للشعر ان يحتفظ بأصوله القديمة وان يتطور في حدود مقوماته الموروثة وخصائصه المتحدرة اليه من عصوره الاولى •

الفصل الثاني

صورة عامة للحياة الاجتماعية والعقلية في بغداد

١- الحياة العامة واثـر الخلفاء فيها

كانت الدولة العباسية في أول أيامها تحتاج الى توطيد أركانها واستكمال بنائها ، مثلها في ذلك كمثل كل دولة حديثة ناشئة .

وكانت بغداد في أول عهدها أشبه شيء بالمدينة التي أنشئت لتكون داراً للخلافة ومقرّاً لرجال الدولة . فكانت المدينة المدورة على الحال التي وصفنا من قبل ، يتوسطها قصر الخليفة ومسجده يحيط بهما بيوت رجال الدولة وأركانها، وكانت أسواقها في الداخل الى أن نقلها أبو جعفر المنصور الى الكرخ على ما مر بيانه .

والذي يبدو مما أورده المؤرخون ورواة السير والأخبار ان الحياة كانت في زمن المنصور جداً لا مكان للهو فيه ، على ما يظهر ، فقد كان شخصية جبارة وطلدت دعائم الخلافة ومكنت للبيت العباسي فيها ، وقد طغى بشخصيته هذه على من حوله من شخصيات المجتمع البغدادي فلم يكـد يظهر لغيره أثر واضح في الحياة الاجتماعية .

ومن أجل هذا يصلح أبو جعفر المنصور لأن يتخذ عنواناً للحياة الاجتماعية في بغداد في عصره على أقل تقدير .

كان المنصور بطبيعته أميل الى الجد والحرص فصنع الحياة الاجتماعية في زمنه بالجد والصرامة ولعله لو لم يكن كذلك لاضطراب الأساس الذي قامت

عليه الخلافة العباسية ولما استمر بها الزمن قوية ثابتة الأركان رغم ما كان يحيط بها من عوامل الضعف التي كانت تتربص بها الدوائر • فان دور التأسيس الذي كان في عهده حقيقة واقعة جعله ينصرف بكلية الى العمل في كل ميدان لتمكين ذلك البناء والمحافظة عليه • وقد كانت الفتن والثورات تحيط به من كل جانب: ثورات العلويين وفتنة أبي مسلم وأتباعه من الخرمية وغير ذلك مما هو مفصل في كتب التاريخ •

وكان المنصور - فوق ذلك - مقترأ حريصاً على المال ، حتى انه لقب بالدوانيقي من شدة حرصه • وكان بطبعه رجل كفاح وبناء ، عاصر شطراً كبيراً من عصر الدعوة العباسية وأبلى فيها ، وكان عليه أن يقوض الدولة الأموية تقويضاً تاماً ، وأن يتتبع كل ما يهدد كيان دولته فيقضي عليه • لذلك كانت فترة حكمه فترة جد صارم وعمل مستمر ، لم يفرغ فيها المجتمع الى نفسه ولم يمكن فيها من اللهو والهزل والمرح فيما يبدو •

وكانت مجالسه الخاصة - كما تروى كتب التاريخ - مجالس يغلب فيها جده ومحافظته ، وتطغى فيها شخصيته القوية الجبارة ، ولم يعرف فيها المرح ، فلا قينة تغني ولا شاعر يمدح •

ثم انقضى زمن المنصور وجاء بعده ابنه محمد المهدي ، فوجد ملكاً وطيدة دعائمه ، راسخة أركانه ، فافتتح عهده « بالنظر في المظالم والكف عن القتل وأمن الخائف وانصاف المظلوم » وبسط يده في الاعطاء فأذهب جميع ما خلفه المنصور » (١) •

وتنفس المجتمع الصعداء ، وتدفقت فيه الثروة ، ووجد في حياته الجانب الذي كان يفتقده في عهد المنصور : جانب المرح واللهو والأنس والهزل • وانطلق المجتمع على سجيته ، فظهر فيه ما كان مستتراً ،

(١) مروج الذهب للمسعودي ج ٣ ص ٢٣٦ •

يحول دون الجهر به لون الحياة الذي أفاضه عليه أبو جعفر المنصور بجده وصرامته • والناس على دين ملوكهم •

كان محمد المهدي فيما يرويه عنه المؤرخون أريحياً يعرف للجانب المشرق مكانه في الحياة ، وكان سخي اليد كريم النفس ، يعينه على ذلك ملك ورثه على جانب عظيم من الاستقرار ، و ثراء عريض جهد أبو جعفر فيه ولم ينعم بخيراته • وقد كان يجد في وقته مكانا للهو والترويح عن النفس ، فيخرج للصيد ويستمتع الى الغناء وانشاد الشعر •

تحدث عنه الفضل بن الربيع فقال : « خرج المهدي متنزها ومعه عمرو بن ربيع مولاه ، فانقطع عن العسكر والناس في الصيد ، وأصاب المهدي جوع شديد فقال لعمرو : « ويحك ألا انساناً عنده ما نأكل ؟ » فما زال عمرو يطوف الى أن وجد صاحب مبقلة والى جانبها كوخ له ، فقصد اليه فقال : « هل عندك شيء يؤكل ؟ » قال : « نعم ، رقاق من خبز شعير وريشاء وهذا البقل والكراث • » فقال له المهدي : « ان كان عندك زيت فقد اكملت • » قال : « نعم عندي فضلة منه » • فقدم اليهما ذلك ، فأكلوا اكلا كثيرا وامعن المهدي حتى لم يبق فيه فضل • فقال لعمرو : « قل شعرا وصف ما نحن فيه » • فقال عمرو :

ان من يطعم الريشاء بالزيت ت وخبز الشعير بالكراث
لحقيق بصفعة أو بشتيت ن لسوء الصنيع أو بثلاث

فقال المهدي : بئس والله ما قلت ، ولكن احسن من ذلك :

لحقيق بيدر أو بشتيت ن لحسن الصنيع أو بثلاث
ووافى العسكر ولحقته الخزائن والموكب فأمر لصاحب المبقلة بثلاث
بدر دراهم (٢) •

ومثل هذا الخليفة ، يتيح للمجتمع ان ينطلق فيلهو ويمرح ويأخذ من متاع الحياة بنصيب .

وقد كان للمجتمع البغدادي استعداد لهذا اللون من الحياة ، فجمال الطبيعة فيها ووفرة المياه والمزارع والأنهار والبساتين واعتدال الهواء تجعل النفوس نزاعة الى الاستمتاع بجمال الحياة ، يضاف الى ذلك ما كان حول بغداد من القرى الجميلة التي كان أهلها على دراية باللهو والشراب ووسائل المتعة .

٢- تكوين المجتمع البغدادي

وقد كان المجتمع البغدادي بطبيعة تكوينه مجتمعاً متعدد العناصر ، فكان فيه الأقدمون من سكان بغداد من اهل السواد الذين كانوا يعيشون على الزراعة، وهم ايضاً عناصر متعددة : منها الفارسي القديم ومنها الآرامي والنبطي ومنها العربي الذي سكنها قبل الفتح وبعده .

روى الطبري بسنده عن احمد بن حميد بن جبلة قال : « حدثني أبي عن جدي قال : كانت مدينة أبي جعفر قبل بنائها مزرعة للبغداديين يقال لها المباركة، وكانت لستين نفساً منهم فعوضهم عنها وأرضاهم فأخذ جدي قسمته منها » .

وعن حماد التركي قال : « كان حول مدينة أبي جعفر قرى قبل بنائها ، فكان الى جانب باب الشام قرية يقال لها الخطابية على باب درب النورة الى درب الاقاص وكان بعض نخلها في شارع باب الشام الى أيام المخلوع في الطريق ، حتى قطع في أيام الفتنة . وكانت الخطابية هذه لقوم من الدهاقين يقال لهم بنو فروة وبنو قنورا منهم اسماعيل بن دينار ويعقوب بن سليمان وأصحابهم » . (٣)

وكان في المجتمع البغدادي أيضاً من هاجر الى بغداد ونزح اليها من

مدن العراق ، كالكوفة والبصرة وواسط والجزيرة ، ومن اصطحب ابو جعفر المنصور من رجال الدولة • ومجتمع هذه حاله في تعدد العناصر واختلاف البيئات التي نزلت منها لا بد له من أن تقترب عناصره بعضها من بعض بأن ينزل كل منها عن بعض خصائصه ليلتقي بالعناصر الأخرى ، وأن يقدم كل منها ما عنده ، مما يجعل الحياة الاجتماعية حافلة بألوان من الحضارة يلتقي بعضها ببعض ، وتتمازج وتتفاعل ، حتى ينتج منها مزاج الحضارة الجديدة •

وقد كان هذا في بغداد فاهل هذه المنطقة ورثة حضارة مادية في الطعام والشراب والبناء والموسيقى ، وسكان المدينة الأقدمون ورثة الحضارة التي قامت في وادي الرافدين من فجر التاريخ : منها حضارة مادية ومنها تراث عقلي تحدر اليهم في الفلك والتنجيم والقصص الخرافي ، والعرب رواة أدب وشعر ورواد عقيدة وشريعة ، فالتقت هذه التيارات في بغداد وخرج منها طابع جديد للحياة الاجتماعية •

ولقد كانت عناصر الحياة الاجتماعية في بغداد :

- اولاً - ثراء عريضاً ينصب في أيدي الخلفاء من منابع عديدة •
- ثانياً - حياة عقلية راقية بلغت مبلغها من النضج وأقبلت على بغداد من كل مكان •
- ثالثاً - فناً وغناء وحياة طرية مترفة ، بدأت في الحجاز وانتقلت الى الشام والكوفة ثم جنت ثمارها بغداد •

٣- عناصر الحياة الاجتماعية

فأما الثراء فقد تدفق على بغداد تدفق السيول يحمله الى الخليفة عماله في الأمصار • وكان مركز الخلافة يجلب اليه ثمرات كل شيء ، وتمتلىء خزائنه بالأموال • وقد بدأ الخليفة المهدي عهده يبذل الاموال وبسط يده في العطاء ،

فأذهب جميع ما خلفه المنصور وهو ستمائة ألف ألف درهم وأربعة عشر ألف ألف دينار سوى ما جباه في أيامه ، وكان يعرف أنه يستطيع جباية ما يملأ الخزائن من الأموال كلما احتاج إليها فلم يكن يصغي الى اقوال أصحاب بيت المال عندما يسرف في العطاء (٤) .

ويبدو أن توطيد الخلافة وتأمين الاستقرار فيها قد بعث نشاطاً قوياً بالغ القوة ، جعل الثروة تنمو وتتزايد شيئاً حتى يروى ان الرشيد قبض أمواله بالصره وغيرها فكان مبلغها نيفاً وخمسين ألف ألف درهم سوى الضياع والدور والمستغلات .

وبلغ الرخاء في بغداد مبلغاً عظيماً فتوافرت فيها الاغذية وكثرت ، حتى لقد رأى بعض المعاصرين فيها أيام أبي جعفر كبشاً بدرهم وجملاً بأربعة دواق والتمر ستين رطلا بدرهم والزيت ستة عشر رطلا بدرهم والسمن ثمانية أرطال بدرهم والرجل يعمل بالروزجار كل يوم بخمس حبات (٥) .

ولقد كان الخلفاء وغيرهم ينفقون من هذه الأموال التي كانت تجبى اليهم عن سعة ، ويبالغون في البذخ والترف ويتفننون في ذلك حتى بلغوا مبلغ الاسراف وحتى أصبح ما يروى عن بعض مظاهر حياتهم أدخل في باب الخيال وأقرب اليه منه الى الواقع .

حدث ابراهيم بن المهدي قال : «استزرت الرشيد بالرقعة فزارني وكان يأكل الطعام الحار قبل البارد ، فلما وضعت البوارد رأى في ما قرب اليه منها جام قريض سمك فاستصغر القطع وقال : « لم صغر طبابخك تقطيع السمك؟ » فقلت : « يا امير المؤمنين هذه ألسنة السمك » ، قال : « فيشبه ان يكون في هذا الجام مائة لسان » . فقال « مراقب » خادمه : « يا امير المؤمنين فيها اكثر من

(٤) اراجع مروج الذهب ج ٣ ص ٣٦ ٢ .

(٥) تاريخ بغداد للخطيب ج ١ ص ٧٠ .

مائة وخمسين » • فاستحلفه عن مبلغ ثمن السمك فأخبره أنه قام بأكثر من ألف درهم • فرفع الرشيد يده وحلف ألا يطعم شيئاً دون أن يحضره «مراقب» ألف درهم ، فلما حضر المال أمر أن يتصدق به وقال : « ارجو أن يكون كفارة لسرفك » (٦)

ولقد أدى بهم هذا الثراء الطائل أن يتفننوا في وجوه حياتهم المختلفة فتفننوا في الطعام والشراب وغير ذلك من وسائل العيش ، وظهرت آثار الحضارة وأمارات النعمة في كل جانب من جوانب حياتهم ، وكانوا يتهادون فيظرفون في الهدايا ، ويدلون فيها على مبلغ ما أثر الترف والنعيم في طباعهم وفي اذواقهم • فإذا أرادت أم جعفر زبيدة زوج الرشيد أن تهدي ، أهدت حقائق الذهب والفضة مملوءة بالطيب والغالية^(٧) وما إلى ذلك من النفائس التي تنبئ عن سلامة الذوق وصفاء المزاج إلى جانب الكرم وسخاء النفس •

وقد يتساءل الباحث : وهل كان لعامة الناس من هذه الثروة الطائلة نصيب ، أم انها كانت وقفاً على الخليفة واسرته ومقربيه ، وعامة الناس منها محرومون ؟ وهل يصدق وصف الحياة الاجتماعية بالترف والبذخ والسعة على المجتمع عامة ؟

وليس تحت يد الباحث من الحقائق الملموسة ما يبيح له أن يجيب على هذه الأسئلة اجابة أكيدة أو قريية من التأكيد • ولكنه يستطيع ان يرجع على وجه العموم ان هذا الثراء الطائل لا بد أنه كان إلى حد بعيد وقفاً على طبقة خاصة ، كانت تتصرف بالثروة العامة بحيث تحيا حياة كانت مضرب المثل في الرغد والسرف والبذخ • وكانت الأموال العامة موكولا امرها إلى الخلفاء وأعوانهم ، يتصرفون بها كيف يشاؤون ، فيغدقون هنا ويمسكون هناك • وكان عامة الناس ، وبخاصة في الاقاليم البعيدة عن مركز الخلافة ، يقاسون الحرمان

(٦) مروج الذهب ج ٣ ص ٨٠ •

(٧) مروج الذهب ج ٣ ص ٢١٤ - ٢١٥ •

في بعض الاحيان ، فتمنع عنهم أعطياتهم ويحرمون حقوقهم في بيت مال المسلمين ، ولا سيما من لم يكن مرضياً عنه من السلطة الحاكمة وأعرانها . وكان في هؤلاء الشاكي من الاستغلال والسائل الذي يتكفف الناس والمظلوم الذي غصبه السلطان أو أعوانه حقه وتصرف الحاكمون في أمواله •

ولا تخلو كتب التاريخ من القصص التي تروى عن ظلم العمال واستيلائهم على أموال بعض الناس وأملاكهم بغير حق • كالذي يروى عن الشيخ الهمداني الذي استولى والي المنصور على أملاكه وأرسل به الى بغداد ، فأودع في السجن والتمس وسيلة يصل بها مظلمته الى المنصور (٨) • ومثل هذا يكثُر حيث يكون الامر في الدولة الى فرد لا يسأل عما يفعل ولا يلزمه قبل المحكومين الا ضميره ، فتصبح مصالح الرعية رهناً بمشيئته ومشئته عماله ، ويتوقف العدل بين الناس وحماية أنفسهم وأموالهم عليه •

ومهما يكن من شيء فان هذا الوفور في حياة الخلفاء ومن اليهم من رجال الحكم والسلطان يستأهل أن يتخذة الباحث مظهراً اجتماعياً ذا اثر بليغ في الادب وفي الشعر على وجه الخصوص ، ولا سيما في بغداد مركز الخلافة ومستقر الحكم • ذلك لأن الأدب في ذلك العصر كان يستظل بظل السلطان ويستمد منه ويعيش في كنفه كما سيأتي بيانه فيما بعد • ولم يبلغ الأدب في ذلك العصر ان يصبح أدبا شعبيا يعبر عن حياة الجماهير أو ينطق بلسانها •

وثمة أمر آخر لا يصح أن نغفله وهو أن الشعراء كانوا ينبغون ويعرفون ويشتهرون باتصالهم بالخلفاء ، ومن كتب عليه أن يستبعد أو يتباعد عنهم فقد كتب عليه الخمول والاندثار •

٤- الحياة العقلية وعناصرها

وأما الحياة العقلية الراقية فقد شهد العراق بواكيرها من قبل ان تنشأ

(٨) مروج الذهب ج ٣ ص ٢١٤ - ٢١٥ •

بغداد أو تظهر الدولة العباسية الى الوجود . فكانت نشأة المعتزلة في البصرة، وكانت نهضة الرواية وعلوم اللغة في الكوفة . ثم قام الخليل وتلاميذه في البصرة والكوفة فكانت المذاهب النحوية والدراسات اللغوية والأدبية ؛ وعلى الجملة فقد قامت بغداد وربع الفكر في ابانه والحياة العقلية مزهرة تؤذن بشار دانية القطوف .

وقد رغب أبو جعفر المنصور أن يستكمل بناء مدينته من جميع الوجوه، وأراد أن يمكن لها في الحياة العلمية ، فدعا اليها العلماء من الأمصار ممن قراء القرآن ومفسريه والنحويين ورجال الحديث وأهل الرواية . دعاهم اليها من الكوفة والبصرة اللتين كانتا من المراكز المهمة للثقافة الاسلامية في ذلك الحين^(٩) .

وقد مكن هؤلاء لأنفسهم في المجتمع فتكونت منهم طبقة وسطى ارتفعت بفضل الرعاية التي كانت تلقاها من الخلفاء الى أعلى مراكز الدولة ، وحلت في الدولة العباسية محل الطبقة الاستقراطية التي تبوت بفضل الوراثة المكانة العليا في بلاط دمشق^(١٠) .

ولم يقتصر المنصور على هذه الطائفة من رجال العلم ، بل لقد استدعى الى بغداد طائفة أخرى من العلماء الذين كانوا يشتغلون بالطب وما يجري مجراه من العلوم . فقد أصيب بمرض فاستدعى لعلاج الطيب النسطوري جرجيس بن يختيشوع رئيس مدرسة جنديسابور ومستشفاهها . وكان هذا أول اتصال بين الخلفاء العباسيين وبين آل يختيشوع^(١١) . ومن هنا بدأ اتصال الحياة العقلية في بغداد بالثقافات الأجنبية وعلوم الأوائل ، ذلك الاتصال الذي أفضى الى ان ترعى بغداد حركة الترجمة ونقل الفلسفة وعلوم الأوائل الى اللغة العربية .

(٩ ، ١٠ ، ١١) يراجع في ذلك

O'Leary : How Greek Science Passed to the Arabs, P. 150.

O'Leary : How Greek Science Passed to the Arabs, P.150 ...

وليلأظ هنا أن هذه الطائفة من العلماء النساطرة والسريان إنما هي بقايا العناصر السامية من سكان العراق القدماء الذين امتزجت لديهم الثقافة اليونانية بما ورثوه من ثقافات أسلافهم ، حتى أنهم حين نقلوا من علوم اليونان وفلسفتهم لم ينقلوه إلا عن السريانية ، ولم يسلم نقلهم من إضافة أو تحوير أو اختلاط ، وذلك يدل - على الأرجح - على أنهم كانوا يتصرفون في هذه العلوم تصرف المتمكن ولا يتقيدون بنصوصها بتقيد المقلد .

وكانت للعلماء عند الخلفاء منزلة رفيعة ومكانة قد تزيد على مكانة رجال الدولة ، وكان الخلفاء يتحملون منهم غليظ القول ويجتهدون في استرضائهم بكل وسيلة وبخاصة منهم الفقهاء والمحدثون والمتكلمون . وأخبار عمرو بن عبيد شيخ المعتزلة مع أبي جعفر المنصور تدل على ذلك دلالة واضحة . فقد كان يجله ويستحب مجلسه ويستزيه ، ولقد لقي منه غلظة القول وجفاء الكلام (١٢) . وكان مثله بالنسبة للمهدي سفيان الثوري المحدث المشهور (١٣) . ولم تكن هذه حال الفقهاء وأهل الحديث والمتكلمين فحسب بل كان يتمتع بمثل هذه المنزلة عند الخلفاء فريق من أهل الأدب ورواة الأخبار . فقد كان عيسى بن دأب يجالس الخليفة موسى الهادي ، وكان الهادي « يدعو له متكاً ، ولم يكن غيره يطمع منه في ذلك » وكان يقول له : يا عيسى ، ما استطلت بك يوماً ولا ليلة ولا غبت عني إلا ظننت أنني لا أرى غيرك » (١٤) .

وبلغ من ولوع الرشيد بأهل العلم أنه كان يصطحبهم معه أيا كان يذهب . وقد توفي علي بن حمزة الكسائي النحوي الكوفي وإمام القراءة المشهور ومحمد بن الحسن الشيباني القاضي صاحب أبي حنيفة وهما في معية الرشيد بالري سنة تسع وثمانين ومائة (١٥) .

(١٢) انظر مروج الذهب ج ٣ ص ٢٢٣ .

(١٣) نفسه ص ٢٤٤ .

(١٤) مروج الذهب ج ٣ ص ٢٤٥ .

(١٥) مروج الذهب ج ٣ ص ٢٦٣ .

أما المأمون فكان أحضى الخلفاء بالعلماء واكثرهم رعاية للعلم وأهله وعناية بهم . وكان يناظرهم ويناقشهم ويجادلهم اذ انه كان على جانب عظيم من العلم والفقه والادراك لحقائق العلوم .

وقد وصف يحيى بن أكثم ما كان يلقاه العلماء والفقهاء والمتكلمون من رعاية المأمون واعزازه واکرامه وما كانوا يتمتعون به في حضرته من انطلاق وحرية بعيدين عن هيبة السلطان وقيود التقاليد الملوكية فقال :

« كان المأمون يجلس للمناظرة في الفقه يوم الثلاثاء ، فاذا حضر الفقهاء ومن يناظره من سائر أهل المقالات ، أدخلوا حجرة مفروشة ، وقيل لهم : انزعوا اخفافكم ؛ ثم احضرت الموائد وقيل لهم : أصيبوا من الطعام والشراب ، وجددوا الوضوء ، ومن خفه ضيق فلينزعه ، ومن ثقلت عليه قلنسوته فليضعها . فاذا فرغوا أتوا بالمجامر فبحروا وطيبوا ، ثم خرجوا فاستدناهم حتى يدانوا منه ، ويناظرهم أحسن مناظرة وأنصفها وأبعدها من مناظرة المتجربين ، فلا يزالون كذلك الى أن تزول الشمس ثم تنصب الموائد الثانية فيقطعمون وينصرفون (١٦) » .

وقد رعى المأمون حركة الترجمة والنقل عن اليونانية ، ونشط في أيامه الاحتكاك بين الثقافات المختلفة ، وكان لاتخاذ مذهب الاعتزال أثره البعيد في اطلاق الفكر من قيد النقل والرواية ، وتجواله في مجالات جديدة ، فكان لذلك نتائج الطيبة في العلم وفي الادب ، وكانت ثماره تلك التصانيف والتأليف المبتكرة في سائر العلوم .

ولقد واكب انشاء بغداد حدث خطير في الحياة العقلية الاسلامية ، اذ اتجه العلماء الى تمييز العلوم بعضها عن بعض والى تصنيفها وتبويبها . وقبل ان يبدأ المنصور تأسيس بغداد بعامين (في حدود عام ثلاثة واربعين ومائة)

بدأت حركة التدوين • فقد شرع العلماء في تدوين الحديث والفقه وتفسير القرآن ، فصنف ابن جريج بمكة وصنف مالك الموطأ بالمدينة وصنف الاوزاعي بالشام وابن أبي عروبة وحماد بن سلمة وغيرهما بالبصرة ومعمار باليمن وسفيان الثوري بالكوفة ؛ وصنف ابن اسحق المغازي ، وصنف ابو حنيفة الفقه والرأي ، ثم بعد يسير صنف هشيم والليث وابن لهيعة ، ثم ابن المبارك وابو يوسف وابن وهب ، ودونت كتب العربية والتاريخ وايام الناس (١٧) .

ومما هو جدير بالملاحظة في هذا الباب ان التأليف في الفقه والرأي قد بدأ في بغداد بأبي حنيفة ، وأبو حنيفة كوفي المولد والمنشأ ، والكوفة اقرب الى التراث العراقي الغابر في بابل بنوع خاص . وفي بابل عرف التاريخ التشريع في اقدم صوره واعرقها •

وثقافة الكوفة معروفة لدى المؤرخين بأن فيها اثاراً من الصبغة العراقية القديمة بخلاف ثقافة البصرة التي كانت ملتقى اجناس عدة من فرس وهنود وغيرهم • وكان ابو عمرو بن العلاء المازني ، وهو من علماء البصرة ورواتها ، يقول لاهل الكوفة : « لكم حذقة النبط وصلفهم ولنا دهاء فارس واحلامهم » (١٨) •

ويبدو ان الحضارة العراقية القديمة او مسحة من اثارها قد تسربت الى بغداد من طريق الكوفة وعلمائها من جهة ، ومن طريق سكان بغداد الاقدمين واهل القرى المحيطة بها من جهة اخرى •

ويبدو أيضاً أن بني العاس قد آثروا ثقافة الكوفة على ثقافة البصرة

(١٧) ضحى الاسلام للاستاذ احمد امين ج ٢ ص ١١ •

(١٨) البيان والتبيين للجاحظ ج ٢ ص ٨٩ •

(١٩) نشرت نتائج هذه الابحاث مجلة سومر لسنة ١٩٥١ و ١٩٥٢ •

ومالوا اليها ، فغلب علماء الكوفة على بغداد ، واتصلوا بالخلفاء فقر بهم ، وكان أئمة الأدب والرواية في بغداد من الكوفة كالمفضل الضبي معلم الخليفة المهدي وكعلي بن حمزة الكسائي مؤدب الأمين . وصار امام النحاة في القرن الثالث أبو العباس احمد يحيى الشيباني المعروف بشعلب وهو كوفي ، وقد أنشأ المذهب البغدادي في النحو .

ولعل من أهم الاسباب التي حملت العباسيين على ايثار الثقافة الكوفية على ثقافة البصرة ما يأتي :

أولاً - إن انتقال الخلافة العباسية كان من الكوفة أو قريب منها الى بغداد فتبع علماء الكوفة انتقال الخلافة وواكبوها .

ثانياً - إن أهل الكوفة كانوا أقرب الى نفوس العباسيين من أهل البصرة لان أهل الكوفة شيعة آل البيت في حين ان البصرة كانت موطن العثمانية والزيرية والخوارج ، ثم اصبحت موطن المعتزلة من بعد ذلك .

ثالثاً - إن الكوفة كانت ادنى الى العروبة من البصرة ، وكان ابو جعفر المنصور يولي هذا الامر عناية واهتماماً كما سبق بيان ذلك في الكلام على بغداد .

رابعاً - إن البصرة كانت موطن الاراء الجديدة والنحل الدخيلة والفرق الجريئة في العقيدة ، كالمعتزلة ، وكان أهلها بحكم موقعها الجغرافي متأثرين بالافكار الاجنبية وهم اصعب من هذه الناحية قياداً من أهل الكوفة ، والسلطان اقل اطمئناناً اليهم .

خامساً - ان الكوفة كانت اقرب مسافة الى بغداد من البصرة .

أما عنصر الثقافة العراقية القديمة فالمظنون انه كان بين سكان القرى المحيطة ببغداد من وعى شيئاً من علوم العراقيين الاوائل ، تلك العلوم التي

كشفت التنقيبات الاثرية الحديثة عن طائفة منها يبدو انها اقدم مما عرف
اليوفان في الرياضة والفلك . فقد كشفت تنقيبات مديرية الاثار القديمة في
تل حرميل - وهو موضع في شرقي بغداد - عن الواح استدلت بما هو
مكتوب فيها على انه كان في هذا المكان معهد علمي تدرس فيه العلوم
الرياضية والفلك والهندسة (١٩) .

تجمعت هذه العناصر الثقافية في بغداد والتقى بعضها ببعض وتمازجت
وتفاعلت حتى آتت ثمارها في بداية القرن الثالث نهضة علمية لم يبلغها العالم
الاسلامي قبل بغداد .



وتلاقت هذه المقومات الاجتماعية في المجتمع البغدادي فطبعته بطابع
مميز ، عرفه التاريخ بالمزاج البغدادي واشتهر بالظرف وتذوق الحياة
والاستمتاع بألوانها وضروبها المختلفة .

وعرف عن اهل بغداد انهم يحسنون التمتع بالترف وتظهر عليهم آثار
النعمة مع الاحتفاظ بصفات المروءة والفتوة التي لا تبطرها النعمة ولا يفسخها
الترف فيبعث في الافراد اللين والاسترخاء . وكانوا الى جانب استمتاعهم
بالحياة وترفها يقبلون على العلم ويطلبون منه نصيباً حسناً . حتى لقد قال
فيهم احد المحدثين « ما رأيت اعقل في طلب الحديث من اهل بغداد » (٢٠) .

اما ظرفهم فقد تحدث به طائفة من اعلام الرجال الذين وردوا بغداد
كالامام محمد بن ادريس الشافعي وذي النون المصري وابي العلاء المعري من
بعد . ومن اطرف مايروى في ذلك ما تحدث به ذو النون قال : « من اراد ان
يتعلم المروءة والظرف فعليه بسقاة الماء ببغداد » . قيل له : وكيف ذلك ؟

(٢٠) تاريخ بغداد للخطيب ج ١ ص ٥٠ .

قال : « لما حملت الى بغداد رمي بي علي باب السلطان مقيدا ، فمر بي رجل متزر بمنديل مصري معتم بمنديل ديبقي ، بيده كيزان خزف رقاق وزجاج مخروط فسألت : « هذا ساقى السلطان ؟ » فقبل لي ، هذا ساقى العامة • فأومأت اليه : اسقني • فتقدم وسقاني ، فشمت من الكوز رائحة مسك • فقلت لمن : معي « ادفع اليه دينارا » فأعطاه الدينار فأبى وقال : « لست آخذ شيئا » ، فقلت له : « ولم ؟ » فقال : « انت اسير وليس من المروءة ان آخذ منك شيئا » ، فقلت : « كمل الظرف في هذا » • (٢١)

وصفوة القول انه اجتمع لبغداد في تلك الايام ما لم يجتمع لغيرها من المدن ، فكان جمالها الطبيعي وعناصر الحضارة التي توافدت عليها من مناطق شتى ووفرة الاموال والارزاق فيها كل اولئك مكن لها ان تصبح مركز العلم والادب والحضارة فوق انها كانت مركز الخلافة الاسلامية في ازهى عصورها وانضر ايامها •



الباب الثاني

الشعر في طريقه الى بغداد

١ - قدم الشعر العربي

يكاد اجماع المؤرخين والباحثين ينعقد على أن الشعر العربي قديم موغل في القدم لا يكاد أحد يتبين أوائله في أغوار الماضي البعيد . وما يحكيه بعض المتحدثين في تاريخه من القدامى والمحدثين لا يعدو أن يكون ضربا من الحدس والظن لا يقوم له سند من دليل فاصع او اثبات مقنع . ويستطيع الباحث المعاصر أن يحكم على أقوال هؤلاء حكما قد لا يخلو من وجهة اذ يتصور ان حديثهم ذلك انما هو عن فن الشعر العربي الذي تكامل نماءه وتأصلت اصوله . ولهذا نجد بعضهم يدعي ان اول من اصل اصوله ووضع له التقاليد امرؤ القيس ، ويرد عليهم آخرون بقول امرئ القيس نفسه :

عوجا على الطلل المحيل لعلنا نبكي الديار كما بكى ابن حزام

ويرون في هذا دليلا على ان امرؤ القيس نفسه قد حكم على نفسه انه انما ينهج نهج شاعر سبقه الى الوقوف على الديار والبكاء على الاطلال . وحكاية الجاحظ عن تاريخ الشعر انه لا يمتد في اغوار التاريخ اكثر من مائتين او ما يقاربها من السنين قبل البعثة النبوية^(١) امر لا يقبله العقل ولا سيفه .

ومهما يكن من شيء فان الشعر العربي - فيما يرجح - اقدم عهدا

(١) كتاب الحيوان ج١ ص ٣٦-٣٧ - يقول الجاحظ: «واما الشعر فحديث الميلاد صغير السن ، اول من نهج سبيله وسهل الطريق اليه امرؤ القيس بن حجر و هلهل بن ربيعة فاذا استظهرنا وجدنا ان له الى ان جاء الله بالاسلام خمسين ومائة عام واذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتين » .

واكثر توغلا في القدم مما الفنا ان نقرأ عن تاريخه في كتب القدماء من الباحثين ؛ وآية ذلك ان ما وصلنا منه ، مما يعدونه اقدم صورة له ، فن شعري متكامل تام التكوين سوي الخلق يبيح لنا ان نحكم انه لا بد قد خطا في التكامل والنماء والازدهار اشواطاً وقطع في ذلك عهداً غير قصيرة •

وقد يقول قائل : واين ذهب الشعر العربي القديم ؟ والجواب على ذلك ان الرواية هي التي قضت ان لا يحتفظ منه الا بما تم تكوينه واستوى خلقه ، وان يضع منه البدائي الذي لم يبلغ من الفنية مبلغاً كافياً •

أما ما بقي بين ايدينا من الشعر الجاهلي فيدل على ان هذا الشعر قد قطع في التقدم الفني اشواطاً ، وبلغ من التكامل الفني مبلغاً جعله قدوة تقتدى عند المتأخرين ومثلاً يحتذى لديهم • فقد التزم الشعراء بعد الاسلام وفي العصر الاموي والعصر العباسي وسائر العصور طريقة الجاهليين في الشعر ، ولم يملكوا الخروج عليها او ابتداع طريقة في فن الشعر غير التي كان عليها القدماء •

ولقد التزم الشعر العربي بعد الاسلام الطريقة الفنية التي كان عليها شعراء الجاهلية فلم يكبد يجد فيه جديد من حيث فنونه الاصيلية والطرائق التي نهجها الشعراء الجاهليون ؛ بل لقد رأينا في عهود التجديد الزاهرة — ذلك التجديد الذي كاد يعم في نواحي الحياة على اختلافها — من يدعو بقوة وعنف واندفاع الى المحافظة على عمود الشعر ، ويعيب على الخارجين عليه خروجهم ، ويؤاخذ المجتدين في اسلوبه على تجديدهم •

ولقد كان للشعر في حياة العرب مكانة تزيد على مكانته عند الامم الاخرى في ما يظهر ، فكان الشعر عند العرب ديوان مفاخرهم وسجل مآثرهم ، بل كان بالنسبة اليهم فيما يبدو الاداة الثقافية الكبرى ، ولم يكن — كما هو حاله عند غيرهم من الامم — محض فن يستخدم للتعبير عن

المشاعر والانفعالات ، ويقال للتسلية والمتعة والتسرية ؛ بل يظهر للباحث في الحياة الجاهلية - بما يتهيأ له فيها من مادة البحث التاريخي - ان خلاصة الفكر والشعور قبل الاسلام قد مخضت فكان الشعر العربي في الجاهلية زبدتها وخلاصتها ، حتى انه ليستطيع ان يعده اثن التراث التاريخي الذي خلفته تلك العصور . فقد تجمعت فيه تجارب الامة منذ قديمها السحيق حتى طلعت عليها شمس الدعوة الاسلامية في القرن السادس . ولو اراد باحث ان يقسم تاريخ الادب العربي الى عصور يختص كل منها بالفن الغالب الذي ختمه بطابعه وصبغه بصبغته لحق له ان يسمي العصر الجاهلي عصر الشعر كما يسمي عصر صدر الاسلام عصر القرآن .

وعلى الرغم من قلة ما نعرف عن المدنية العربية قبل الاسلام ، واحتمال ان تنكشف لنا منها جوانب خفية ، فاننا نستطيع بما بين ايدينا من مادة تاريخية عن تلك الحقبة ان نقول ان الشعر الجاهلي ، ما وردنا منه على قلة فيه ، هو اقوم ما فيها واصدقه تصويرا للحياة الجاهلية في معظم نواحيها او كلها .

٢ - مكانته في الحياة العربية (موازنا بالشعر اليوناني)

والامة العربية تختلف في مقام الشعر فيها ، ومكانه من حياتها ، عن امة عظيمة عرفها تاريخ الادب العالمي واوسع لها في مجال الخلود مكاناً ، تلك هي الامة اليونانية . فبينما نجد الشعر عند العرب تراثهم الفكري الاول الذي تمخضت فيه حياتهم الفكرية نجد عند اليونان الى جانب الشعر جوانب اخرى من الحياة العقلية ، نجد عندهم العلم والفلسفة وما خلفه عباقرتهم فيها من تراث خالد .

على ان وجود الفلسفة والعلوم عند اليونان لا يعني بالضرورة وجودها عند العرب . ولكن المبلغ الذي بلغه العرب من التقدم الفكري يجعلنا

تنتظر منهم تراثاً فكرياً أياً كان ، ويحملنا على ان نتصورهم يفكرون في الحياة فيسجلون تجاربهم الفكرية في سجل ما وبطريقة ما ، وآية التقدم العقلي عند العرب لغتهم ، تلك اللغة التي بلغت من التطور والنضج في التركيب وفي طريقة التعبير مبلغاً غير يسير ، وبلغت في التوسع في المفردات والاتساع في الدلالات مثل ذلك المبلغ .

ويلاحظ ان بين الشعر اليوناني والشعر العربي مجالا للموازنة والمقابلة يخرج بالبحث الى نتائج لا تخلو من فائدة . وبينهما من وجوه التشابه والاختلاف ما يقف الباحث على خصائص اساسية في الشعر العربي على وجه الخصوص . كل ذلك يجعل من المستحسن ان نتعرض لطبيعة كل منهما على قدر ما يتهيأ لنا من اسباب البحث والموازنة .

يمتاز الشعر اليوناني بأن له تاريخاً طويلاً مستمراً يمتد من الالف الثاني قبل الميلاد الى يومنا هذا ، والشعر العربي كذلك ؛ فان تاريخه يمتد الى عصور سحيقة لا يعرف مبدؤها وهي لا تزال حتى يومنا هذا متصلة الحلقات موصولة الاسباب . على ان الاستمرار التاريخي يصدق على الشعر العربي أكثر مما يصدق على الشعر اليوناني ، اذ المعروف ان اللغة اليونانية الحديثة تختلف اختلافاً واضحاً عن اليونانية القديمة . بل ان ممن يتكلم اليونانية الحديثة ويفقهها من لا يستطيع ان يفهم اللغة القديمة وان يقرأها بله ان يتذوق ادبها . بينما نجد العربي اليوم يقرأ من الادب العربي ما يرجع تاريخه الى بضعة عشر قرناً من الزمان فيفهمه ويفقهه ويتذوقه ، بل ليس بين اساليب ادباء العربية وشعرائها - على وجه التخصيص - في هذا القرن ، وبين اساليب اهل القرن الرابع والخامس والسادس الميلادي من اختلاف كبير الا ما تقضي به سنة التطور في اضيق حدودها وفي اقصر مداها . ودارس الادب العربي في القرنين التاسع عشر والعشرين يستطيع ان يجد في شعرائه وفي بعض كتابه من لا يختلف في اسلوبه عن الجاهليين الا يسيراً . والامثلة على ذلك

كثيرة تغني عن البيان •
هذا هو الوجه الاول (٢) •

والوجه الثاني ان الشعر اليوناني قد نبت في بيئته غير متأثر بمؤثرات من بيئة خارجية^(٣) • ومثله في ذلك الشعر العربي ، إذ يبدو انه نبات هجان غير هجين ، لا يعرف التاريخ الادبي على وجه الدقة انه تأثر فناً من فنون الشعر الاجنبي او شيئاً معيناً من بيئة اجنبية • بل انه كان يبدو في عصر ازدهاره واكتماله فناً فريداً في الجزء الذي نبت فيه من بلاد العالم • بل نحن لا نكاد نعرف للامم المحيطة بالعرب المجاورة لهم فناً شعرياً بلغ في مدارج الرقي الفني ما بلغه الشعر العربي — كالفرس والبيزنطيين •

يضاف الى ذلك ان العرب كانوا وقتئذ في حال يغلب عليها طابع الانعزال عن الامم الاخرى ، واعني بذلك الانعزال الفكري والفني والثقافي •

ونظرة عامة في فنون الشعر اليوناني ، كما يجملها لنا مؤرخوه ، تقفنا على ما بين شعر هذه الامة العريقة وبين الشعر العربي من وجوه الاختلاف في طبيعة كل منهما وفي اغراضه وفي وظيفة كل منهما في حياة امته •
فقد كان الشعر اليوناني في اقدم عصوره وهو ما يسميه مؤرخوه بالعصر الحماسي (Epic Period) ذا فنون خمسة :

اولها : الشعر الحماسي (Epic Poetry) وهو الذي يملئه هوميروس في الالياذة والاوذيسة ، ويتميز بأن هوميروس قد اصطنع فيه الوزن السداسي Hexameter وهو وزن معقد يدل على انه وليد تطور بعيد المدى قديم العهد^(٤) ، على ان لغته التي كتب بها لا تشبه اياً من اللهجات التي كانت

(٢) اراجع :

Encyclopaedia Britannica, Article: Greek Literature Art-Poetry:

(٣) نفسه .

(٤) نفسه .

معروفة في اليونان حينئذ^(٥) .

ومجمل ما يعرض له هذا الشعر ويدور حوله الحديث عن الابطال وعن اعمالهم العظيمة في الحروب القديمة .

الثاني : وقد ظهرت في اليونان على عهد هوميروس مدرسة شعرية اخرى غنيت بالدين والمسائل الخلقية ، وهذه المدرسة الشعرية تتمثل في هسيود قريع هوميروس وصنوه وقاهره في احدى المباريات الشعرية . وقد ترك انا هسيود في شعره اقدم مثل لما يعرف في تاريخ الاداب بالشعر التعليمي (Didactic Poetry) .

الثالث : شعر الرثاء (Eligiac Poetry) . وقد نشأ هذا الفن بعد ان انهارت امبراطورية آغاممنون (Agamemnon) وتقسمت امارات وممالك صغيرة وتسرب اليها الفساد . فأدى ذلك الى ان يصبح فن هوميروس وهسيود ذلك الفن الرفيع المعقد غير صالح للتعبير عن مشاعر الافراد واحاسيسهم ، فاصطنع الشعر لذلك وزناً اخف واسهل هو وزن الرثاء المزاج الذي اصبح بسرعة وسيلة التعبير عن الموضوعات المختلفة ، بما فيها المراثي واغاني الحب والحماسة وما يصلح له النشر . وقد ألف الناس هذا الفن واتسع انتشاره بينهم في ذلك الحين .

هذه هي الفنون الشعرية التي عرفها الايونيون ، اما الاليون فقد ابتدعوا في الشعر فنين آخرين :

الرابع : الشعر الغنائي المنفرد (Personal Lyric) وهو اغان قصيرة تعبر عن مشاعر ذاتية او تعالج الموضوعات بطريقة ذاتية (Subjective) وكان هذا الشعر يغنى على القيثارة (Lyre) كما تدل على ذلك تسميته (Lyric) .

(٥) عاش هوميروس في القرن التاسع قبل الميلاد على وجه التقريب .

الخامس : ثم ظهر في سبارطة بعدئذ الشعر الفنائي الجمعي (Choral Lyric) وهو شعر يتحدث عن عواطف الجماعة او بعض الجماعة وكانت تغنيه جوقة يغلب ان تكون مؤلفة من فتيات تعرف بـ (Chorus) .

ويغلب على الظن ان هذه الفنون الشعرية او اغلبها كان بدايئاً بسيطاً يعبر عن مشاعر الافراد واحاسيسهم كما تعبر الاغاني الشعبية . والظاهر ان الشعر اليوناني كان وقتئذ حاجة نفسية تشبه حاجة العامة في ايامنا هذه الى الغناء الشعبي او الاساطير وقصص البطولة . ونحن نستدل على ذلك من ان لغة الشعر كانت كما نقلنا عن مؤرخه عامية او لهجة محلية . وانه كان يعالج في اغراضه نواحي ليست على جانب من التعقيد الفني في معانيها وفي مستواها الفني .

ثم تطور هذا الشعر فأصبح شعراً مسرحياً عند الاثينيين وظهرت منه المأساة (Tragedy) والمهابة (Comedy) ويبدو ان هاتين صورتان معقدتان من صور الشعر الذي سبق الحديث عنه ، وانهما اقرب الى ما يسمى بشعر الغناء الجمعي (Choral Lyric) يؤديه علاوة على الجوقة منشدون وممثلون يلقون هذا الشعر مصحوباً بالحركات التمثيلية على مسرح . وهذه في ما يظهر هي الصورة المثلى للشعر اليوناني في اوج اكتماله وازدهاره .

ومن يبحث في تاريخ الشعر العربي يلمس ان المراحل الاولى التي قطعها في سلم التدرج والتطور غير واضحة بل غير معروفة . انه يقع لاول وهلة على فن شعري ناضج مكتمل بالغ في نضجه واكتماله المبلغ الذي جعله جماع الحياة الفكرية للعرب ، فيه عواطفهم واحاسيسهم ومشاعرهم ، وفيه حكمتهم وفلسفتهم في الحياة ، فيه المحاجة والمحاكاة والمجادلة ، وفيه ايضا الاحساس

المرهف والانعزال والعاطفة •

واذا كان بعض الباحثين يذهب - بحق - الى ان الشعر العربي قديم بسبب اكتماله من الوجهة الفنية في عروضه وفي قافيته وفي موسيقاه فاننا نستطيع ان نتخذ من معانيه واغراضه وما يحتويه من الافكار دليلاً على انه اقدم مما يتصورون ويقدرّون ؛ فهو في واقع الحال خلاصة فكرية وعصارة عقلية لا يعرف للعرب قبل الاسلام ما يصور حياتهم النفسية والعقلية غيرها • والفن لا يصل الى هذه المرتبة الا اذا مر في مدارج التطور والرقى في سبيل طويّة ، طويلة جداً •

وثمة جانب فني خطير ، ذلك ان اسلوب الشعر العربي بما فيه من ايجاز قد يبلغ درجة الرمز يدل على ان بينه وبين مرحلة النشأة الاولى تاريخاً طويلاً لا يعلم مداه الا الله • ونحن نعرف عن الفنون المعاصرة انها تنجح الى الرمز والايجاز وتعرض عن الافاضة كلما امعنت في التقدم والرقى حتى ان فهمها وتذوقها يحتاج آئذ الى شيء غير قليل من الثقافة العقلية والفنية والشعورية بحيث يتسنى لمن يتلقاها ان يفهم من القليل كثيراً ، وان يتذوق من اللوحة الخاطفة والايماة الموجزة اشياء واشياء •

ولم يتمّ الامر في ايجاز الشعر العربي عند هذا الحد بل لقد تعداه الى ان انطبعت به اللغة العربية فأصبح الايجاز خصيصة من خصائصها الاصلية •

٣ - غاية الشعر ووظيفته

أما غاية الشعر العربي ووظيفته في الحياة العربية فلا مرأى انها كانت اوسع واعم وابعد غوراً من غاية الشعر عند اليونان ووظيفته في حياتهم • فقد كان الشعر اليوناني - فيما يبدو للباحث من كلام مؤرخيه - حاجة نفسية محضاً ، وتعبيراً عن المشاعر والاحاسيس والانفعالات ، ومتعة

فنية تتغذى بها العواطف ، وكان تراث اليونان الفكري يتمثل في الفلسفة والعلوم وما ترك مفكروهم وفلاسفتهم من الآثار في هذا الباب ، في حين نجد الشعر العربي حاجة نفسية وفكرية في الوقت نفسه ، فيها ما اشرنا اليه من تسجيل تجارب الامة في حياتها على اختلاف ألوانها وتشعب أطرافها .

وقد تنبّه الى ذلك نقاد الشعر القدماء فقال ابن رشيق في فضائل الشعر العربي :

« ومن فضائله ان اليونانيين انما كانت اشعارهم تقيد العلوم والاشياء النفسية والطبيعية التي يخشى ذهابها . فكيف ظنك بالعرب الذي هو فخرها العظيم وقسطاسها المستقيم » (٦)

واحسب ان هذا الامر واضح لا حاجة به الى مزيد من التفصيل والتمثيل ، فشعر زهير بن ابي سلمى وما فيه من نظرات في الحياة الاجتماعية والعلاقات الانسانية ، ومعلقة الحارث بن حنظلة الشكري وما فيها من استخدام الأدلة العقلية ومقارنة الحجّة بالحجة مما يكفي للتدليل على وذلك ويغني عن المزيد .

ومما هو جدير بالتنويه في الصورة الخارجية للشعر العربي ان أوزان القصيدة قد وضعت لتستوعب اغراض الشعر المختلفة المتشعبة ، فان بعضها يطول وينبسط وبعضها يمتد حتى يكاد الشاعر يكون فيه أشبه بالخطيب او الناثر ، وبعضها يسرع ويتتابع وتتقارب تفاعيله حتى لا يصلح للانشاد واللقاء بل هو بالغناء أشبه وله اصاح ولهذا راجت سوق هذا الأخير يوم ازدهر الغناء وشاع . وتأثر الشعر بالموسيقى فظهر الاهتمام بالأوزان القصيرة بل شاعت الأوزان المجزوءة التي تنسجم مع الايقاع الموسيقي وتلائم الأداء الغنائي .

(٦) العمدة : ج ١ ص ٩٠

ومن المؤسف حقاً أن دراسة أوزان الشعر من حيث طولها وقصرها ومن حيث شيوع استعمالها في العصور الأدبية المختلفة ومن حيث استخدامها في الأغراض المختلفة دراسة لا تزال تفتقر إليها افتقاراً شديداً ونشعر أننا في حاجة شديدة إلى معرفة دقيقة لكل تلك المسائل حتى نستطيع أن فلفي بالأحكام في مثل هذه الأمور متأكدين متروين من غير مجازفة ولا شطط .

ومع ذلك نستطيع أن نقول في غير تردد ولا تحفظ إن القصيدة قامت عند العرب مقام الخطبة والمقالة والرسالة ، وانفردت بالمكانة الأولى في الأدب ، فلم يزاحمها من فنونه شيء آخر . ولعل ذلك من الأسباب التي يمكن أن نحلل بها تأخر النشر الفني في الظهور . بل لعله لولا القرآن الكريم لما أسرع النشر الفني بالظهور بعد الاسلام .

وصفوة القول أن الشعر العربي في العصر الجاهلي وفي غيره من عصور الأدب يختلف في طبيعته وفي وظيفته ومكائنه من الحياة العربية عن الشعر عند الأمم الأخرى . بل أن مفهوم الشعر الذي اقتبسه بعض مؤرخي الادب العربي المعاصرين عن الآداب الغربية لا يخلو من الضيق اذا قيس بمفهوم الشعر عند العرب وفي الجاهلية وصدر الاسلام على وجه الخصوص .

ذلك أنه عند الأمم الأخرى تعبير ذاتي عن العواطف والمشاعر والاشعالات . في حين أنه عند العرب ادااتهم الثقافية الكبرى ووسيلتهم الأولى في التعبير عن أغراض الحياة الخطيرة ، سواء في ذلك العواطف والمشاعر والأفكار والآراء ووجهات النظر في الحياة وتأملات الشاعر في الكون . ووظيفته في الحياة العربية التعبير عن كل ذلك بطريقته الفنية المألوفة سواء فيها الجانب الذاتي (Subjective) والجانب الموضوعي (Objective) . بل قد نستطيع أن نقول أن الشعر عند العرب أسلوب

من اساليب التعبير واسع المدى فسيح الارحاء • ومدلول لفظه في اللغة من ناحية وتعدد أغراضه وموضوعاته وتداخلها في اغراض الشر من ناحية أخرى يؤيد ذلك ويأخذ بناصره •

أما مدلول لفظه اللغوي فيشتمل على الاحساس والعلم والادراك ، ولعل العرب كانوا يريدون به أو يفهمون منه كل اسلوب جميل غني في التعبير عن الأفكار ، ولذلك رأيناهم حين نزل عليهم القرآن الكريم فراعهم ببلافته وفصاحته وجمال أسلوبه لم يجدوا ما يهتمون به الرسول عليه الصلاة والسلام إلا انه شاعر « بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراء بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون » « أم يقولون شاعر تتربص به ريب المنون » • كأنهم كانوا يرون ان الكلام البليغ والأسلوب الرائع لا يمكن ان يكون إلا شعراً • وقد رد عليهم القرآن الكريم هذه التهمة في اكثر من موضع كما في قوله تعالى « وما علمناه الشعر وما ينبغي له » « وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون » •

كل ذلك يدلنا على ان الشعر كان مبلغ القوم من العلم وأقوم ما كانوا يحتفلون به من التراث •

ونحسب ان من أسباب ذلك ان العرب الشماليين — وهم غاية ما وعى البحث التاريخي عن العرب — كانوا عزلاً من مظاهر المدنية الأخرى وخلاء من وجوه الحضارة التي كان عليها الجنوبيون ، أو ان مظاهر الحضارة الأولى قد تنوسيت فلم يبق منها ما يعتزون به غير الشعر وهو غاية ما وعته أجيالهم وتوارثته خلفاً عن سلف • ولعل في مطاوي التاريخ مانجهل من حضارة ما قبل جاهليتهم الأولى ، ولتعلمن نبأه بعد حين •

٤ — الشعر بعد الاسلام

وجاء الاسلام والشعر — كما صورت — جماع الحياة العقلية للعرب ومستودع لأجل ما عندهم من أفكار ومشاعر ومدخر لحياتهم بما فيها من

الجليل الخطير وغيره ، فكانت آيته العظمى ومعجزته الكبرى القرآن أسلوب في الأدب جديد اصيل لم يعرفوه من قبل ولم يألوه ، لقد ظنه بعضهم شعراً فنفى ذلك عن نفسه ، وظنه بعضهم سجعاً كسجع الكهان فرفع نفسه عن ذلك .

لقد راعهم هذا الحدث الأدبي الجليل فأصابهم منه ذهول وحيرة ووجوم ، تحداهم ان يجاروه فلم يبلغوا في مجاراته شيئاً ، بل تحداهم ان يأتوا بسورة من مثله فلم يستطيعوا « قل لئن اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » .

وكان طبعياً ان يزلزل هذا الحدث الفني العظيم كيان الشعر ، وأن يبعث البلبلة في نفوس الشعراء حين وجدوا انفسهم تجاه اثر فني لم يألوه طريقته ولم يتعودوا أسلوبه ، فشغل بعضهم بتدبره وتذوقه وادراك مراميه وأعرضوا عن الشعر استغناء به واكتفاء كما كان شأن لبيد بن ربيعة ، وفعل مركب النقص في المعاندين المكابرين فعله فأقعدهم عما كانوا يأتون به من جيد الشعر قبل نزول القرآن .

على ان من حق البحث العلمي علينا ان نلاحظ ان قدراً كبيراً من آثار هذا العصر قد ضاع لاسباب منها : اولا هبوط قيمته الفنية في اظار الناس بعد الذي رأوا في القرآن . ومنها ثانياً انه كان يعادي الدين الجديد ويناوئى اهله ، او كان اكثره كذلك . ومنها ثالثاً ان الناس انشغلوا بقراءة القرآن ورواية حديث الرسول صلى الله عليه وسلم وبمشاغل الدعوة عن رواية الشعر وعن قوله . روى ابن سلام بسنده عن عمر بن الخطاب انه قال : « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم اصح منه ، فجاء الاسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ولهيئت عن الشعر وروايته » (٧) .

(٧) طبقات الشعراء ص ١٠ ط . ليدن .

وأدى ذلك بالشعر الى ضرب من الهجران ، فانزوي واصابه شيء من الاهمال .

وجملة الامر ان الباحث في تاريخ الشعر العربي يلاحظ في وضوح ان نزول القرآن قد كان هزة فنية فكرية عنيفة اصابته الشعر اصابة بالغة ، فتوارى عن الانظار وانكمش ، وانكسف شعاعه تجاه هذا الاثر الادبي الذي انزل بلغته وبألفاظه ، ولكنه كان غريباً عليه في اسلوبه وفي طريقته الفنية . ومما زاد في اثر هذه الهزة الفنية انه تحدثهم ان يأتوا بمثله « أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سور من مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين » . فوقفوا حيال ذلك مبهوتين ، واستسلم له طائفة من بلغاء العرب ، وآمنوا بأنه ليس من انشاء البشر واشتغلوا بدراسته وانصرفوا الى هديه .

ومهما اطلت في الوقوف عند هذه المسألة فاني اعني ان ابنه الى أمرين اثنين :

الأمر الأول ان ضعف الشعر وإعراض المجتمع العربي عنه بعد الاسلام لم يكن وليد ذم القرآن للشعر وعيبه على طائفة من الشعراء من ناحية ، ولم يكن نتيجة انشغال المسلمين بالفتوح ونشر الدعوة من ناحية اخرى ، اقول ان ذلك لم يكن هو السبب الوحيد بل لم يكن هو السبب الرئيس وإنما كان في ما اخال سبباً ذا قيمة ثانوية بالقياس الى السبب الفني الذي ألمت به قبل .

ويؤيد هذا الذي اذهب اليه ان الرسول عليه الصلاة والسلام لم يلبث ان شعر بالحاجة الى الشعر ، في ما كان بينه وبين قريش ، فدعا حسان ابن ثابت ليكون لسانه الناطق بالشعر ، وأذن له ان يجيب شعراءهم ويرد

عليهم وعلى سواهم من خصومه^(٨) . وكان يقول له « قل وروح القدس معك » .

وقد سبقت الإشارة الى ان لبيد بن ربيعة وهو من فحول الشعراء في الجاهلية قد هجر الشعر بعد اسلامه وعكف على القرآن يتذوقه ويجد فيه طلبته من الفن الأدبي الرفيع . ولم يقل من الشعر إلا البيت او الايات في معان قريبة من معاني القرآن كنحو قوله :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

أما الامر الثاني فهو ان القرآن قد رسم في الادب العربي نهجاً بيانياً فنيا أوفى بالحاجة البانية وأكثر حرية في التعبير عن الافكار والمشاعر . اريد ان اقول ، ان القرآن هو الذي فتح للادب العربي باب النثر الفني الذي يلاقي الشعر العربي في امور ويفارقه في امور ، منها : التحرر من القيود الفنية التي ورثها من عصور جاهليته (الاوزان والقوافي) . وليس ادل على انه يلاقي الشعر العربي في بعض خصائصه الفنية من ان القرآن كان — ولا يزال — يرتل انعاماً لها في الموسيقى العربية قديماً وحديثاً اثر بعيد جداً .

وكان لابد للشعر بعد هذه الرجة العنيفة من افاقة يفيقها ، فأجمع امره بعد استقرار الأمر للدعوة الجديدة ، وادرك انه لم يعد كما كان قبل نزول القرآن مجمع الافكار والمشاعر ، فاتخذ لنفسه ناحية هي به اخلق وهو بها اولى ، وتحول عن اغراضه المتشعبة الاطراف الى التعبير عن العواطف الذاتية . وعدل عن ان يكون لساناً للمجموع يدفع به الشاعر عن قومه وعن عشيرته .

(٨) روى ابن رشيقي بن هشام بن عروة عن ابيه عن عائشة رضي الله عنها ان النبي صلى الله عليه وسلم بنى لحسان بن ثابت في المسجد منبراً ينشد عليه الشعر . (العمدة ج ١ ص ٩) .

ويظهر هذا جلياً في البيئة العربية الاصلية التي فيها نشأ الشعر وفيها تأصلت اصوله ، وهي الجزيرة وما اليها ، فصرنا نرى الشعر بعد افاقته من الهزة الفنية العنيفة يغلب ان يكون غزلاً ونسيباً ، يعكف فيه الشاعر على دواخل نفسه فيصورها ويعبر عنها ، أو يصف ما يؤثر فيها وصفاً ينتزعه من قرارة نفسه ، او بعبارة اخرى نستطيع أن نقول على وجه العموم ان الشعر قد جانب ما نسميه الآن بالموضوعية (Objectivity) وهان أمرها عليه لأنه ألقى في القرآن اسلوباً هو أخلق بالتعبير عنها وأكثر وفاء بحاجتها . وان جانب الفردية او الذاتية (Subjectivity) اصبح شغله الشاغل لأن هذا الجانب لا يكاد يصاح له على وجه العموم الا الأسلوب الشعري ، وما يشارك اللفظ فيه في التعبير عن المشاعر من موسيقى الايقاع (الوزن) وموسيقى التناسق (القافية والروي) .

على ان أثر القرآن لم يقتصر على ذلك بل تعداه بالطبع الى التأثير في أفكار الشعر و(معانيه . وذلك امر لا يتسع المجال هنا للكلام عليه بل يكفي ان أشير الى ناحية واحدة فيه : هي تسامي العواطف عند بعض الشعراء ونشوء ذلك اللون الفريد من الشعر الغزلي العفيف الذي ترفع عن مطالب الجسم وحاجاته وغرائزه الى نوازع النفس وعواطفها المتسامية ، وهو الشعر الذي عرف في تاريخ الأدب العربي بعد عصر القرآن بالحب العذري (٩) .

وهذا الموضوع على خطورته وعظم شأنه لا يزال لم يوف حقه من العناية والدرس في تاريخ الادب العربي خاصة ، وفي تاريخ الفكر العربي

(٩ - ١٠) لعل مما لا يخلو من فائدة ان اشير الى خاتمة البحث الذي كتبته عن الحب العذري منذ بضع سنوات واشرت فيه الى الافاق التي يمكن ان تتفتح للباحثين من العناية بهذا الموضوع وتبين آثاره القريبة والبعيدة في تاريخ الادب العربي .

عامة ، وهو من مظاهر الأصالة الرائعة الحقيقة بالدرس المستفيض والعناية والاهتمام^(١٠) .

٥ - حفاظ العراق لتراث الشعر القديم

ومن الأمور الجديرة بإنعام النظر ما يلاحظ على البلاد الإسلامية من التحول الذي برزت صورته في اواسط القرن الأول الهجري بعد استقرار الأمر للدولة الجديدة . فقد اعتزل الحجاز خضم الحياة السياسية المتلاطم بعد الذي كان من اندحار الحركات السياسية فيه ، كحركة ابن الزبير ، وانصرف أهله الى ناحيتين بارزتين في حياة ذلك العصر ، أولاهما ، الحفاظ على ميراث الرسول في الحديث وتفسير القرآن بالرواية والدراسة والنقل . والأخرى ، لهو " أقرب الى البراءة منه الى الفجور ، ونهضة فنية شعرية غنائية موسيقية . هذا الروح الديني السمو أضفى على النفوس رقة ودماثة ولينا ، وتلك الفنون الجميلة أعانت على تلك الرقة والدماثة .

وأصبح الشام مركز السلطان ومقر الخلافة ، تختلط فيه ألوان الحياة وتمتزج حتى لا يكاد يتميز بعضها عن بعض ، وحتى ان الباحث لا يستطيع أن يتبين لهذه الفترة من تاريخ حياته لوناً ولا طعماً .

أما العراق فكان في هذه الحقبة مصطرع المذاهب السياسية والفرق الدينية ومعقل المعارضة للحكم الاموي على اختلاف نزعاتها وتعدد مناحيها . وكأن الحياة الجاهلية بما كان فيها من عصبية قبلية ونزوات تناقض الحياة الإسلامية بعض الشيء قد وجدت لها وزراً في العراق تلجأ اليه وتعتصم به بعد ان انهزمت في الحجاز وفي البلاد القريبة منه .

ولعل من اسباب ذلك ان العراق كان حتى في العصر الجاهلي موطناً لألوان متناقضة من ألوان الحياة ، فقد كانت فيه الحضارة وما تتميز به

من لين ويسر ورخاء ، وكانت فيه البداوة وما يلوذ بها من عصبية وخصومة وشقاق . فقد كانت الحيرة في عهد المناذرة مركزاً من مراكز المدنية في الهلال الخصيب وهي على طرف الصحراء ، وكانت الكوفة بعد الاسلام كذلك عاصمة الامام علي ومركزاً من مراكز الحضارة الاسلامية في العراق وهي على طرف الصحراء ايضاً . كما ان بادية البصرة والجزيرة كانتا موطناً من مواطن البداوة التي احتفظت بها وحافظت عليها حتى بعد ان تم الامر للدعوة الاسلامية .

ولعل السر في هذا الوضع الذي لا يخلو من الغرابة ان العراق هو الملاذ الوحيد للعربية واهلها من الجهة الشرقية . وعند حدوده من الشرق يتغير اللون والوجه واللسان . فكأن ذلك جعله مدخراً للعروبة بماضيها الجاهلي وحاضرها الاسلامي لأن اقل تسامح او تساهل في هذه المقومات الجنسية والقومية يعرض كيانه العربي للانهايار وينذر به بغبلة الجوار الاعجمي عليه . ومثل هذا التعصب وتلك المحافظة مألوفة في البيئات التي تحس ان خطراً خارجياً يتربص بمقوماتها وخصائصها فتحاول ان تدفع ذلك الخطر بشدة الاستمسك بتلك الخصائص وفرط الاعتزاز بها .

وكأن العراق قد خلا ، بعد الحوادث السياسية العنيفة فيه ، الى الجانب القديم من الحياة الادبية ، فأصبحنا نرى القبائل فيه تنتج الشعراء الذين ينافحون عنها ويدفعون في وجه خصومها ويشيدون بمفاخرها . يؤيدون الدولة مرة ، ويعارضونها مرة ، تستغلهم سلطاتها في أغراضها تارة ، وتضرب على ايديهم تارة اخرى . وأصبح الشعر في العراق استمراراً للشعر الجاهلي الى حد بعيد ، وانهى الى الشعر العراقي ميراث الشعر الجاهلي فكان فيه فحول الشعراء الذين حفظوا للشعر العربي القديم ماضيه وتقاليده .

وقد أعان على ذلك أو حمل الشعراء عليه ان العراق كان من الوجهة

السياسية والاجتماعية مجال نشاط عنيف ، فقد غذي بالمعارضة السياسية منذ أن وقعت فيه موقعة الجمل ، وكان موطن الخصومات بين السابقين من رجال الاسلام كعلي وعائشة وطلحة والزبير . وكان فوق ذلك يجاور المواطن التي انتقضت على الاسلام وارتدت عنه وظهرت فيها النبوات الكاذبة كاليمامة التي ظهر فيها مسيلمة الكذاب وسجاح ومن اليهما .

وكانت الحالة الاجتماعية فيه ذات حدين متناقضين : المدن التي ورثت حضارته القديمة أيام البابليين والمناذرة من بعد ، ووعت شيئاً من ثقافتها وأسلوب الحياة فيها ، والبدو الذين أقاموا على طراز الحياة الجاهلية ولم ينل الاسلام حياتهم جملة بالتطوير والتبديل .

لهذه الأسباب أقام الشعر في العراق على القديم بل لعله قد زاد عليه عنفاً واندفاعاً ، وأصبح أمكن في الحياة العامة في السياسة والاجتماع ، واتخذت منه الاحزاب السياسية والدينية السنة تناضل بها وتكافح ، فكان للعلويين شعراؤهم وكان للخوارج شعراؤهم ، وكانت النزعة القبلية الموروثة قد اتخذت في بعض الأحيان صفة رسمية - كما يقال - إذ وجدت من السلطان - سلطان الخلافة والولاية - ما يبعث فيها القوة وما يتخذها سنداً وعوناً في تنفيذ أغراضه ، وفي إثارة بعض القبائل على بعض واصطناعها اعترافاً بما أسدته اليه ، أو إبعادها ومعاداتها لوقوفها في وجهه وتأييدها لخصومه ، فكانت ثمرة ذلك النقائص بين الفحول كجرير والفرزدق والأخطل والراعي والقطامي (١١) .

أما الحجاز فقد انكمش بعد ان زايله السلطان وانطوى على نفسه وانصرف عن السياسة والأمور العامة الى الدين واللهم . ولعل مرد ذلك الى

(١١) للمزيد من التفصيل يراجع تاريخ الشعر السياسي للاستاذ احمد الشايب .

أن انتقل الخلافة الاسلامية عنه الى الكوفة والشام قد أشعر أهله انهم ليسوا بذوي حظوة عند السلطان ، وقد أبعد ذلك عن الحجاز طائفة كبيرة من ذوي المكانة الاجتماعية والسياسية سواء منهم من كان في جانب علي ومن أيد معاوية وأسرته من بعده • ويبدو أنه لم يقم في الحجاز إلا قوم يؤثرون السلامة ويرضون بالعيش الهاديء الرتيب والحياة الوديدة المستقرة، منصرفاً بعضهم الى العبادة وكتاب الله وحديث رسول الله ، ومنشغلاً بعضهم الآخر بالقيان والمغنين ومنغمساً في الترف والملذات • والكل يلقي على ذلك تشجيع السلطان وإمداده اياه بما يعينه على المضي في طريقه (١٢) •

ولم يكن اهل الحجاز - على ما يبدو للباحث - أهل كفاح ومناضلة ، ولم يكن أحد من الأحزاب المتناحرة يطمع منهم في شد أزره ، ولذلك نرى الحسين بن علي يتخذ من أهل العراق أنصاراً له في دعوته ، ويتخذ من العراق نفسه مجالاً لها ، ثم ينتقل هو بنفسه الى العراق ليقارع القوة بالقوة • ولو كان يعلم في أهل الحجاز قدرة على ذلك لبقى في الحجاز واتخذ من أهله أعواناً له وأنصاراً •

وأحسب أن من أسباب ذلك ما أصاب الحجاز ومكة والمدينة بوجه خاص على يد الحجاج بن يوسف الثقفي لما أخمد ثورة ابن الزبير فنصب المنجنيق في مكة وأوقع في أهل المدينة ما أوقعه بهم وفي وقعة الحرة فبعث ذلك في النفوس يأساً وقنوطاً وخلق فيها ضرباً من الاستكانة والاستسلام وإيثار الحياة الهادئة الساكنة •

ومن أجل ذلك اتجه الشعر في الحجاز وجهته الجديدة التي كادت تقطع ما كان بينه وبين القديم •

ولا ننسى أن الاسلام قد رفع شأن قريش وأسطع نجمها في الحجاز

(١٢) يراجع حديث الاربعاء للدكتور طه حسين في الكلام على الفزل الحجازي.

فقبضت على ناصية التوجيه في حياته ، وليس لقريش ماض في الأدب والشعر
يعتد به ، بل كانت على وجه العموم مشتهرة بالتجارة وبأن مقاليد البيت
الحرام قد آلت إليها •

وصفوة القول ان الشعر العربي كان في العصر الأموي ريب هاتين
البيئتين - العراق والحجاز - ولم تنازعهما الشام أو مصر زعامة الشعر في
ذلك الحين ، وذلك لأن الشام في ما يظهر لم تخلُ للأدب والثقافة من جراء
انشغالها بأمور الحكم ، ومن الملاحظ ان مقر الحكم ومركز السلطان قلما
يتاح له أن يكون ذا تأثير في توجيه الأدب والشعر ، ذلك لأن المعارضة
- وهي التي تؤثر دواعي الشعر السياسي - تكون في المركز على وجه
العموم اضعف وأخفت صوتاً وأضال نشاطاً • يضاف الى ذلك ان الشام
لم ترث بيئة شعرية ولم يتح لها تراث شعري كالذي كان في العراق والحجاز ،
ويبدو انها كانت - الى حد كبير - خلواً من الرواة والحفاظ الذين يربطون
الماضي بالحاضر ، ولذلك كانت في الشعر عالة على العراق والحجاز كما هو
معروف •

٦ - بواكير التجديد في الشعر

وقد تميز العصر الأموي بظواهر جديدة في الشعر كانت بواكير للتجديد
الذي اصابه في العصر العباسي وفي بغداد على الخصوص • ومن الملاحظ
انها كانت في جملتها آثاراً للتبدل الذي طرأ على الحياة العربية فوصلها بالامم
الآخري التي دخلت في الاسلام وأخذت تشارك في الحياة الاسلامية فلم تعد
وجوه النشاط فيها وفقاً على العرب على رغم النزعة التي كانت سائدة عند
خلفاء بني أمية من الاستمسك بالعرب ومحاولة إثارةهم وحدهم بمقام التأثير
والتوجيه في الحياة الاسلامية • إلا أن عامل التطور قد فعل فعله وأظهر أثره،

فتجلت آثار الحياة الحضرية في الشعر على الخصوص وبرزت هنا وهناك مؤذنة بالتحول الخطير الذي شهده الشعر في بغداد بعد ذلك ، وبعد ان تمكنت الحضارة ورسخت أركانها ولم يعد يحول بينها وبين الاعلان عن نفسها ما عرفناه في العصر الأموي من الحرص على المحافظة والاستمرار على القديم .

وكان من أهم تلك الظواهر التي آذنت بالتجديد في الشعر ما يأتي :

- ١ - مشاركة غير العرب في الشعر وظهور شعراء منهم فرضوا أنفسهم على الحياة الأدبية وبلغوا فيها مبلغاً لفت اليهم أنظار النقاد ومؤرخي الأدب .
- ٢ - تأثير الشعر بالحياة العقلية واستخدامه طريقة الحجاج والمناقشة والاستدلال .

- ٣ - مسايرة الشعر للحياة الحضرية التي شاع فيها اللهو والشراب والغناء ، واتخاذها اياها موضوعاً له يستأهل أن يتفرغ له الشعراء ويصرفوا اليه اهتمامهم .

أما مشاركة غير العرب في الشعر فكانت أمراً طبيعياً بعد الذي كان من اندماج طائفة منهم بالحياة العربية وصيرورتهم جزءاً منها .

وقد كان طليعة هؤلاء شاعران من الموالي تحدرتا من اصل قديم الصلة بالعرب وهو الجنس الافريقي . هما سحيم عبد بني الحسحاس ونصيب ابن رباح .

أما الاول فقد عاش في صدر الاسلام ويقال إنه أدرك الجاهلية وهو بذلك ليس تناجاً للعصر الأموي وإنما كان العصر الاسلامي ذا أثر في ابرازه وفي سيرورة شعره ولاسيما إذا لاحظنا الصلة بينه وبين الشعراء الذين تلمذوا وترسموا سبيله في شعره .

وأما الثاني فقد نشأ في العصر الأموي وتأثر به ولقي من عصبية الشعر

للعرب ودهشته لأن يجرؤ عليه مثله حتى استطاع أن يمكن لنفسه في مجاله •
 كان سحيم بن وائلة عبداً لبني الحسحاس وكان يرتضخ لكنة أعجمية ،
 عاش في صدر الاسلام وأنشد عمر بن الخطاب قصيدته الياثية التي أولها :
 أمانة ودّع ان ترحلت غارياً كفى الشيب والاسلام للمرء ناهياً
 فقال له عمر : « لو قلت شعرك مثل كفى الشيب والاسلام للمرء ناهياً
 لأعطيتك عليه » وقيل انه قال له : « لو قدمت الاسلام على الشيب لأجزتك » •
 وقتل سحيم في خلافة عثمان حوالي عام ٣٥ للهجرة • ويروى انه قتل
 لما اطال التشيب بنساء قومه وتحدث عنهن في شعره حديث الماجن
 المتهتك (١٣) •

وتأتي مكانة سحيم في تاريخ الشعر من انه يقع في منزلة وسط بين
 شاعرين كبيرين ويقوم بينهما مقام حلقة الوسط ذاك هما امرؤ القيس
 وعمر بن ابي ربيعة •

وهو في ما يظهر مقلد لامرئ القيس في قصصه الغزلي وفي حديثه
 الصريح المكشوف عن النساء وعلاقاته بهن حيث يقص ما كان بينه وبينهن
 في تفصيل وفي دقة ، ويندمج في حديثه بهن اندماج امرئ القيس • وهو
 ايضا استاذ لابن ابي ربيعة في غزله الذي كان يحكي فيه احاديث النساء على
 صورة لا نكاد نعرفها عند احد غيره من الشعراء ، ويقرب في شعره من
 طبائعهن حتى كأنه احداهن •

على ان سحيماً يختلف عن امرئ القيس وعمر كليهما في امر مهم تبدو
 شخصيته من خلاله في شعره ، ولولا ذلك لاستطعنا ان نضيف بعض شعره
 لامرئ القيس ونسب بعضه لابن ابي ربيعة ، فلا يحس الفرق بين شعره
 وشعرهما بوضوح على الاقل • هذا الامر هو مركب النقص الذي تتأصل

فيه شخصية سحيم وتبرز مختلفة عن صاحبيه . فأما امرؤ القيس في نسيبه
فتى من أبناء الملوك منعماً يفتن النساء ويفتن بهن ، ويصبو اليهن ويصبون
اليه ، وهو في كل ذلك مكتمل الرجولة قوي الشخصية . وأما عمر بن ابي
ربيعه فيدل على النساء بجماله ويمتزج بهن في حديثه وفي قصصه حتى
ينقلب واحدة منهن .

لكن سحيم يتحدث عن صاحباته فلا ينسى انه اسود رث القتب بالي
العباءة لا يملك ان ينال منهن ما ينال غيره :

اشارت بمدراها وقالت لتربها أعبد بني الحساس يزجي القوافيا
رأت قتباً رثاً وسحق عباءة وأسود مما يملك الناس عاريا
يرجلن أقواما ويتركن لمتي وذلك هوان ظاهر قد بدا ليا
فلو كنت ورداً لونه لعشقتني ولكن ربي شائني بسوايا
فما ضرني ان كانت أمي وليدة تصر وتبري باللقاح النوايا

ولعل هذا الشعور بالنقص قد خلق في نفسه توهم العظمة والقدرة
على ان ينال من نساء قومه ما لا يحل وما لا يرتضى ، فصار يشنع عليهن في
شعره تشنيعاً افضى به الى القتل في النهاية . وذلك امر معترف به في علم
النفس فان الشعور بالضعفة (Inferiority Feeling) قد يفضي احياناً الى
ما يعرف بالعظمة (Superiority Feeling) .

وسحيم ايضا يظهرنا على بادرة من بوارد التطور والتجدد في الشعر
ذلك انه وقف شعره على نفسه واتخذ منه اداة للتعبير عنها من دون ان
يلتفت الى وظيفة الشعر في حياة الناس واغراضه التي كان يتصرف فيها
الشعراء كالمدهج والهجاء والمراثي ونحو ذلك .

* * *

وكان نصيب بن رباح ابن سبيّين نوبيين لخزاعة في رواية ، وفي رواية أخرى انه كان رقيقاً مملوكاً لبعض بني كنانة فاشتراه منهم عبدالعزيز بن مروان ، وفي رواية ثالثة انه من قضاة وان امه كانت أمة سوداء فوقع عليها سيدها فأولدها نصيباً ، ثم وثب عليه عمّه بعد موت أبيه فباعه من عبدالعزيز بن مروان (١٤) .

ويصفه مؤرخوه بأنه كان اسود اللون خفيف العارضين ناتيء الحنجرة (١٥) .

وعلى اية حال فقد نشأ نصيب نشأة العبد يشعر انه من طبقة لا تساوي سائر الناس ، وكانت نشأته - بالضرورة - نشأة غير الاصيل في المجتمع الذي يشعر ان حدوده في الحياة الاجتماعية مقيدة باصله وبمركزه الاجتماعي ، على ان نصيباً كان موهوباً تخطت به مواهبه حدود المنشأ الوضع والمربي الذي يقعد بالموهبة ويقضي عليها ، وتحدث قدرته الشعرية فطرة المجتمع اليه وحسبانه اياه عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء . وله مع الفرزدق حديث يدل على ذلك حين عرض عليه شعره فبسط عزيمته وفقر هيمته حسداً منه واثانية . قال نصيب : « قدمت المدينة فوجدت فيها الفرزدق في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرجت اليه فقلت أنشدني واستنشدني وأعرض عليه شعري فأنشدته فقال لي : « ويلك ، أهذا شعرك الذي تطلب به الملوك ؟ » قلت : « نعم » . قال : « فلست في شيء ، ان استطعت ان تكتنم هذا على نفسك فافعل » الخ (١٦) . ولكن نصيباً - كما اسلفنا - قد استطاع أن يفرض نفسه على الشعر وأن ينال مكانه بين الشعراء .

(١٤) يراجع الاغانى ج ١ ص ١٢٥ - ١٢٦ .

(١٥) يراجع الاغانى ج ١ ص ١٣٢ .

(١٦) الاغانى ج ١ ص ١٢٦ .

ومن اهم ما يلاحظ في شعر نصيب تلك الطلائع التي تقدمت النهضة الفنية التي حمل لواءها المولدون في العراق بعد ذلك .
 اننا لنجد في شعره فنوناً من البديع تدل على انه كان يعنى بصياغة شعره ويقصد فيه الى التفنن . ومن تلك الفنون التشخيص في قوله يمدح سليمان بن عبد الملك :

أقول لركب صادرين رأيتهم قفا ذات أوشال ومولاك قارب
 قفوا خبروني عن سليمان انني لمعروفه من آل ودان طالب
 فعاجوا فأثنوا بالذي أنت أهله ولو سكتوا أثنت عليك الحقائق

وإنطاق الحقائق بالثناء تشخيص جميل من غير شك .

وهو يستخدم التحسين اللفظي فيطابق ويقابل ويرد اعجاز الكلام على صدره ويقسمه تقسيماً يدل على براعة في الصنعة يعينه على ذلك طبع مواتٍ وسليقة حسنة . مثال ذلك قوله :

أرق المحب وعاده سهده لطوارق الهم التي ترده

 وذكرت من رقت له كبدي وأبى فليس ترق لي كبده
 لا قومه قومي ولا بلدي - فنكون حيناً جيرة - بلده
 ووجدت جداً لم يكن أحد من أجله بصبابة يجده
 الا ابن عجلان الذي تلبت هند فقات بنفسه كمدته

كان نصيب اذن طليعة من طلائع التفنن في الشعر لم يلتفت اليها مؤرخو الادب ، وكان في ما يظهر رأس الطبقة التي عنيت بفنية الصورة في الشعر أعني بها طبقة أهل البديع كبشار ومسلم بن الوليد وأبي تمام .

وثمة ظاهرة أخرى كان نصيب فيها ايذاناً بتحول الشعر الى فن مصنوع يقوم على الروية ، ولا يطمئن الى ما يأتي منه غفو الخاطر ، وقد

اجتمع نصيب بالكميت وذى الرمة فأشدد الكميت قوله :
هل انت عن طلب الايناع منقلب
حتى بلغ الى قوله :

وهل ظعائن بالعلياء فافعة وان تكامل فيها الأنس والشنب
فعمد نصيب واحدة ، فقال له الكميت : « ماذا تحيي ؟ » قال :
« خطوك ، باعدت في القول • ما الانس من الشنب • ألا قلت كما
قال ذو الرمة :

لياء في شفتيها حوة لعس وفي اللثات وفي أنيابها شنب
ثم أشدهما قوله :
أبت هذه النفس الا ادكارا
حتى بلغ الى قوله :

اذا ما الهجارس غنيها تجاوبن بالفلوات الوبارا
فقال له نصيب : والوبار لا تسكن الفلوات • ثم انشد حتى بلغ منها :
كأن الفطامط من غليها أراجيز أسلم تهجو غفارا
فقال نصيب : ما هجت أسلم غفارا قط • فانكسر الكميت
وامسك (١٧) •

وهذا يدل على أن نصيباً كان يرى أن يتدبر الشاعر معانيه تدبر الواعي
اليقظ الذي لا يخلط في شعره كحاطب الليل • بل يجمع الشيء الى صنوه
ولا يخرج عن الواقع بل يتحرى فيه الحقائق •

وكان نصيب من اوائل الشعراء الذين تأثروا بالقرآن وقأذبوا بأدابه
فقد كان عفيفاً لم ينسب قط الا بامراته • ولم يكن له في الهجاء حظ وقيل

له مرة : انت لا تحسن الهجاء • فقال بلى والله ، أتراني لا احسن أن أجعل مكان عافاك الله أخراك الله ؟ (١٨) •

وكان للقرآن أثره في اسلوبه عذوبة وسلاسة وبراعة من المستكره الثقيل من التراكيب والانفاظ • بل قد يقتبس في بعض كلامه تراكيب وعبارات قرآنية كما في قوله :

أعني على برق أريك وميضه تضيء دجنات الظلام لوامعه
إذا اكتحلت عينا محب بضوئه تجافت به حتى الصباح مضاجعه

والشطر الاخير مقتبس من قوله تعالى «تجافى جنوبهم عن المضاجع» • وبعد ، فقد كانت مشاركة غير العرب في الشعر أمراً طبيعياً بعد الذي كان من صيرورتهم عنصراً من عناصر الحياة الاسلامية ، وقد شهدت أوائل القرن الثاني للهجرة مزيداً من هذه المشاركة ، وغمر هذا القرن بفيض من شعراء الموالي كادوا يزيدون عدداً على الشعراء العرب وأصبح لهم في القرن الثاني المكانة الاولى في الشعر وتسلموا مقاليد التوجيه والتأثير فيه كما سيأتي بعد •

* * *

وقد أصاب الشعر في هذا العصر تطوراً من طراز آخر يصح أن يعتبر تأثراً بالحياة العقلية من بعض نواحيه ، فقد أصبح عند بعض شعراء المذاهب الدينية والسياسية يستخدم للدفاع عن تلك المذاهب وتأييد حقها والدفاع في وجه الخصوم وتقنيدهم والرد عليها • وكان شعراء الخوارج أول من سلك سبيل الانتفاع بالقرآن في تأييد مذهبهم والدفاع عنه • الا أن الاتساع في الاحتجاج والاستدلال لم يتضح في الشعر ولم يغلب عليه الا عند شاعر الهاشمين أبي المستول الكميث بن زيد الاسدي في هاشمياته •

وهاشمياته هي شعره الذي وقفه على مدح بني هاشم وتأييد حقهم والاحتجاج لمذهبهم وهجاء خصومهم والتحدث عما أصابهم من المظالم والنكبات وما أصاب الدين وأهله على أيدي أولئك الخصوم .

وها هنا مسألة أحسب أن لها خطورتها في هذا المذهب الذي سلكه الكميث فقد كان صديقا للشاعر الخارجي الطرماح بن حكيم وكانت صلته به محل استغراب الناس واندھاشهم للاختلاف الواضح في المذهب الديني والسياسي عند كليهما ، وكانا اذا سئلا في ذلك قالوا : « اجتمعنا على بغض العامة » . ولعل لهذه العلاقة أثرها في سلوك الكميث مسلك الخوارج في الاعتماد على القرآن والحديث في تأييد مذهبه والاحتجاج له .

ولقد أدرك الأقدمون مكانة الكميث في الشعر السياسي واصطناعه هذه الطريقة الجديدة في تأييد مذهبه فقال فيه الجاحظ : انه أول من وطأ للشيعه وفتح لهم باب الاحتجاج لمذهبهم وأعلن ما أضمره الناس (١٩) .

وقد كان المعروف في الشعر السياسي أنه يقوم جملة على معان لاجديد فيها يستمد اغلبها من الشعر القديم ويستقي من الحياة البدوية وتقاليدها . ويتميز شعر الكميث في هاشمياته بأنه يحتج لمذهبهم في الخلافة ويعلن انهم وحدهم ورثة الرسول الذين يستحقون أن يلوا أمر المسلمين من بعده دون غيرهم ، بحكم النصوص الشرعية التي تجعل الارث في العصبه وذوي الارحام . ويرد على المحتجين بأن الرسول عليه السلام لا يورث بأنه لولا ذلك لتناولت الى الخلافة أعناق القبائل الاخرى من غير قريش :

يقولون لم يورث ولولا ترائه لقد شركت فيه بكيل وأرحب
ولا تشلت عضوين منها بحابر وكان لعبد القيس عضو مؤرب

(١٩) تاريخ الشعر السياسي للاستاذ احمد الشايب ص ١٦٢ .

ولا تتقلت من خندف في سواهم ولاقتدحت قيس بهائم اتقبوا
وما كانت الانصار فيها أدلة ولا غيباً عنها إذ الناس غيب
هم شهدوا بدرا وخيبر بعدها ويوم حنين والدماء تصبب
فان هي لم تصلح لحي سواهم فان ذوي القربى أحق وأقرب

وهو انما يقتبس معانيه في ذلك من القرآن من قوله تعالى «قل لا اسألكم عليه أجرا الا المودة في القربى» • وهو يجمع في احتجاجه لحق بني هاشم بين الدليل النقلي المستمد من النصوص الشرعية وبين الدليل العقلي القائم على المناقشة المنطقية • فها هو ذا في ابياته السالفة يتناول أدلة خصوم مذهبه واحدا واحدا ثم يفندها بعد ذلك حتى يخرج الى اثبات حجته وتأيد مذهبه • وقد استخدم في ذلك معرفته بالأنساب ورسوخه في الرواية فأتى على أسماء القبائل التي كانت على جانب من القوة والبلاء في نصره الدين يمكن لها أن تطالب بالخلافة لولا أنها كانت تعترف بأن ذوي القربى أحق بها وأقرب اليها من سواهم •

ومن الظواهر الجديدة في شعر الكميت أنه استطاع في هاشمياته أن يظهر في صورة الشاعر الموضوعي الذي يحتكم الى العدل والعقل ونص الشرع ، فكان في بعض شعره أشبه بالخطيب المفوه منه بالشاعر وقارئ شعره يحس أن فيه لوناً من ألوان المحاكمة العقلية تجعله يقارب النثر :

حنانيك رب الناس من أن يغربي كما غرهم شرب الحياة المنضب
إذا قيل هذا الحق لا ميل دونه فأنقاضهم في الغي حسرى ولغب
وإن عرضت دون الضلالة حومة أخاضوا اليها طائمين وأوثبوا
وقد درسوا القرآن واقتلجوا به فكلهم راض به متحزب

وسلك في شعره أحياناً مسلك الواظئ المرشد الذي يبصر الناس بما أصابهم من الانحراف عن الدين والميل عن طريق الحق فكان بذلك موطئاً

لمن ظهر بعده من الشعراء الذين طرّقوا هذه المعاني الدينية والخلقية وممهّداً
للشعر هذه السبيل :

ألا هل عم في رأيه متأمل وهل مديّر بعد الإساءة مقبل
وهل أمة مستيقظون لرشدهم فيكشف عنه النعسة المتزمل

.....
وعطلت الأحكام حتى كأننا على ملة غير التي تتجمل
كلام النبيين الهداة كلامنا وأفعال أهل الجاهلية تفعل

لهذا السبب نستطيع أن نعد الكمية بادرة من بوادر التجديد في
الشعر، وارهاساً لما ظهر من بعد من مساهرة للحياة العقلية ومشاركته فيها
على اعتبار أنه كان - في زمنه وبعد زمنه بمدة - الاداة الوحيدة للتعبير عن
الأفكار .

ويمكن أن يعد ايضاً محرراً للشعر من التقيد بالمعاني المكررة المستمدة من
الشعر الجاهلي ، ومتجهاً به وجهة جديدة في استقاء معانيه وأفكاره من
واقع الحياة الدينية والعقلية ، والتعويل فيها على شيء من الاصاله والابتكار
والتباعد عن التقليد (٢٠) .



ومن الظواهر المهمة التي تستحق التسجيل أن الشعر في القرن الثاني
للهجرة قد أصبح قادراً على التعبير عن الحياة الحضرية ومسائرتها ، وأخذت
صورة الحضارة تتضح فيه ، ولم يعد قاصراً على المسير في سبيل الشعر
الجاهلي جرياً تقليدياً لا اثاره فيه لذلك التحول الذي أصاب الحياة

(٢٠) من مظاهر الابتكار عند الكمية أنه لايفتح بعض قصائده بالنسيب وذكر
الناقة التي تقطع به المفازة الى ممدوحيه وقد يذكرها في اواخر القصائد .
(تراجع ميمته في الهاشميات ص ١١ - ٢٢ . بريل و ص ٢٤ و ٦٥) .

الإسلامية ولا سيما في دمشق عاصمة الخلافة ومركز الحكم الأموي من يوم أن حل فيها معاوية ، فاتخذ لنفسه سمت الملوك وهو وال على الشام من قبل عمر بن الخطاب ، وتأثر أساليب مجاوريه من الروم في بعض مظاهر الحياة .

ولعل من المهم أن نلاحظ أن تأثر الشعر العربي بالحضارة قديم وإن لم تتصل حلقاته أو تستمر أسبابه . فقد كان في الجاهلية من يلم بالمعاني الحضرية من الشعراء ، ومن يتأثر في أسلوبه وفي معانيه بالحضارة ، كعدي بن زيد العبادي والنابغة الذبياني وأعشى قيس ، ومن أتيح له أن يعيش في كنف المناذرة والغساسنة أو يصل إلى بلاط الروم والفرس من الشعراء .

أما في العصر الأموي فإن هذه الظاهرة — ظاهرة تعبير الشعر عن الحضارة — تتمثل إلى أقصى حد في الوليد بن يزيد الأموي الشاعر ، ويصح أن يعد موجهاً للشعر فيها أيضاً .

وكان الوليد بن يزيد كما يصفه بعض مؤرخيه « من فتيان بني أمية وظرفائهم وشعرائهم وأجوادهم وأشدائهم ، وكان فاسقاً خليعاً في دينه مرمياً بالزندقة وشاع ذلك من أمره وظهر حتى أنكره الناس » (٢١) .

ولقد أفصح هو عن نفسيته وعن مذهبه في الحياة فقال :

ولقد قضيت ، وإن تجلل لمتي شيب ، على رغم العدا لذاتي
من كآبات كالدّمى ومناصف ومراكب للصيد والنشوات
في فتية تأبى الهوان وجوهمهم ثم الأنوف ججاج سادات

وقد اولى الوليد بالغناء والشراب ، والتمس لذلك كل ما يستطيع من الأسباب فأحضر المغنين من الحجاز كمعبد والغريض ، وتفنن في لهوه وفي شرابه واصطنع في ذلك أعاجيب (٢٢) وهو من هذا الوجه ثمرة من ثمرات

الحضارة التي بصر الناس فيها بلذتهم ومتعتهم ، وجعلوا للذة والمتعة في حياتهم مكاناً أي مكان .

وشعر الوليد أيضاً ثمرة تطور الشعر من الناحية العاطفية ، فهو قد قصر شعره على ذاته لم يشرك فيها أحداً ، وكان يتغزل بحبيته سلمى غزلاً فريداً في بابه ، ويصف الخمر وصفاً مبتكراً ويتحدث عن مجالسها ، يفعل كل ذلك لذاته لا لغرض آخر من دواعي الشعر .

وكانت شخصيته واضحة في شعره كل الوضوح على خلاف ما عهدناه من تشابه شخصيات الشعراء بسبب ضعف الذاتية في شعرهم ، يستدل عليها بسهولة كما استدل عليها المأمون من قوله :

أسقني من سلافة ريق سلمى واسق هذا النديم كأساً عقاراً
ويمكن أن نجعل آثار الحضارة التي تتمثل في شعر الوليد بن يزيد بما يأتي :

أولاً - أنه ربط بين الشعر والغناء ، واتخذ من الشعر أداة للتعبير عن حياته الخاصة تعبیراً فيه صدق وفيه أصالة ، وبذلك فسح للغناء مجال التأثير في الشعر من حيث الموسيقى والأوزان ، فنهج طريق الحجازيين في الأوزان وأكثر منها .

ثانياً - وصف الخمر وصفاً لم يسبقه إليه في العصر الإسلامي شاعر ، وتحلل في شربها وفي التحدث عنها إلى أبعد حد ، وأبدع في وصفها وابتكر ، حتى كان في الواقع أسنadaً لشعراء الخمر من بعده كأبي نواس والحسين بن الضحاك .

ومن أجود شعره في الخمر قصيدته التي يقول فيها :

(٢٢) كان الوليد يتخذ من أدوات الشرب ووسائله أفانين ، وكان يشرب الخمر في كووس مختلفة الأشكال والاحجام ، ويسمّيها باسماء غريبة .

أصدع نجبي الهموم بالطرب وأنعم على الدهر بابتة الغنب
واستقبل العيش في غضارته لا تقفُ منه آثار محتقب
من قهوة زانها تقادمها فهي عجوز تعلو على الحقب
أشهى الى الشرب يوم جلوتها من الفتاة الكريمة النسب
فقد تجلّت ورق جوهرها حتى تبدّأت في مظهر عجب
فهي بغير المزاج من شرر وهي لدى المزج سائل الذهب
كأنها في زجاجها قبس تذكو ضياء في عين مرتقب

ثالثاً - كان الوليد أيضاً معقد الاتصال بين البيئة الشعرية الجديدة التي مثلها في الشام وبين بيئة حضرية مشابهة لها في الكوفة ، تلك البيئة التي وجد فيها بعض ما افتقده في الشام من الرواة والندماء والظرفاء . فقد جلب اليه منها حماد الراوية ليروي له قصيدة عدي بن زيد العبادي التي يقول فيها :

ودعوا بالصباح يوماً فقامت قينة في يمينها ابريق
وذكر له مطيع بن إياس وغيره من شعراء الكوفة وظرفائها وندمائهما فأمر أن يحملوا اليه فحملوا .
وهكذا أخذت الحضارة تتغلغل في الشعر شيئاً فشيئاً ومهد للشعر سبيلها بعض الشيء ، وبذرت فيه بذورها من مجارة للحياة العقلية وما يطرأ عليها من التطور ، ومن اقبال على الحياة الحضرية في مظاهرها المختلفة من لهو وغناء وشراب وترف ونعيم .
وأصبح الشعر في القرن الثاني وقد تفتح للحياة الجديدة ولكنه تفتح محدود ، كأنما كان ينتظر الوثبة التي وثبتها الحضارة في بغداد حتى يستكمل تفتحها ومشاركته فيها وتعبيره عنها .

* * *

میں نے اس کو دیکھا تھا کہ وہ اپنے
میں سے بہت زیادہ دیکھتا تھا
میں نے اس کو دیکھا تھا کہ وہ اپنے
میں سے بہت زیادہ دیکھتا تھا
میں نے اس کو دیکھا تھا کہ وہ اپنے
میں سے بہت زیادہ دیکھتا تھا

میں نے اس کو دیکھا تھا کہ وہ اپنے
میں سے بہت زیادہ دیکھتا تھا
میں نے اس کو دیکھا تھا کہ وہ اپنے
میں سے بہت زیادہ دیکھتا تھا
میں نے اس کو دیکھا تھا کہ وہ اپنے
میں سے بہت زیادہ دیکھتا تھا

میں نے اس کو دیکھا تھا کہ وہ اپنے
میں سے بہت زیادہ دیکھتا تھا
میں نے اس کو دیکھا تھا کہ وہ اپنے
میں سے بہت زیادہ دیکھتا تھا
میں نے اس کو دیکھا تھا کہ وہ اپنے
میں سے بہت زیادہ دیکھتا تھا

میں نے اس کو دیکھا تھا کہ وہ اپنے
میں سے بہت زیادہ دیکھتا تھا

میں نے اس کو دیکھا تھا کہ وہ اپنے
میں سے بہت زیادہ دیکھتا تھا

میں نے اس کو دیکھا تھا کہ وہ اپنے

میں نے اس کو دیکھا تھا کہ وہ اپنے
میں سے بہت زیادہ دیکھتا تھا
میں نے اس کو دیکھا تھا کہ وہ اپنے
میں سے بہت زیادہ دیکھتا تھا

میں نے اس کو دیکھا تھا کہ وہ اپنے
میں سے بہت زیادہ دیکھتا تھا

الباب الثالث

العوامل التي اثرت في الشعر ببغداد

الفصل الاول

العامل السياسي

كان العراق في عهد الدولة الأموية مجال النشاط الواسع للشعر السياسي ، بل كان أوسع مجال له على الاطلاق . وقد سبق أن شرحنا أسباب ذلك في الفصل السابق عند الكلام على الشعر قبل بغداد فقلنا ان العراق كان منذ النصف الثاني من القرن الاول للهجرة معتركا سياسياً بين الرعيل الاول من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فشهد وقعة الجمل ومعركة صفين من بعدها . وشهد أهله رجال الطليعة في الاسلام وهم يختلفون ويختصمون ويحتربون . وكان من الطبيعي أن ينقسم الناس في العراق - وهم قد شهدوا تلك المعارك - شيعاً ينصر بعضها عائشة وينتصر بعضها لعلي ، وينحاز بعضها لمعاوية ويخرج آخرون على هؤلاء جميعاً . وهكذا تقسمتهم النزعات السياسية والمذهبية من أول الأمر .

ولقد كان لهذه الأحداث في أرض العراق أثرها الخطير في حياته العقلية والسياسية والأدبية ؛ ذلك أن أهل العراق قد شهدوا اختلاف القوم واختصامهم واحترابهم شهوداً ، ولمسوه من كتب لماً ، والخصام يكشف في المتخاصمين عن جوانب بشرية طبيعية تنزل بالشخصيات المقدسة عن قدسها وتحشرها في زمرة الأناس الذين يخطئون ويصيبون ، وتقع تصرفاتهم وأعمالهم تحت طائلة النقد والتجريح .

وهكذا تجرأ أهل العراق من أول الأمر على ما لم يتجرأ عليه غيرهم

من أهل البلاد الاسلامية الأخرى وهو شخصيات الخلفاء الراشدين والصحابة المقربين فخطأوا وصوبوا وأمعنوا في ذلك إمعاناً غير مألوف عند غيرهم من المسلمين •

ومما يوضح ذلك أن الخوارج قد ذهبوا الى الإنكار على الخليفتين الثالث والرابع عثمان وعلي والاعتراف بالخليفتين الأولين أبي بكر وعمر، لأنهم شهدوا علياً يختلف ويختصم وشهدوا عثمان يتصرف فيكون تصرفه محل النقد أحياناً •

وهكذا قدر للعراق أن يكون مقر المعارضة السياسية للدولة بعد مقتل الامام علي ، وخلص الأمر لمعاوية ، وانتقال مركز الخلافة الى الشام وكانت تمثل في أهله الأحزاب السياسية بأجمعها ، من مؤيدين منتفعين أو معارضين مؤمنين أو محرومين • ومعلوم ان المعارضة تشحذ الازهان وتوقد الملكات وتستحث إقبال الناس على ما يأتي به المعارض من حجج يدفع بها عن رأيه أو يدفع بها في وجه خصمه •

ولقد ازدهر الشعر السياسي في العراق أيام بني أمية لأنه كان لسان الأحزاب والشيوع ، والسلاح الذي كان يشهره كل منها في وجه خصومه •

يضاف الى ذلك أن العراق والبيئة العراقية كانت واثرة الحياة الجاهلية والشعر الجاهلي ، لأسباب متعددة من أهمها : أن الحياة لجاهلية قد فرت بعد الاسلام تلتبس بيئة تناسبها وتلائمها فلم تجد إلا العراق الذي تسامح الخلفاء في الابقاء على بعض مظاهر القديم فيه ، كما فعل عمر بن الخطاب بنصاري تغلب •

وكان العراق بطبيعة وقوعه في أقصى المشرق العربي ومجاورته لبلاد الأعاجم أحرص على التراث العربي القديم وأشد احتياجاً اليه وتمسكاً به ليحتفظ بمقوماته القومية ويقف بها في وجه المؤثرات الأجنبية التي كانت

ترده من فارس وخراسان وغيرها .

وكذلك كان العراق بطبيعة موقعه الجغرافي بيئة صالحة للاحتفاظ بتراث الجاهلية احتفاظاً علمياً ، لأنه كان نقطة الاتصال بين الحياة العربية القديمة في نجد واليمامة في الجنوب والجنوب الغربي والجزيرة في الشمال ، وبين الحياة العقلية الموروثة عن قدماء العراقيين ، والوافدة من بلاد فارس والهند وبيزنطة .

كان العراق مقر المعارضة السياسية في أيام بني أمية - كما أسلفنا - فلما قامت الدولة العباسية تغيرت الحال بعض الشيء ، فقد كان قيامها نصراً للهاشميين سواء منهم العباسيون والعلويون فكان العلويون من مؤيديها بادئ الأمر .

وكان الخوارج قد نهكهم طول الكفاح وتشرد رجالهم في الآفاق فلم يعودوا قوة ذات بال .

أما الامويون فلم يكن لهم في العراق على وجه العموم انصار يؤمنون بهم ويتعلقون بدولتهم ، ما عدا من كانوا يطمعون منهم في منفعة أو يستعملون في ولاية أو عمل من أعمال الدولة .

ولما أحس أبو جعفر المنصور خطر مقامه في الكوفة - مركز الشيعة العلويين - وتحول الى بغداد ، أخذ يوطد دعائم خلافته ويتعقب الطامعين فيها الذين كذبوا في ما وعدوا بها وهم العلويون ، فكان أن ظهر هؤلاء في مجال السياسة بمظهر المظلوم المفصوب حقه . وبرز حزب الشيعة العلويين في الحياة السياسية بروزاً يتفاوت قوة وضعفاً بتفاوت الفرص المتاحة له .

ولم يكن للعلويين حزب سياسي بالمعنى الواضح ، فقد كان الحق الذي يدعون به وهو قربهم من الرسول صلى الله عليه وسلم أمراً ينازعهم فيه بنو العباس . فكان هذا موطن ضعف في موقفهم ، فاقصر أمرهم في السياسة

على الشكوى والتظلم مما أصابهم من غت الأمويين وعسف العباسيين الذين
لم يراعوا صلة القربى ولم يحفظوها :

أرى أمة معذورن إن ظلموا ولا أرى لبني العباس من عذر
ولقد ألمحنا من قبل الى ان أبا جعفر المنصور كان يدرك الخطر
المتربص بالدولة من جهة فارس ففضى على أبي مسلم الخراساني ، ولم يتح
للاعاجم أن يقبضوا بأيديهم على شيء مهم من مقاليد الدولة .

ولكن أسرة فارسية بدأت تتسلل الى المراكز العليا في الدولة منذ أيام
أبي جعفر ولكنها لم تحظ في أيامه بشيء ذي خطر ، ثم اخذت في التقدم
بعد وفاته أيام ابنه محمد المهدي ، تلك هي أسرة البرامكة الذين بلغوا في
عهد هرون الرشيد القمة التي آذنتهم بالانحطاط والانقراض . وكان لهم في
أيامهم مجد لم يكن يقل عن مجد الخلفاء إن لم يتميز عليه في بعض الاحيان .
وقد اتخذوا الصنائع في الشعراء فأغدقوا عليهم الاموال الطائلة حتى ضرب
بهم المثل في السخاء والبذل (١) .

ونحن نجد في شعر من مدحهم من الشعراء ما يدل على انهم كانوا
ذوي أثر بعيد في تلوين الحياة الاجتماعية باللون الاعجمي ، وفي محاولة
الاستئثار بالملك والتسلط على أمره ، ولكن نقمة الرشيد عاجلتهم فلم يبلغوا
في ذلك شيئاً .

ولقد أثار ذلك أمراء الجيوش من العرب فاتخذوا الصنائع في الشعراء
وقربوهم مثلما فعل البرامكة ، وأغدقوا عليهم اغداقاً عظيماً فلهجوا بمدحهم
وتكريمهم وأحيوا في شعرهم ما كاد ينسى من العصبية للعربية والتقاليد
القديمة . أولئك امثال معن ابن زائدة الشيباني وابن اخيه يزيد بن مزيد وابي

(١) من طريف ما يلاحظ ان البغداديين يقولون في السخي الكريم « برمكي »
حتى يومنا هذا .

دلف القاسم بن عيسى العجلي وحמיד بن عبد الحميد الطوسي • ورعى هؤلاء نشاطاً اجتماعياً شعرياً كان له أثره البعيد في الحياة الاجتماعية وفي الشعر •

ونستطيع أن نجمل عناصر الحياة العباسية في العصر العباسي الاول - وهو ما نحن بصدد البحث فيه - بما يأتي :

أولاً - العباسيون وهم أولو الامر في الدولة ، وهم بطبيعة الحال أوفر أنصاراً وأكثر جمعاً • وكان للشعر في تأييدهم وفي نصرتهم فعله ، يتجلى ذلك في ما مدح به الخلفاء وما رثوا به ، وما تصدى به بعض الشعراء لاثبات حقهم في الخلافة بعد ان تكشفت الحوادث عن النزاع بينهم وبين أبناء عمهم العلويين الذين رأوا أنهم قد كذبوا في الدعوة الى الرضا من آل محمد في أول أمر الدعوة •

فصار هذا النزاع موضوعاً يطرقة الشعراء ويفيضون فيه ويحاول كل فريق منهم أن يحتج لعصبته •

ثانياً - العلويون • وهم كانوا أول الامر مع العباسيين يجمعهم السخط على بني امية والطموح إلى دولة هاشمية يكون لهم فيها نصيبهم الموفور ، فلما قامت الدولة واستأثر بها بنو العباس خرج عليهم فريق من العلويين مثل محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي وأخيه ابراهيم وغيرهما • وكانت الكوفة أو أغلبها شيعة لآل علي ، وبقيت كذلك زمن بني العباس حتى أن أبا جعفر تباعد عنها - بعد أن جرب الإقامة فيها - رغبة في تجنب جوار أهلها •

ولقد كان للعلويين شعراء يؤمنون بحقهم في الخلافة ويوالونهم لقرباتهم من الرسول ويحزنهم تتابع النكبات عليهم من مصرع الامام علي بن أبي طالب الى مصرع الحسين الى ما نالهم على أيدي العباسيين من اضطهاد،

ثالثاً - الامويون • وهم قوم أدبرت عنهم الدنيا وفارقهم السلطان فلم يف لهم من الناس إلا قليل ، ولقد أخذهم بنو العباس بالقتيل والتشتيت واستأصلوا شأقتهم حتى لم يكذب يبق منهم ذو شأن • أما الشعراء فلم يبق فيهم من يدافع عن بني أمية ويظهر ولاءه لهم إلا نزر يسير بقي يعرف لهم حقهم عليه ويذكر صنائعهم فيه كأبي العباس الاعمى وأبي عطاء السندي •

وصفوة القول إنه لم تكن في دولة بني العباس معارضة كالتى كانت في دولة بني أمية وأحزاب ينطق بلسانها الشعراء • فالعلويون لم يكونوا حزباً سياسياً ذا بال من الوجهة الادبية بل كانوا جماعة أشبه بالجماعات الدينية ، إذ أنهم فقدوا بقيام الدولة العباسية جزءاً من حجتهم العظمى وهي قربتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كان بنو العباس أيضاً أبناء عم الرسول وذوي قرباه ، ولكن شعراء العلويين دأبوا على تمجيد علي وإظهار فضله وبلائه في الاسلام والتحسر على ما اصاب ذريته من المظالم من يوم أن منعوا ميراث الرسول وحيل بين علي والخلافة الى أن أصابهم ما أصابهم على ايدي العباسيين •



وكان في الحياة السياسية جانب آخر يتمثل في الاعاجم الذين تبوأوا في الدولة العباسية مكاناً فسيحاً فأصبحوا يهجون العرب ويشلبونهم - في بعض الاحيان - ويتبرأون من ولائهم ويفضلون أقوامهم عليهم •

وصحيح أن هؤلاء وجدوا من قبل أن تقوم الدولة العباسية فكان أبرزهم في العصر الاموي اسماعيل بن يسار النسائي الذي فخر في شعره بأصله الفارسي ونعى فيه على العرب ، إلا أن قيام الدولة العباسية على نصرتهم جعل نزعتهم القومية أقوى وأوضح وأرفع صوتاً •

على أن هذا الاتجاه الشعري كان ظاهرة اجتماعية أدبية بالدرجة

الاولى ، وكانت له آثاره في الحياة الاجتماعية والادبية ، ولم يقدر له ان يثمر في الناحية السياسية • وسبب ذلك فيما يخيّل الى الباحث أمران :

الامر الاول - أن الرشيد تدارك الامر ففرض على نفوذ البرامكة ونكبتهم وأزاحهم من الدولة فتقلص بذلك نفوذ الاعاجم وعدمت الشعوية مجالا رحباً كانت تتنفس فيه وتصول وتجول •

الامر الثاني - أن المعتصم اصطنع الاتراك ليخضع شوكة الفرس ، ولم يكن في الاتراك من يشارك في الحياة السياسية والاجتماعية والادبية مشاركة الفرس فيها ، فكان لقادة الجيوش من العرب أن ينشطوا في الهيمنة على الجانب الاجتماعي والادبي بما التفت حولهم من الشعراء يمدحونهم ويمجدونهم ويحيون بذلك التقاليد العربية بعد خمود الشعر في ظل السياسة الجديدة •

١ - العباسية في الشعر

لقد قامت الدولة العباسية على دعوى أن خلافة المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم حق موروث لآل بيته ، وأن صاحب هذا الحق بعد الرسول العباس بن عبدالمطلب لانه عمه ووارثه وعصبته ، ولقول الله عز وجل « وأولى الارحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » وأن الناس غصبوا العباس هذا الحق وانتزعوه منه انتزاعاً وأن هذا الحق قد رد الى ورثة الرسول وعصبته بخلافة علي بن ابي طالب رضي عنه ! • وقد أجاز العباس خلافته ورضي بها وبايعه قائلوا له : « يا بن أخي هلم إلى أن أبايعك فلا يختلف عليك اثنان (٢) » •

وقد أجاز العباسيون خلافة علي وارتضوها اقتداءً بجدهم العباس ،

(٢) مروج الذهب للمسعودي ج ٣ ص ١٦٧ •

وتبرأوا من ابي بكر وعمر وعثمان لانهم اخذوا الخلافة من عصبة الرسول — على زعمهم — بغير حق ، ولقد خطب داود بن علي على منبر الكوفة يوم بويج ابو العباس السفاح فقال ، يخاطب أهل الكوفة : يا أهل الكوفة لم يقسم فيكم امام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الا علي بن ابي طالب وهذا القائم فيكم : يعني أبا العباس (٣) .

ومعلوم ان الشيعة العلويين يذهبون الى ان الخلافة حق لعلي ولابنائهم من بعده لان الرسول نص على امامة علي في حديث الغدير الذي جاء فيه : «من كنت مولاه فهذا علي مولاه»، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» . وبقوله صلى الله عليه وسلم لعلي : « أنت مني بمنزلة هرون من موسى » . وقد خلف هرون موسى في قومه بدليل قوله تعالى : « وقال موسى لآخيه هرون اخلفني في قومي واصلاح ولا تتبع سبيل المفسدين » .

وهنا يلتقي العباسيون بالعلويين في إقرار خلافة علي واجازتها اتباعاً لموقف العباس من علي . ولكنهم يخالفونها في اعتقاد ان العم — وهو العباس — اولى بميراث ابن اخيه عليه الصلاة والسلام من بني بنته وابن عمه :

لكم رحم يا بني بنته ولكن بنو العم أولى بها .

ويلتقي الشيعة الكيسانية بالعباسيين في أنهم يرون الامامة بعد علي في ابنه محمد بن الحنفية وان محمداً اوصى الى ابنه ابي هاشم وان ابا هاشم اوصى الى علي بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب وان علي بن عبدالله اوصى الى ابنه محمد بن علي وأن محمداً اوصى الى ابنه ابراهيم الامام وأن ابراهيم اوصى الى أخيه أبي العباس عبد الله بن محمد . (٤)

وهكذا وجدت فكرة العباسية من يعتقدها ويؤمن أن الخلافة حق

(٣) . نفسه .

(٤) مروج الذهب للمسعودي ج ٣ ص ١٦٩ .

مغضوب يجب أن يعود الى أهله ، وأن أبا بكر وعمر وعثمان قد أسلموه الى
بني أمية ومنعوا تراث الرسول صلى الله عليه وسلم أعمامه .
وفي ذلك يقول منصور النمري :

لولا عدي^(٥) وتيم^(٦) لم تكن وصلت الى أمية تمريها وترتضع
ويقول السيد الحميري يخاطب المهدي :

منعوا تراث محمد أعمامه وبنيه وابنته عديلة مريما
وتآمروا من غير أن يستخلفوا وكفى بما فعلوا هنالك مأثما

ولقد كان لما آل اليه أمر الأمويين من تشبههم بالملوك وتصرفهم في
أموال المسلمين واشتھار بعضهم باللهو ونشدان اللذة والترف والبذخ ،
كان لكل ذلك أثره في انتصار الدعوة الهاشمية التي تمخضت آخر الأمر
عن دولة بني العباس . وكان الناس يحسون بذلك ويلتمسون منه مخرجاً ،
ومما يدل على ذلك ما يروى عن سديف بن ميمون مولى بني العباس
وشاعرهم انه كان يقول في أيام بني أمية :

« اللهم قد صار فيئنا دولة بعد القسمة ومارتنا غلبة بعد المشورة
وعهدنا ميراثا بعد الاختيار للأمة، واشتريت الملاهي والمعازف بسهم اليتيم والارمل
وحكم في ابشار المسلمين أهل الذمة وتولى القيام بامورهم فاسق كل محلة .
اللهم وقد استحصد زرع الباطل وبلغ نهايته واستجمع طريده اللهم فأتج
له من الحق يداً حاصدة تبدد شمله وتفرق أمره ليظهر الحق في أحسن
صورته وأتم نوره . »^(٧)

وهنا نلاحظ أن الدعوة العباسية كانت تقوم على فكرة دينية ذات

(٥) يكنى بذلك عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وكان من بني عدي .

(٦) يريد بذلك أبا بكر الصديق وكان من بني تيم بن مرة .

(٧) الشعر والشعراء ط . السقا ص ٢٩٣ - ٢٩٤ .

شقين : الأول - إعادة سلطان الدين الى مكانه من الحياة الاسلامية .
والثاني - حق موروث يجب أن يعود الى أهله . وهكذا قامت الدولة العباسية
على اساس النص والتفويض في ولاية امور المسلمين أو ما يشبه المعروف في
أوروبا بالحق الالهي . فكان الشعراء لا يفتأون يعيدون في هذا المعنى
ويبدئون .

وأشهر من تناول هذا المعنى من الشعراء مروان بن أبي حفصة فقال في
قصيدته المشهورة التي أنشدتها حين مثل بين يدي محمد المهدي وأولها :

طرقك زائرة فحيّ خيالها بيضاء تخطط بالجمال دلالتها
قادت فؤادك فاستقاد ومثلها قاد القلوب إلى الصبا فأمالها

حتى قال :

هل تظلمون من السماء نجومها بالكفكم أو تسترون هلالها
أو تعجدون مقالة من ربكم جبريل بلغها النبي فقالها
شهدت من الأنفال آخر آية بترائهم فأردتم إبطالها^(٨)

ويتفرع من هذا المعنى أيضاً الرد على آل علي الذين يرون أنهم
أقرب الناس للرسول وأحقهم بميراثه ؛ وكان شعراء العباسيين يردون عليهم
بأن الم أولى بميراث ابن أخيه من بني بنته .

وفي ذلك يقول مروان بن أبي حفصة للمهدي أيضاً :

يا ابن الذي ورث النبي محمداً دون الأقارب من ذوي الأرحام
الوحي بين بني البنات وبينكم قطع الخصام فلات حين خصام

(٨) يشير مروان بذلك الى قوله تعالى « وأولو الارحام بعضهم أولى ببعض
في كتاب الله . »

ما للنساء مع الرجال فريضة نزلت بذلك سورة الأنعام (٩)
أنى يكون وليس ذاك بكائن لبني البنات وراثة الأعمام

ويبدو أن بني العباس قد فطنوا الى هذه الفكرة وادعوا هذا الحق منذ أمد بعيد من قبل أن يعلنوا مسعاهم الى الخلافة في أواخر الدولة الأموية . يروي ابن قتيبة أن عبد الله بن أبي رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكتب لعلي بن أبي طالب فأتى الحسن بن علي فقال: « أنا مولاك » . فأغضب ذلك مولى لتام بن العباس بن عبد المطلب فقال يرد عليه :

جحدت بني العباس حق أبيهم فما كنت في الدعوى كريم العواقب
متى كان أبناء البنات كوارثٍ يحوز ويدعى والدأ في المناسب (١٠)

ومن طرق هذا المعنى من شعراء العباسيين — بعد مروان — منصور بن سلسة النري ، وقد فصل فيه وأفاض ، ورد على العلويين دعواهم أنهم أبناء الرسول فقال :

ألا لله در بني علي ودر من مقاتلهم كثير
يسمون النبي أبا ويأبى من الأحزاب سطر بل سطور

وهو يشير بذلك الى قوله تعالى في سورة الأحزاب : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ، وكان الله بكل شيء علياً . »

وقد أنشد منصور النري الرشيد قصيدته التي يقول في أولها :

(٩) ليس في سورة الانعام ما يشير اليه من هذا المعنى بل ليس فيها أي حكم من أحكام الميراث .
(١٠) الشعر والشعراء ص ٢٩٦ .

ما تنقضي حسرة مني ولا جزع اذا ذكرت شباباً ليس يرتجع
ما كنت أوفي شبابي كنه غرته حتى انقضى فاذا الدنيا له تبع

فتحدث فيها الرشيد فناده بأنه ابن الأئمة والأوصياء ، وأن الخلافة ميراث جده العباس ولولا أبو بكر وعمر لما نالها بنو أمية فتحلبوا خيراتها وتمتعوا بثمراتها وأنه ليس لآل علي مطمع في هذا الارث لأن العم أولى بميراث الرسول من ابن العم :

يا ابن الأئمة من بعد النبي ويا اب
ان الخلافة كانت إرث والدكم
لولا عدي وتيم لم تكن وصلت
وما لآل علي في امارتكم
يا أيها الناس لاتعذب حلومكم
العم أولى من ابن العم فاستمعوا
ن الأوصياء أقر الناس أو دفعوا
من دون تيم وغفو الله متسع
الى أمية تمرىها وترتضع
وما لهم أبداً في ارثكم طمع
ولا تضفكم الى أكنافها البدع
قول النصيحة ان الحق مستمع

ويبدو ان هذا المعنى كان قريباً الى نفوس الخلفاء يودون ان يسمعه
من الشعراء في كل مناسبة • وكانوا يأنسون الى سماعه ويرضون بعد
السخن إذا استمعوا اليه • روى المسعودي أن الهيثم بن عدي قال : « كنت
في مجلس المهدي فأتاه الحاجب فقال : « ابن أبي حفصة بالباب » فقال :
« لا تأذن له فانه منافق كذاب » فكلمه الحسن بن ابي عطية فيه فأدخله •
فقال له المهدي : « يا فاسق ، ألسنت القائل في معن :

جبل تلوذ به نزار كلها صعب الذرى متمنع الأركان » •

قال : « بل أنا الذي أقول فيك يا أمير المؤمنين :

يا ابن الذي ورث النبي محمداً دون الأقارب من ذوي الأرحام » •

وانشده الايات كلها فرضي عنه واجازته (١١) .

وكان هذا المعنى أيضاً مفتاح الوصول الى الخلفاء والحظوة لديهم
فلذلك تداوله الشعراء وأفاضوا فيه رغبة منهم أن يقع شعرهم من الخلفاء
في أحسن موقع فيصلوهم ويحظوا عندهم .

وقد عاتب أبان بن عبد الحميد البرامكة على تركهم إيصاله الى الرشيد
وإيصال مديحه اليه . فقالوا له : « وما تريد من ذلك ؟ » . فقال : « أريد
أن أحظى منه بمثل ما يحظى به مروان بن أبي حفصة » . فقال الفضل : ان
لذلك مذهباً في هجاء آل أبي طالب وذمهم ، به يحظى وعليه يعطى ، فاسلكه
حتى تفعل » قال : « لأستحل ذلك » . فقال أبان :

أعم بما قد قلته العجم والعرب	نشدت بحق الله من كان مسلماً
لديه أم ابن العم في رتبة النسب	أعم رسول الله أقرب زلفة
ومن ذال له حق التراث بما وجب	وأيهما أولى به وبعهد
وكان علي بعد ذاك على سبب	فان كان عباس أحق بنسلكم
كما العم لابن العم في الارث قد حجب	فأبناء عباس هم يرثونه

فقال الفضل : « ما يرد على امير المؤمنين أعجب من أياتك » . فركب
فأنشدها الرشيد بعد ذلك وخص به . (١٢)

ولقد كان لتسك خلفاء بني العباس بهذا الحق الشرعي وحرصهم عليه
وعلى ان تصطبغ خلافتهم بصبغة الدين أن صار الشعراء يحلونهم في شعورهم
محل التقديس ويشنون عليهم بصفات التقوى وحماية الدين والحفاظ عليه ،

(١١) الاغاني ج ٢٠ ص ٧٥ - ٧٦ . وليلاحظ ان مروان كان صنيعة لمعن بن

زائدة وهو يمثل جانب امراء العرب المنافسين للاعاجم .

(١٢) الاغاني ج ٢٠ ص ٧٥ - ٧٦ .

وأنهم يستمدون سلطانهم من الله ويحكمون بأمره ويتركون الهوى ويتبعون
سبيل الحق . وفي ذلك يقول مروان بن أبي حفصة من قصيدة يمدح بها
المهدي :

هو المرء : اما دينه فهو مانع صؤون ، وأما ماله فهو باذله
أمرٌ وأحلى ما بلا الناس طعمه : عقاب أمير المؤمنين ونائله
أبي لما يأبى ذوو الحزم والتقى ، فعول إذا ما جد بالأمر فاعله
ترؤك الهوى لا السخط منه ولا الرضا لدى موطن إلا على الحق حامله
يرى أن أمر الحق أحلى مغبة وأنجى ولو كانت زعافاً مناهله
فان طليق الله من هو مطلق وإن قتيل الله من هو قاتله
وإنك بعد الله للحكم الذي تصاب به من كل حق مفاصله
ويقول في مدحه أيضاً :

أحيا أمير المؤمنين محمد سنن النبي حرامها وحلالها
ويقول في مدح بني العباس :

أيادي بني العباس بيض سوابغ على كل قوم ناديات عوائد
وهم يعدلون السمك من قبة الهدى كما تعدل البيت الحرام القواعد
سواعد عز المسلمين وإنما تنوء بصولات الأكف السواعد

بل لقد أسرف بعض الشعراء في هذا المعنى فجعلوا الخليفة في شعرهم
ظل الله على الأرض لا تقبل الأعمال عند الله الا برضاه فاذا سخط على امرئ
فليس ينتفع بصلواته الخمس ، وان ارادته من ارادة الله فاذا رفع امرئ فان
الله يرفعه واذا وضع أحداً وضعه الله .

وفي ذلك يقول منصور النمري في قصيدته التي مر ذكرها من قبل وهو

يعني هرون الرشيد :

أي امرئ بات من هرون في سخط فليس بالصلوات الخمس يتمتع
ان المكارم والمعروف أودية أحلك الله منها حيث تتسع
إذا رفعت امرءاً فالله يرفعه ومن وضعت من الأقوام متضع

وفي مثل هذا المعنى أيضاً يقول أبو العتاهية في قصيدة يمدح بها
المهدي أولها :

ألا ما لسيدتي ما لها أدلا فأحمل ادلالها
حتى يقول :

أتته الخلافة منقادة إليه تجرر أذيالها
ولم تك تصلح الا له ولم يك يصلح الا لها
ولو رامها أحد غيره لزلزلت الارض زلزالها
ولو لم تطعه بنات القلوب لما قبل الله أعمالها

ويقول كلثوم بن عمرو العتابي في مدح الرشيد :

ماذا عسى ماح يثني عليك وقد ناداك في الوحي تقديس وتطهير^(١٣)

تلك هي أهم المعاني التي كان يلهج بها من الشعراء من تتمثل فيهم
وجهة التأييد للدولة العباسية ، وهي في جملة معان جديدة على الشعر
العربي لم يكن يعرفها في مدح الخلفاء وفي تأييد سلطانهم • بل لم تكن
الحياة الإسلامية قبل العباسيين تعرف في الخلافة أنها حق مقدس موروث
وأن للخليفة دون الناس مقاماً يعلو على مقاماتهم فالخلفاء الراشدون وهم

(١٣) يشير بذلك الى قوله تعالى (سورة الاحزاب) انما يريد الله ليذهب
عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا » .

السابقون الأولون إنما كانوا يلون الخلافة برضا جمهور المسلمين وبيعتهم، وما كان أحد منهم يدل على الناس بأنه ظل الله على الأرض ولا كان أحد من الناس يخاطبهم بمثل ما مر بنا من اقوال الشعراء في خلفاء بني العباس •

ولعل في خطبة أبي بكر الصديق حين ولي الخلافة اوضح دليل واسطع برهان على ما أقول • قال يخاطب المسلمين :

« أيها الناس إني قد وليت عليكم ولست بخيركم فان رأيتموني على حق فأعينوني وإن رأيتموني على باطل فسدّدوني ، أطيعوني ما اطعت الله فيكم فان عصيته فلا طاعة لي عليكم » •
وهكذا كان عمر وعثمان وعلي •

أما الامويون فقد أحالوا الخلافة ملكاً واصبحوا يمدحون بما تمدح به الملوك من شدة البأس والحلم عند الغضب وأنهم معدن الملوك فلا تصلح إلا عليهم العرب • وأصبح عبدالملك بن مروان يوصف بأتلاق التاج على مفرقه وبالوقار والحجب تحوطه وتحيط به • نذكر من قوله ابن قيس الرقيات فيه :

ما تقموا من بني أمية إلا	أنهم يحلمون إن غضبوا
وأنهم معدن الملوك فلا	تصلح إلا عليهم العرب
ان الفنيق الذي أبوه أبو الع	عاصي عليه الوقار والحجب
يأتلق التاج فوق مفرقه	على جبين كأنه الذهب

ولعل بني العباس أرادوا أن يتمثلوا في خلافتهم بعد الذي قاسوه من الحرمان قرناً أو بعض قرن من الزمان بقوله تعالى « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض فنجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين » • فقد كانت دعوتهم ودعوة أبناء عمهم العلويين تلوذ بسند من الدين ، وكان

مذهبهم في الامامة والخلافة جزءاً من عقيدتهم الدينية ، فكأنهم وجدوا أن مركز خلافتهم يجب أن يقوم على عقيدة تشد أزره وتأخذ بناصره فكان شعراؤهم على العموم يعنون باستنباط معانيهم من آي القرآن الكريم مثل مروان بن أبي حفصة ومنصور بن سلمة النمري وأبي العتاهية وغيرهم ممن سلفت الإشارة الى معانيهم والكلام على شعرهم في تأييد بني العباس .

٢ - العلوية

أما المعارضة فكان المنتظر أن تتمثل في العلويين وفي شيعتهم ، أولئك الذين كانوا يرون الامامة والخلافة في علي وفي أبنائه من بعده ، على اعتبار أنهم أحق الناس بآرث الرسول وأنهم هم الذين يستحقون أن يخلفوه في أمر المسلمين .

وقد سبق ان اشرنا الى انهم يرون امامة المسلمين وخلافتهم نصاً ورد في حديث الغدير وفي قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي : « أنت مني بمنزلة هرون من موسى » ، وقد كان هرون خليفة موسى في قومه . قال تعالى « وقال موسى لأخيه هرون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين » .

وقد كان شعراء العلويين في أيام بني امية يؤكدون هذا المعنى في أشعارهم ويفيضون فيه ولاسيما شاعر بني هاشم الكميث بن زيد الاسدي الذي يقول :

يقولون لم يورث ولولا تراثه لقد شركت فيه بكيل وأرحب
ولاتشلت عضوين منها يحابر وكان لعبدالقيس عضو مؤرب
فان هي لم تصلح لحي سواهم فان ذوي القربى أحق وأقرب
وقد مر بنا أن الدعوة العباسية كانت في أول امرها هاشمية تدعو

للرضا من آل محمد ، وافق فيها العباسيون والعلويون على محاربة عدو مشترك فاجتمعت جهودهم واتحد غرضهم . وكان العلويون في اول امر الدعوة على اتفاق كامل مع ابناء عمهم العباسيين فكان شعراء العلويين يذكرون العباس في شعرهم بالثناء والاطراء ويجعلونه صنو النبي صلى الله عليه وسلم ويذكرون ابنه عبدالله والفضل بمثل ذلك الثناء .

يقول الكمي في بائته التي مر ذكرها :

ولن أعزل العباس صنو نبينا وصنوانه ممن أعد وأندب
ولا ابنه عبدالله والفضل اتني جنب يحب الهاشميين مصحب

والمعروف عن الشيعة الكيسانية انها لا ترى الامامة في ولد فاطمة رضي الله عنها وانما تراها في محمد بن الحنفية بعد علي ، وأن محمداً أوصى بها الى ابنه أبي هاشم وأن أبا هاشم أوصى الى علي بن عبدالله بن العباس وأن علياً أوصى الى ابنه محمد وأن محمداً أوصى الى ابنه ابراهيم قتيل الحميمة وأن ابراهيم الامام أوصى الى أخيه أبي العباس عبدالله بن محمد الذي عرف فيما بعد بالسفاح اول خلفاء بني العباس .

وبهذا اصبح طائفة من الشيعة العلويين عوناً لبني العباس يرون أنهم ورثة الخلافة بالارث وبالنص في الوقت نفسه ، وكان قيام الدولة العباسية في نظر هؤلاء رجوع الحق الى اهله وعودة ميراث الرسول صلى الله عليه وسلم الى ورثته واهل الحق فيه .

وهذا يلاحظ في شعر شاعر العلويين وداعيتهم ولسانهم الناطق وهو السيد الحميري ، فقد كان يجاهر بتأييد بني العباس ويعان أن خلافتهم وضع للحق في نصابه وان الخلافة باقية فيهم الى ان يسلموها الى مهدي الاممة المنتظر وهو محمد بن الحنفية الذي يهبط عليه عيسى .

من ذلك ما يروى أنه لما استقام الامر لبني العباس قام السيد الحميري الى أبي العباس السفاح حين نزل عن المنبر فقال له :

دونكموها يا بني هاشم	فجددوا من عهدها الدارسا
دونكموها لا علا كعب من	كان عليكم ملكها فافسا
دونكموها فالبسوا تاجها	لا تعدموا منكم له لابساً
لو خيّر المنبر فرسانه	ما اختار الا منكم فارساً
قد ساسها من قبلكم ساسة	لم يتركوا رطباً ولا يابساً
ولست من أن تملكوها الى	مهبط عيسى فيكم آيساً

فسر أبو العباس بذلك وقال له : «أحسنت يا إسماعيل سلمي حاجتك» قال : «تولي سليمان بن حبيب الاهواز» ففعل (١٤) .

وكان على علاقة حسنة بالخلفاء يصلهم ويصلونه ويمدحهم ويدل عليهم بانقطاعه الى بني هاشم . وكان لمذهبه أثره في تلك العلاقة الوثيقة ، فالمعروف أنه كان كيسانياً^(١٥) يعتقد أن خلافة العباسيين حق مشروع ورثوه بالوصاية والنص عن محمد بن الحنفية عن علي بن أبي طالب .

وفي شعره مما يدل على ذلك كثير ، فقد دخل على المهدي لما بايع لابنيه موسى وهرون فأنشأ يقول :

ما بال مجرى دمعك الساجم	أمن قذى بات بها لازم
أم من هوى أنت له ساهر	صباية من قلبك الهائم
آليت لا أمدح ذا نائل	من معشر غير بني هاشم
أوليتهم عندي يد المصطفى	ذي الفضل والمن أبي القاسم

(١٤) الإغاني ج ٧ ص ٦ - ٧ .

(١٥) نفسه ص ٣ .

فانها يبضاء محمودة	جزاؤها الشكر على العالم
جزاؤها حفظ أبي جعفر	خليفة الرحمن والقائم
وطاعة المهدي ثم ابنه	موسى على ذي الاربعة الحازم
وللرشيد الرابع المرتضى	مفترض من حقه اللازم
ملكهم خمسون معدودة	برغم أنف الحاسد الراغم
ليس علينا ما بقوا غيرهم	في هذه الأمة من حاكم
حتى يردوها الى هابط	عليه عيسى منهم ناجم

وكان بعض هؤلاء الشعراء قد وجدوا لدى خلافة بني العباس المجال ليشفوا ما في صدورهم من الخلفاء الراشدين ، ويبدو ان بعض الخلفاء كانوا يجارونهم في ذلك ويقبلونه منهم ، بل أصبح بعض الشعراء العلويين يثيرون في خلفاء بني العباس التعصب لبني هاشم على سواهم من بطون قريش كبني تيم بن مرة رهط أبي بكر الصديق وبني عدي رهط عمر بن الخطاب ويحرضونهم عاج حرماتهم من اعطياتهم •

جاء في كتاب الاغانى : -

« جلس المهدي يوماً يعطي قريشاً صلات لهم وهو ولي عهد ، فبدأ ببني هاشم ثم بسائر قريش فجاء السيد فرفع الى الربيع رقعة مختومة وقال : « ان فيها نصيحة الامير فأوصلها اليه » • فأوصلها فاذا فيها :

قل لابن عباس سمي محمد	لا تعطين بني عدي درهما
احرم بني تيم بن مرة انهم	شر البرية آخرأ ومقدما
ان تعظم لا يشكروا لك نعمة	ويكافؤوك بأن تذم وتشتما
وان ائتمنتهم او استعملتهم	خانوك واتخذوا خراجك مغنما
ولئن منعتهم لقد بدأوكم	بالمع اذ ملكوا وكانوا أظلما

منعوا تراث محمد أعمامه
وتأمرؤا من دون أن يستخلفؤا
لم (١٧) يشكروا لمحمد انعامه
ولله منّ عليهم بمحمد
ثم انبرؤا لوصيه ووليه
وبنيه وابنته عديلة مريما (١٦)
وكفى بما فعلؤا هنالك مأثما
أفيشكرون لغيره ان أنعما
وهذاهم وكسا الجنوب واطعما
بالمكرات فجرعوه العلقما

قال : فرمى بها الى أبي عبيد الله وقال : « اقطع العطاء » ، فقطعه
وانصرف الناس ، ودخل السيد اليه فلما رآه ضحك وقال : « قد قبلنا
نصيحتك يا اسماعيل » (١٦) .

ومن يقرأ شعر السيد الحميري بل ما احتفظ به التاريخ من شعره يظن
أن العلاقة بين العلويين والعباسيين كانت علاقة صفاء لا يشوبها كدر ، على
أن واقع الحال لم يكن كذلك على الاطلاق فقد قامت الخصومة بين العباسيين
والعلويين منذ ايام أبي جعفر المنصور . فقد قبض أبو جعفر على عبدالله
ابن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب وجمع من اهله وظهر بعد ذلك
في المدينة ابنه محمد المعروف بالنفس الزكية ثم ظهر في البصرة ابنه الآخر
ابراهيم . فأخرج المنصور الى النفس الزكية عيسى بن موسى واتبعه محمد
ابن قحطبة في جيش كثيف فقاتلوه حتى قتل .

ولما بلغ مصرعه أخاه ابراهيم — وهو بالبصرة — صعد المنبر فنعاه
وانشد قائلا :

أبالمنازل يا خير الفوارس من
الله يعلم اني لو خشيتهم
يفجع بمثلك في الدنيا فقد فجعا
وأوجس القلب من خوف لهم فرعا

- (١٦) يشير بذلك الى حادثة فدك وهي مشهورة .
(١٧) في الأغاني ج ٧ ص ٩ (لا) ولعل (لم) هي الصواب .
(١٨) الأغاني ج ٧ ص ٨ — ٩ .

لم يقتلوه ولم أسلم أخني لهم حتى نموت جميعا أو نعيش معا

وقد خرج مع ابراهيم بن عبدالله عيسى بن زيد بن الحسن بن علي بن الحسين واتبعهما أهل فارس والاهواز في عساكر كثيرة من الزيدية وجماعة من المعتزلة فسير أبو جعفر اليهم عيسى بن موسى وسعيد بن مسلم فحارب حتى قتل في الموضع المعروف بباخري وذلك على ستة عشر فرسخا من الكوفة . وفي ذلك يقول دعل شاعر العلويين يذكر قتلاهم :

قبور بكوفان وأخرى بطيبة وأخرى يفخ ما لها صلوات
وأخرى بارض الجوزجان محلها وقبر بباخري لدى القربات (١٩)

ولقد اصاب العلويين من المنصور ألوان من العذاب والاذى والحبس والقتل . (٢٠) وفي أيام المهدي خرج الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن ابن علي ومعه جماعة من أهل بيته فسير اليه جيشاً حتى قتل في الموضع المعروف بفخ بين مكة والمدينة . وفيه يقول بعض الشعراء :

فلأبكين على الحسين من بعولة وعلى الحسن
وعلى ابن عاتكة الذي أئووه ليس له كفن
تركوا بفخ غداة في غير منزلة الوطن
كانوا كراماً قتلوا لا طائشين ولا جبن
غسلوا المذلة عنهم غسل الثياب من الدرن
هدي العباد بجدهم فلمهم على الناس المنن (٢١)

وفي أيام هرون الرشيد خرج يحيى بن عبدالله أخو محمد النفس

(١٩) يراجع في ذلك مروج الذهب ج ٣ ص ٢٢١ - ٢٢٣ .

(٢٠) نفسه ص ٢٢٤ - ٢٢٥ .

(٢١) مروج الذهب ج ٣ ص ٢٤٨ - ٢٤٩ .

الزكية فقتل (٢٢) ومات موسى بن محمد بن علي بن الحسين مسموماً (٢٣) .
وهكذا لقي العلويون من بني العباس أكثر واشد مما لقوا من بني
أمية حتى قال شاعرهم في ذلك :

أرى أمية معذورين ان ظلموا ولا أرى لبني العباس من عذر

وحتى ترحموا على أيام الامويين من شدة ما اصابهم على ايدي ابناء
العمومة من بني العباس .

وإذا اردنا ان نتبين أهم المعاني والافكار التي كان يتداولها شعراء
العلويين وجدناها تكاد تنحصر في ثلاثة معانٍ كبرى هي :

اولا - مدح علي وبيان حقه في الخلافة والتحامل على الذين غصبوه
هذا الحق واستأثروا بميراث الرسول دونه .

ثانيا - رثاء آل البيت ومن اصاب منهم بأذى العباسيين وتقتيلهم
وتشريدهم .

ثالثا - هجاء الخلفاء من بني العباس ورجال دولتهم .

أما الفكرة الاولى فيحمل لواءها السيد الحميري الذي سبق ان عرضنا
له ولوثق صلته ببني العباس وخلو شعره من التفجع والتوجع على ما اصاب
العلويين من نكبات . ولعل مذهبه الكيساني هو الذي جعله يقف من الخلفاء
العباسيين هذا الموقف وقد سبق ان ألمنا بما تذهب اليه الكيسانية
في الخلافة .

وكان السيد الحميري لا يفتر عن سب بعض الصحابة والخلفاء ويكني

(٢٢) نفسه ص ٢٦٢ .

(٢٣) نفسه ص ٢٧٣ .

عنهما في شعره بتم وعدي ، ومن اجل ذلك ضاع كثير من شعره مما لم يستحل الرواة او بعضهم الابقاء عليه والاحتفاظ به . وكان يجاهر برفضه ولا يصطنع فيه تقية ، يعينه على ذلك رضا السلطان واصطناعه اياه في تأييد الخلافة .

من ذلك ما يرويهِ ابو الفرج عن عبدالله بن ابي بكر العتكي ان ابا الخلال العتكي دخل على عقبة بن سلم^(٢٤) والسيد عنده وقد امر لسه بجائزة ، وكان ابو الخلال شيخ العشيرة وكبيرها فقال له : « ايها الامير اتعطي هذه العطايا رجلاً ما يفتقر عن سب ابي بكر وعمر ؟ » فقال له عقبة : « ما علمت ذاك ولا اعطيته الا على العشرة والمودة القديمة وما يوجه حقه وجواره ، مع ما هو عليه من موالاته قوم يلزمنا حقهم ورعايتهم » . فقال له ابو الخلال : « فمره ان كان صادقاً ان يمدح أبا بكر وعمر حتى نعرف براءته مما ينسب اليه من الرفض » فقال : « قد سمعتك فان شاء فعل » فقال السيد :

اذا أنا لم أحفظ وصاة محمد	ولا عهده يوم الغدير المؤكدا
فاني كمن يشري الضلالة بالهدى	تنصر من بعد النقي أو تهوّدَا
وما لي وتيم أو عدي وانما	أولو نعمتي في الله من آل أحمدَا
تم صلاتي بالصلاة عليهم	وليست صلاتي بعد أن أتشهدَا
بكاملة ان لم أصل عليهم	وأدع لهم ربّاً كريماً ممجدا
بذلت لهم ودي ونصحي ونصرتي	مدى الدهر ما سميت يا صاح سيدَا
وان امراً يلحى على صدق ودهم	أحق وأولى فيهم أن ينفدا

(٢٤) في الاغانى عقبة بن سالم . والمعروف عقبة بن سلم احد القواد العباسيين وفيه يقول بشار :

حرم الله ان ترى كابن سلم عقبة الخير مطعم الفقراء

فان شئت فاختر عاجل الغم ضلة وإلا فأمسك كي تصان وتحمدا (٢٥)

وكان بين السيد الحميري وبين سوار بن عبدالله قاضي البصرة ملاحاة ومخاصمة . فلم يجد ما يهجو به الا انه عثمانى من انصار عائشة ، واتخذ من ذلك ذريعته لتحريض أبي جعفر المنصور عليه فقال :

يا أمين الله يا منصـ	سور يا خير الولاة
ان سوار بن عبد	الله من شر القضاة
نعثلي (٢٦) جملي (٢٧)	لكم غير موات

فشكاه سوار الى ابي جعفر المنصور فأمره أن يصير اليه معذراً ففعل فلم يعذره فقال يهجوهُ :

أتيت دعي بني العنبر	أروم اعتذاراً فلم يعذر
فقلت لنفسى وعاتبتهـ	على اللؤم في فعلها أقصري
أيعتذر الحر مما أتى	الى رجل من بني العنبر
أبوك ابن سارق عز النبي	وأمك بنت ابي جحدر
ونحن على رغمك الرافضون	لأهل الضلالة والمنكر (٢٨)

وهكذا كان السيد الحميري لا يفتأ يجاهر بالرفض ويعلن انه لا يوالي الا علياً وآل بيت النبي ولا يوالي بغيرهم .

واما الفكرة الثانية ، فكرة التفجع على العلويين والتوجع لما أصابهم ، فاننا نجدها عند شاعرين هما منصور بن سلمة النمري ودعبل بن علي الخزاعي . أما منصور النمري فقد سبق أن ألمنا بعلاقته بالعباسيين وبهرون

(٢٥) الاغاني ج ٧ ص ١٦ - ١٧ .

(٢٦) نعثلي يعني عثمانى .

(٢٧) يعني انه من انصار عائشة في وقعة الجمل .

(٢٨) الاغاني ج ٧ ص ١٦ .

الرشيذ منهم خاصة ، وبدفاعه عن مذهبهف في الخلافة والحملة على العلويين
فيما يدعون من حقهم في الخلافة ، وهو القائل يخاطب هرون الرشيد :

يد لك في رقاب بني علي وممن ليس بالبن اليسير
فان شكروا فقد أنعمت فيهم والا فالندامة للكفور

وكان منصور النمري يتظاهر بالميل الى العباسيين ويطن الولاء للعلويين
وكان يصطنع التقية في شعره وينافق الرشيد ويذكر هرون في شعره ومراده
بذلك علي بن أبي طالب لقول النبي صلى الله عليه وسلم لعلي : « أنت
مني بمنزلة هرون من موسى » وفي ذلك يقول منصور النمري :

آل الرسول خيار الناس كلهم وخير آل رسول الله هرون
رضيت حكمك لا أبغي به بدلا لأن حكمك بالتوفيق مقرون (٢٩)

ولنصور في التفجع على العلويين ورتاء قتلاهم شعر كبير ، منه
قصيده التي يقول فيها :

يعللون النفوس بالباطل	شاء من الناس راتع هامل
جون جان الخلود للقاتل	تقتل ذرية النبي وير
نؤت بحمل ينوء بالحامل	ويلك يا قاتل الحسين لقد
خفرتة من حرارة الثاكل	أي جباء جبوت أحمد في
دخلت في قتله مع الداخل	بأي وجه تلقى النبي وقد
أولا فردّه حوضه مع الناهل	هلم فاطلب غدا شفاعته
وانما الشك في الخاذل (٣٠)	ما الشك عندي في حال قاتله

(٢٩) أمالي المرتضى ج ٣ ص ١٨٦ - ١٨٧ .

(٣٠) هكذا في الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٣٨٥ . وقد رواه الشريف
المرتضى في أماليه هكذا :

ما الشك عندي في كفر قاتله لكنني قد اشك في الخاذل
(ج ٣ ص ١٨٨)

وكان الشاعر الآخر وهو دعل بن علي صريحا لا يوارب ولا يظهر
غير ما يبطن وكان ابرز من رثى آل البيت وتحدث في شعره عن مصارعهم
وتألم لما اصابهم • وهو الذي أنشد علي بن موسى الرضا مرثيته التي أولها :

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحي مقعر العرصات

وفيهما يقول :

فأل رسول الله نحف جسومهم وآل زياد حفّل القصرات
بنات زياد في القصور مصونة وآل رسول الله في الفلوات

وقد ذكر فيها من قتل من العلويين بأيدي العباسيين كمحمد النفس
الزكية وأخويه ابراهيم ويحيى وغيرهم • فيقول :

قبور بكوفان وأخرى بطيبة وأخرى بفخ ما لها صلوات
وأخرى بأرض الجوزجان محلها وقبر بياخمري لدى القربات

ولدعل شعر في رثاء الحسين بن علي منه قوله :

رأس ابن بنت محمد ووصيه يا للرجال على قناة ترفع
والمسلمون بمنظر وبسمع لا جازع من ذا ولا متخشع
أيقظت أجفانا وكنت لها كرى وأنمت عينا لم تكن بك تهجع

وقد بلغ من قسوة العباسيين على العلويين أن كان من يجرؤ على
مدحهم أو رثائهم من الشعراء يتعرض للنقمة الشديدة من قبل الخلفاء ،
وهذا ابن هرمة يقول مرة في مدح آل الرسول :

ومهما ألام على جهم فاني أحب بني فاطمة
بني بنت من جاء بالمحكما ت والدين والسنة القائم

فاذا سئل بعد ذلك من قائلها أنكر أنه قالها وشتم قائلها • وقد انكر عليه ابنه أن سب نفسه لانه كان يعلم أنه قائل البيتين فقال له : « ان ذلك خير للمرء من ان يأخذه ابن قحطبة (٣١) » •

اما هجاء بني العباس فقد سلك سبيله من شعراء العلويين دعل بن علي ابن رزين الخزاعي الذي لم يكذب يسلم من لسانه احد من الخلفاء او رجال السلطان • وقد هجا هرون الرشيد والمأمون والمعتصم وابراهيم بن المهدي، وكان يتخذ من هجاء هؤلاء الخصوم وسيلته لمدح اوليائه من آل البيت في بعض الاحيان • من ذلك ابياته التي هجا بها هرون الرشيد بعد موته ورثي بها علي بن موسى الرضا • وفيها نعى على العباسيين ما فعلوا بآل علي وهم اولو قرباهم وابناء عمهم ، وانهم لا عذر لهم في ما اصابوا به العلويين من القتل والاذى ان كان لبني امية من عذر •

يقول فيها :

ليس حي من الاحياء نعلمه	من ذي يمان ومن بكر ومن مضر
ألا وهم شركاء في دمائهم	كما تشارك أيسار على جزر
قتل وأسر وتحريق ومنهبة	فعل الغزاة بأرض الروم والخزر
أرى أمية معذورين ان قتلوا	ولا أرى لبني العباس من عذر
أربع بطوس على القبر الزكي اذا	ما كنت تربع من دير على وطر
قبران في طوس خير الناس كلهم	وقبر شرهم هذا من العبر
ما ينفع الرجس من قبر الزكي ولا	على الزكي بقرب الرجس من ضرر
هيئات كل امرئ رهن بما كسبت	له يداه فخذ ماشئت أو فذر (٣٢)

وقد هجا دعل بعد ذلك ابراهيم بن المهدي لما تولى الخلافة في بغداد في غيبة المأمون فأوجعه وأمره ، فمن ذلك قوله :

(٣١) الاغانى ج ٤ ص ١٠٩ - ١١٠ .

ان كان ابراهيم مضطلعا بها
ولتصلحن من بعد ذاك لزلزل
أنى يكون ولا يكون ولم يكن
فلتصلحن من بعده لمخارق
ولتصلحن من بعده للمارق
لينال ذلك فاسق عن فاسق (٣٣)

وقد هجا دعبل المعتصم ايضا فأمضه واوجعه ومما قال فيه :

بكى لشتات الدين مكثب صب
وقام إمام لم يكن ذا هداية
وما كانت الأنباء تأتي بمثله
ولكن كما قال الذين تتابعوا
ملوك بني العباس في الكتب سبعة
واني لأعلي كلبهم عنك رفعة
وفاض بفرط الدمع من عينه غرب
فليس له دين وليس له لب
يملك يوما أو تدين له العرب
من السلف الماضين اذ عظم الخطب
خيار اذا عدوا وثامنهم كلب
لأنك ذو ذنب وليس له ذنب

ويبدو انه لم يسلم من هجائه الا المأمون في وقت ما ، لانه كان علويا
في بعض زمنه ، فجعل ولاية عهده لعلي بن موسى الرضا ، وعدل عن السواد
وكان يجاهر بتفضيل علي بن ابي طالب ولا ينتقص من سواه من
السلف (٣٤) . على ان لدعبل في المأمون شعرا يشبه ان يكون لوما وتقريبا
ولا يبلغ مبلغ الهجاء . ذلك قوله بعد ان بلغه وعيد المأمون :

ويسومني المأمون خطة عارف أو ما رأى بالأمس رأس محمد

(٣٢) ذكر من روى خبر دعبل مع الرشيد في الاغاني ان الرشيد كان محسنا
اليه وان دعبلا غدر به بعد وفاته قال : « والله ما بلغه ان الرشيد مات
حتى هجاه في قصيدة مدح بها أهل البيت » وذكر الابيات . وهذا
يخالف منطق الحوادث فقد مات علي بن موسى الرضا - وهو مرثي
في هذه الابيات - في خلافة المأمون فلا بد ان دعبلا قال هذا الشعر
في ايام المأمون او بعدها ، وذكر الرشيد بالذم في سياق الرثاء .
يراجع الاغاني ج ١٨ ص ٤٤ وما بعدها .

(٣٣) كان المأمون يقول لابراهيم اذا دخل عليه : لقد اوجعك دعبل حيث يقول
... ويذكر الابيات السالفة . تاريخ بغداد لطيفور ج ٦ ص ٢٩٧ .

توفي على هام الخلائق مثلما توفي الجبال على رؤوس القرد
اني من القبوم الذين سيوفهم قتلت أخاك وشرفوك بمقعد
ان الترات مسهد طلابها فاكف لعابك عن لعاب الأسود

ويمكن القول - على الاجمال - ان شعر المعارضة العلوية لم يكن بالقوة التي كان عليها ايام بني امية بل ضعف في هذا العصر العباسي وهبطت قيمته ، ولذلك اسباب ألم البحث ببعضها في الكلام على شعر المؤيدين للخلافة العباسية . ولعل من تلك الأسباب أيضا ما يأتي :

أولا - أن حجة القربى من الرسول كانت نصيبا مشتركا بين العلويين والعباسيين أصحاب الدولة القائمة ولهذا كانت الحجة أقوى عند شعراء العباسيين وأكثر تفصيلا ، بل لقد زاد فيها العباسيون أن دعوا أنهم هم الوارثون حقا لامامة المسلمين ، وخلافة الرسول فيهم لأنهم أبناء عم والعلويون أبناء بنت وبنو العم أولى . على أن العلويين قد ردوا على هذا المعنى الذي قاله مروان بن ابي حفصة :

أنى يكون وليس ذاك بكائن لبني البنات وراثـة الأعمام

قال احد شعراء العلويين وهو محمد بن يحيى بن ابي مرة التغلبي :

لم لا يكون وإن ذاك لكائن لبني البنات وراثـة الأعمام
للبنـت نصف كامل من ماله والعم متروك بغير سهام
ما للطليق وللتراث وانما صلى الطليق مخافة الصمصام

ثانياً - كان خلفاء بني العباس يجتذبون اليهم الشعراء بالأموال والصنائع فكان هذا يجذب اليهم بعض المعروفين بولاء العلويين من الشعراء كمنصور بن سلمة النمري الذي رأيناه يمدح العباسيين ويؤيدهم ويرد على

العلويين وينقص مذهبهم ويبطن الولاء للعلويين ويصطنع التقية .

ثالثاً - ولعل قسوة بني العباس على معارضيتهم وشدة بأسهم أخافت الشعراء فصاروا اذا قالوا في آل علي شعراً أسروه وتستروا عليه مخالفة البطش والتنكيل كما مر بنا في خبر ابن هرمة وبيتيه . وكما غضب الرشيد لما سمع أن منصور بن سلمة النمري قد رثى أهل البيت وانشد بعد موت منصور قوله في تلك الأبيات :

شاء من الناس راتع هامل يعلون النفوس بالباطل

وما بعدها وقد مرت روايتها . فقال الرشيد : « لقد همت ان انبشه ثم احرقه » (٣٥) .

لذلك ولغيره من الاسباب ضعف شعر المعارضة العلوية ولم يعد له شأنه ايام بني امية يوم خرج الكميث بهاشمياته فأحدث حدثاً خطيراً في الشعر السياسي .

٣ - الاموية

اما الحزب الاموي فقد لقي من العباسيين بطبيعة الحال فكالا عظيماً حتى كاد ينفى وتندرس معالمه ، ولم يبق من رجاله من يعتد به او لم يعد التاريخ يذكر من رجال هذا الحزب ذا شأن في الحياة العامة . وقد حاول الخلفاء ان يستأصلوا شأفة القوم فلم يبقوا منهم على اثر يبين . وقصة أبي العباس السفاح لما انشده سديف قوله في بني امية وهم مجتمعون في حضرته :

لا يغرنك ما ترى من رجال
ان تحت الضلوع داء دويما
فضع السيف وارفع السوط حتى
لا ترى فوق ظهرها امويما

(٣٥) الشعر والشعراء ص ٢٥٨ .

هذه القصة معروفة مشهورة •

وقد تحول كثير من شعراء الأمويين بولائهم الى السلطة القائمة ،
سلطة العباسيين وأصبحوا من شعرائهم الذين محضوهم الولاء وانصرفوا
الى مدحهم وتأييد دولتهم كمروان بن أبي حفصة الذي كان من موالي
الأمويين ومن شعرائهم المنقطعين اليهم • وتلك سنة طبيعية أن يكون الناس
مع السلطة القائمة •

وقد ألمنا فيما سبق من البحث بموقف العباسيين من ابناء عمهم العلويين
وذلك يكفي لتصور موقفهم من أعدائهم الأمويين الذين حرموهم مما كانوا
يطمحون اليه قرناً أو بعض قرن من الزمان •

ومن أجل ذلك لانكاد نجد بين الشعراء من حافظ على ولائه للأمويين
وجهر به الا النزر اليسير •

من هؤلاء أبو العباس الأعمى الذي بقي وفياً لمروان بن محمد آخر
ال خلفاء الأمويين • وله في ذلك خبر مع أبي جعفر المنصور رواه المسعودي
فقال : « حدث علي بن محمد المدائني أن المنصور قال : صحبت رجلاً
ضرباً الى الشام ، وكان يريد مروان بن محمد في شعر قاله فيه ، قال
فسألته أن ينشدني فأنشدني :

ليت شعري أفاح رائحة المسك	ك وما ان احال بالحيث أنسي
حين غابت بنو أمية عنه	والبهايل من بني عبد شمس
خطباء على المنابر فرسا	ن عليها وقالة غير خرس
لا يعابون قائلين وان قا	لوا أصابوا ولم يقولوا بلبس
وحلوم اذا الحلوم استخفت	ووجوه مثل الدنانير ملس

قال المنصور - فوالله ما فرغ من شعره حتى ظننت ان العمى أدركني •
وكان والله ممتع الحديث حسن الصحة» •

قال : « وحجبت سنة احدى واربعين ومائة فنزلت على الحجاز في جبلي زرود أمشي لنذر كان علي . فاذا أنا بالضرير ، فأومأت الى من كان معي : تأخروا ، ودنوت منه فأخذت بيده فسلمت عليه ، فقال : من أنت ، جعلني الله فداك ، فما اثبتك معرفة ؟ » . فقلت : « رفيقك الى السلام في أيام بني أمية وأنت متوجه الى مروان » . فسلم علي وتنفس وأنشأ يقول :

آمت نساء بني أمية منهم	وبناتهم بمضيعة أيتام
نامت جدودهم وأسقط نجمهم	والنجم يسقط والجلود تنام (٣٦)
خلت المنابر والأسرة منهم	فعليلهم حتى الممات سلام

فقلت له كم كان مروان أعطاك ؟ فقال : أعناني فلا أسأل أحدا بعده .
فقلت : كم ؟ فقال : أربعة آلاف دينار وخلع وحملان . قلت : وأين ذاك ؟
قال : بالبصرة . قلت : أثبتتي معرفة ؟ فقال : أما معرفة الصحبة فقد ،
لعمري ، وأما معرفة النسب فلا . فقلت : أنا أبو جعفر المنصور أمير المؤمنين .
فوقع عليه الاتكاء وقال : يا أمير المؤمنين أعذر فان ابن عمك محمداً صلى
الله عليه وسلم قال : « جبلت النفوس على حب من أحسن اليها وبغض من
أساء اليها » . قال أبو جعفر : فهمت والله به ثم تذكرت الحرمة والصحبة
فقلت للمسيب : أطلقه ، ثم بدا لي في مسامرته رأي فأمرت بطلبه فكأن
البيداء أبادته (٣٧) .

وممن ذكر بني أمية في شعره عرضاً أبو عطاء السندي الذي لم يحظ
عند بني العباس فقال :

فليت جور بني مروان عاد لنا وليت عدل بني العباس في النار

(٣٦) في مروج الذهب نيام وسياق البيت يقتضي ما أثبتناه والله اعلم .
(٣٧) مروج الذهب ومعادن الجوهر ج ٣ ص ٢٠٩ - ٢١٠ .

على أننا نجد في شعر بعض الشعراء بعد ذلك ذكراً موجزاً لبني أمية
في مقام النقد على الخلافة العباسية من أجل حوادث خاصة ليست لها دلالة
على ولاء أو استمساك بهم . مثال ذلك قول بشار بن برد يهجو المهدي
ووزيره يعقوب بن داود :

بني أمية هبوا طال نومكم ان الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الناي والعود

وقول البخري في أبي سعيد محمد بن يوسف الثغري وما ناله ،
وغفلة الخلافة عنه :

يا ضيعة الدنيا وضيعة أهلها والمسلمين وضيعة الاسلام
هذا ابن يوسف في يدي أعدائه يجزى على الأيام بالأيام
نامت بنو العباس عنه ولم تكن عنه أمية لو رعت بنيام

ولعل من اسباب انقراض الحزب الأموي أن الذين غلبوا على الحياة
السياسة في العصر العباسي كانوا في جملتهم خصوماً ألداء للأمويين ،
مشحونة صدورهم غيظاً عليهم ، مملوءة نفوسهم حقداً وموجدة ؛ إما بسبب
العصية القبلية التي اتخذها بنو أمية طابعاً يتميز به حكمهم إذ أنهم كانوا
يميلون الى النزارية - في الغالب - ويتعصبون على القحطانية واليمانية ،
فكان أن اعتمد العباسيون على اليمانية في تأييد دوتهم ؛ وإما بسبب غصبتهم
للعرب - على وجه العموم - وتعاليلهم على الموالي والأعاجم وحرمانهم من
مناصب الدوة والمنزلة الرفيعة فيها . فلما أفضى الأمر الى العباسيين فأحلوا
هؤلاء وأولئك في موضع التأثير من السلطان اتقموا من الأمويين
وأنصارهم فأمعنوا في الانتقام .

وقد كان يشارك العباسيين ومواليهم في النقرة على بني أمية الحزب

العلوي ، بل لعله كان من الوجهة الادبية أشد خصوم الامويين وابعدهم
أثراً في ما لقيه حزبهم وانصارهم من مصير .

٤ - ضعف الشعر السياسي واسبابه

وهكذا نلاحظ ان الشعر السياسي قد ضعف في العصر العباسي عموماً
وفي بغداد على وجه الخصوص ضعفاً بيناً ، ولم يعد له في الحياة الادبية تلك
المكانة الاولى التي كان عليها في ما سبق من العصور لعدة اسباب منها :

اولاً - ان المعين الذي يستمد منه الشعر السياسي في العادة ، وهو
الحزبية التي تتناحر وتتخاصم تأييداً ومعارضة ، قد نضب في هذا العصر
الذي نحن بصده او كاد . والمعارضة تشخذ الازهان وتفتح القرائح ، وكان
من اسباب ضعفها ما اشرنا اليه من ضعف العلويين واندثار الامويين على
وجه التقريب ، فاقصر الشعر السياسي في القرن الثاني الهجري على مدح
الخلفاء والاشادة بحقهم في الخلافة والتحدث عن ذلك الحق المقدس الذي
ورثوه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . او توجع خصوم الدولة
الموتورين ، من شيعة آل علي ، لما اصابهم من النكبات .

ثانياً - إن الحوادث السياسية الخطيرة التي تحدو بالشعراء الى قول
الشعر كانت قليلة ضئيلة الخطورة في القرن الثاني . فقد كان هذا القرن
فترة استقرار للدولة وتوطيد لدعائمه حتى إذا حدث بين الامين والمأمون ما
حدث ، وجدنا الشعر يأخذ بنصيبه في ذلك الحدث الخطير . فوقف طائفة
من الشعراء موقف الوفاء للامين ورثوه رثاء الواثق المتفجع ، وحملوا على
المأمون وتنقصوا منه . نذكر من هؤلاء على سبيل المثال الحسين بن الضحاك
نديم الامين وجليسه الذي تعرض من اجل ما رثاه به من الشعر لسخط
المأمون عليه واعراضه عنه .

روى ابو الفرج فقال : « لما قدم المأمون من خراسان وصار الى بغداد

أمر ان يسمى له قوم من اهل الادب ليجالسوه ويسامروه ، فذكر له جماعة فيهم الحسين بن الضحاك وكان من جلساء محمد المخلوع ، فقرأ اسماءهم حتى بلغ الى اسم حسين فقال :

« أليس هو الذي يقول في محمد :

هلا بقيت لسد فافتنا أبداً وكان لغيرك التلف
فلقد خلفت خلائفاً سلفوا ولسوف يعوز بعدك الخلف

لا حاجة لي فيه ، والله لا يراني الا في الطريق (٣٨) » .

والحسين بن الضحاك هو الذي يقول في رثاء محمد الامين :

«أطلْ حَزَنًا وابك الامام محمداً بحزن وان خفت الحسام المهندا
فلا تَمَتَّ الأشياء بعد محمد ولا زال شمل الملك عنها مبدا
ولا فرح المأمون بالملك بعده ولا زال في الدنيا يريد أمشردا (٣٩)»

على اننا لا نكاد نقع في شعر الشعراء على ما يصح ان نلحقه بالشعر السياسي الذي يلتزم الحزبية لحزب ذي مطلب معروف في السياسة فيدافع عنه ويهاجم خصومه ، وانما كان شعر الشعراء محض عواطف حزبية او شماتة بما حدث بين الاخوين الخليفين .

وفي ايام المعتصم وقعت حوادث سياسية ذات شأن كان منها ثورة بابك الخرمي وخروج الافشين من بعده ، ثم كان فتح عمورية وما الى ذلك من حوادث الثغور ، وكل تلك احداث جسام انطقت الشعراء بالرائع القيم من الشعر فقال ابو تمام قصيدة في الافشين واولها :

(٣٨) الاغاني ج ٦ ص ١٦٦ .

(٣٩) وقع هذا الشعر في يد المأمون فقرأه واستمع الى غناء فيه ولم يفضب من اجله . يراجع تاريخ بغداد لطيفور ص ٣٣٣ - ٣٣٤ .

الحق ابلج والسيوف عوارِ فحذارِ من اسد العرين حذارِ

وبائيته الخالدة في فتح عمورية وهي التي اولها :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

ثالثاً - ومن أهم الاسباب التي ادت الى ضعف الشعر السياسي انه اصبح لا يفي بمراد الاحزاب السياسية وفاء النشر بذلك ، وكان التقدم الذي اصابته الحياة السياسية والعقلية يستلزم اداة للتعبير اطوع واوسع حرية من الشعر ، فأصبحت رسائل الكتاب البلغاء تقوم مقام الشعر او بعض مقامه في تأييد المذاهب السياسية وفي الدفاع عنها . فصنف الجاحظ كتاباً في امامة ولد العباس احتج فيه لمذهبهم وناقش العلويين وصنف ايضا كتاب العثمانية للرد على العلويين وكتاباً آخر في امامة المروانية يؤيد امامة بني امية .

وقد نقض على الجاحظ كتبه التي مر ذكرها جماعة كأبي عيسى الوراق والحسن بن موسى النخعي ، ونقض عليه كتاب العثمانية ابو جعفر محمد بن عبدالله الاسكاف وهو من شيوخ المعتزلة البغداديين (٤٠) .

ولا وراء ان النشر هو المجال الرحب الذي يصلح لمثل هذه الاغراض لانه غير مقيد بقيود الشعر الفنية من وزن وقافية وطريقة خاصة في التعبير والتصوير ، فلا غرابة اذا رأيناه يغلب في هذا العصر على التعبير عن المذاهب السياسية والجدال فيها ويحل محل الشعر في ذلك الى مدى بعيد .

وثمة ظواهر اخرى قد تكون سياسية في مبعثها وفي غاياتها ولكن آثارها كانت على العموم اجتماعية ، ولعم تؤثر في الحياة السياسية تأثيرها الواضح القوي . من تلك الظواهر : حركة الشعوية وما كان لوزراء الفرس فيها من اثر ومن توجيه وبخاصة اسرة البرامكة .

(٤٠) مروج الذهب ج ٣ ص ١٦٧ - ١٦٨ .

ومنها ايضا العربية المناهضة للشعوبية التي قام على توجيهها وتغذيتها
وإمدادها امراء الجيوش من رجالات العرب كعمن بن زائدة الشيباني وابن
اخيه يزيد بن مزيد وابي دلف القاسم بن عيسى العجلي وحמיד بن عبد الحميد
الطومي وامثالهم .

ومنها كذلك مظاهر العصبية القبلية التي ساهم في إثارتها دعل بن علي
الخزاعي في نقضه لمذهبة الكميت وما جرى بينه وبين ابي سعد المخزومي من
المناقضة ، وما اشبه ذلك من الحوادث الجزئية التي لم تعقب آثاراً سياسية
ذات شأن . ولذلك آثرت ان اضعها في صف العوامل الاجتماعية التي هي
موضوع الفصل الاتي بعد .

الفصل الثاني

العامل الاجتماعي

من المعروف ان الدولة العباسية قامت على اساس فكرة دينية مآلها العودة بالحكم الى الاصول الاسلامية التي يحكم فيها كتاب الله وسنة الرسول ، وان تعود الخلافة الى ذوي الحق فيها وهم اهل بيت الرسول وعصبته من بني هاشم .

ولقد كانت دولة بني أمية - التي قامت الدولة العباسية على انقاضها - تؤثر العرب فيها بمناصب الدولة ، النزارية منهم واليمانية ، وتحلهم فيها محلاً يعلو على محل الموالي والاعاجم . وكان التفاخر بالانساب طابع تلك الايام يتحدث عنه الشعراء في اشعارهم وتقوم من اجل ذلك مجالس المناظرات والمفاخرات . ولو رجعنا الى شعر جرير والفرزدق والاختل لوجدناه يحفل بالتفاخر والاعتزاز بماضي الآباء والاجداد والادلال بمجد القبائل والاسر ، حتى ادى ذلك الى ان تتنازع القبائل وتتطاحن ، كل يريد ان يحتجز لنفسه اكبر نصيب من المجد ورفع الشأن ، وكانت السلطة الحاكمة ترتاح لذلك وتشجع عليه وتتخذ من القبائل انصاراً يؤيدونها او خصوصاً تناصبهم العداء ، فكان من امر العصبية بين القبائل وانحياز الخلافة الى هذا الجانب مرة وإلى ذلك مرة اخرى ، حتى كان ذلك الصراع المستمر معولاً شارك في هدم الدولة .

وكان آخر من شارك في إثارة العصبية وفي تأليب القبائل بعضها على

بعض مروان بن محمد آخر خلفاء الامويين . فكان من امر انحياز مروان الى النزارية واعتماده عليهم وإيثارهم لديه ان التمس المضطهدون المهجورون ملاذاً يركنون اليه فانحاز اليمانية والاعاجم الى صف الدعوة العباسية^(١) . وقد اختلفت الحال في دولة بني العباس ، فقد كان بنو العباس وبنو هاشم عموماً نزارية بطبيعة الحال ، وكان انصارهم واعوان دولتهم من اليمانية والاعاجم على الاكثر ، فكان من الطبيعي ان لا تظهر في دولتهم أثارة من التعصب لقوم على قوم . فالنزارية قومهم وعشيرتهم واليمانية أنصارهم والاعاجم سند دولتهم .

١ - الأعاجم في الحياة العباسية

ولقد شعر اهل خراسان في الدولة العباسية انهم قد عرف لهم بلاؤهم في قيام الدولة ونصرتهم اياها ونضالهم في سبيلها ، وجاء ذلك على لسان الخلفاء وغيرهم من وجوه بني العباس . فقال المنصور لاهل خراسان : « يا اهل خراسان أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دعوتنا . »

وأوصى أبو جعفر المنصور ابنه المهدي - قبل وفاته - خيراً بأهل خراسان فقال له : « وأوصيك بأهل خراسان خيراً فانهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم في دولتك ودماءهم دونك ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم ، أن تحسن اليهم وتتجاوز عن مسيئتهم وتكافئهم على ما كان وتخلف من مات منهم في أهله وولده . »^(١)

وقال داود بن علي لأهل الكوفة : « يا اهل الكوفة انا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقنا حتى أتاح لنا شيعتنا من أهل خراسان فأحيا بهم حقنا وأفلح بهم حجتنا وأظهر بهم دولتنا »^(٢) .

(١) اراجع في ذلك مروج الذهب ج ٣ ص ١٦٢ - ١٦٣ .
(٢) العامل السياسي في ادب العصر العباسي الاول للاستاذ احمد الشايب .

ولقد تمكن بعض الاعاجم في الدولة العباسية أن يتولوا مناصب الوزارة ويتقلدوا أهم أعمال الدولة . فكان أول من وزر للعباسيين أبو سلمة حفص بن سليمان الخلال الذي كان وزيراً لأبي العباس السفاح وهو مولى . وتولى هذا المنصب بعده جماعة من الأعاجم كان أبرزهم وألمعهم بنو برمك الذين بلغوا في عهد هرون الرشيد ما لم يبلغه في الدولة العباسية غيرهم من التسلط والتأثير في شئون الخلافة وفي أمور الحكم وفي المجتمع العباسي بوجه عام .

والذي يعنينا في هذا الباب أن الأعاجم قد دخلوا في الحياة العامة من اوسع ابوابها ، مرفوعة رؤوسهم ، ووجدوا من الخلافة والسلطان كل تيسير وتمهيد ، وكان لهم في الحياة العباسية على اختلاف مناحيها مكانهم الذي تحيفوا به على العرب في بعض الأحيان .

ولقد كان أبو جعفر المنصور — وهو المؤسس الحقيقي للدولة العباسية — يقطاً حذراً مما قد يأتي به هذا العنصر الجديد الذي دخل في حياة الدولة الاسلامية بصورة فعالة مؤثرة ، فكان في بنائه لبغداد ما يستدل على احتياظه وتحفظه مما قد يأتيه من جهة فارس من أخطار قد تهدد كيان الدولة فجعلها — كما اسلفنا في أول البحث — متصلة من الغرب ببلاد العرب منفصلة عن فارس وبلاد العجم بنهر دجلة (٣) .

وكأنه كان يدرك بوسع حيلته ما يمكن ان يبيته الفرس والاعاجم من غدر بدولته مثل أبي مسلم الخراساني الذي استطاع المنصور ان يقضي عليه قبل استفحال أمره . وفي قصة المنصور مع خالد بن برمك — لما اراد ان يهدم ايوان كسرى ليبنى بأنقاضه مدينته — ما يدل على انه لم يكن يغتر بولاء الاعاجم بل انه كان يعرف ما يساورهم من الحنين الى ماضيهم وتاريخهم البعيد .

(٣) لقد اسهنا في الكلام على اسباب بناء المنصور لبغداد في الفصل الاول .

وهكذا استطاع أبو جعفر المنصور ان يأمن ما كان يحلم به بعض هؤلاء من تحويل الخلافة الى دولة كسروية ، واستطاع ان يضع للخلافة سياسة تحفظ التوازن بين عناصر الدولة فلا يطغى بعضها على بعض .

ويبدو ان الخليفة المهدي قد شعر بشيء من الاطمئنان لرسوخ قواعد الدولة واستقرار شؤونها فأخذ يقرب اليه الاعاجم تقريبا اطمعهم فيه ، ووكل يحيى بن خالد بن برمك بتربية ابنه هرون فغلب عليه .

وفي خلافة هرون الرشيد كشف القوم القناع عن عصبيتهم العارمة على العرب بعد ان شعروا بأنهم قد ثبتت اقدامهم في الدولة الجديدة وفي جوانب حياتها العديدة فكان لهم في الادب مكانهم الواسع الرحب كما كان لهم في السياسة نفوذهم الطاغى واثروهم البعيد .

على ان مشاركة الموالي والاعاجم في الادب وفي الشعر على وجه الخصوص لم تبدأ بقيام الدولة العباسية بل لقد بدأت منذ ان عرف الشعر سحياً عبد بني الحسحاس ونصيب بن رياح ، وإن لم يظهر لأصلهما غير العربي في شعرهما اثر واضح وضوح ما ظهر في شعر الشعراء من بعد (٤) .

٢ - الشعوبية

وقد ظهرت في العصر الاموي نزعة عرفت بالنزعة الشعوبية (٥) وكان يراد بها مقاومة ما كان يلقاه الموالي من عصبية الدولة الاموية عليهم في اول الامر ، ثم تطور امرها فأصبحت فخراً بالاعجمية وعيباً على العرب وثلباً لهم .

(٤) مر الكلام على هذين في الفصل الثاني من الباب الاول .

(٥) الشعوبية نزعة ترمي في أصلها الى المساواة بين الاقوام والشعوب تحقيقاً لما في قوله تعالى « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » .

ولعل من اوائل الشعراء الذين فخروا على العرب وتحذثوا قن الأكاسرة
وعن حضارتهم وامجادهم اسماعيل بن يسار النسائي • فقد افتخر في شعره
بأصله الفارسي واعتز به ودعا العرب ان يتركوا التفاخر على الاعاجم فقال :

رب خال متوج لي وعم ماجد مجتدى كريم النصاب
انما سمّي الفوارس بالفرس مضاهاة رفعة الأنساب
• • • • • الخ

ولكن العصر الاموي لم يكن يتيح لمثل هذه النزعة حرية الظهور
والاعلان والمجاهرة ، فبقيت ضئيلة حتى قامت دولة بني العباس وتمكن
منها الاعاجم الى حد ما ، فجلجل صوته وقوي امرها •

وصرنا نرى من الشعراء من يرفع صوته بها في مجالس الامراء من
العرب مثل بشار وأبي نواس •

أما بشار فقد كان — على رغم نشأته بين قبائل العرب — يعتز بأصله
الفارسي ويدل به • ولقد حدث عن نفسه فقال : دخلت على المهدي فقال لي :
في من تعتديا بشار ؟ فقلت : أما اللسان والزي فعيان واما الاصل فعجمي
كما قلت في شعري :

ونبتت قوماً بهم جنة يقولون من ذا ؟ وكنت العلم
ألا أيها السائلي جاهداً ليعرفني أنا أنف الكرم
نحت في المكارم بي عامر جدودي وأصلي قریش العجم
واني لأغني مقام الفتى وأصبي الفتاة فما تعظم

ثم قال له المهدي : فمن أي العجم أصلك ؟ قال : من اكثرها في

الفرسان واشدها على الاقران أهل طخارستان (٦) .
وفخره بأصله الاعجمي كثير في شعره فمن ذلك قوله :

وهجاني معشر كلهم	حمق دام لهم ذاك الحمق
ليس من فخر ولكن ساءهم	شرفي العارض قد سد الأفق
من خراسان وبיתי في الذرى	ولدى المسعاة فرعي قد سبق

ولم يكن بشار يكتفي بأن يفخر بأصله الاعجمي بل لقد كان لا يتورع من ان يهجو العرب في بيت واحد من سراتهم • يروى (٧) أن اعرابياً دخل على مجزأة ابن ثور السدوسي - بالبصرة - وبشار عنده وعليه بزة الشعراء فقال الاعرابي : من الرجل ؟ فقالوا : شاعر • فقال : أمولى هو أم عربي ؟ فقالوا : بل مولى • فقال الاعرابي : يا للموالي والشعر • فغضب بشار وسكت هنيهة ثم قال لصاحب البيت : أتأذن لي يا أبا ثور ؟ قال : قل ماشئت يا أبا معاذ • فأنشد بشار :

خليلي لا أنام على افتقار	ولا أبى على مولى وجار
سأخبر فاخر الأعراب عني	وعنه حين تأذن بالفخار
أحين كسبت بعد العري خزاً	ونادمت الكرام على العقار
تفاخر يا ابن راعية وراع	بني الأحرار حسبك من خسار
وكنت اذا ظمئت الى قراح	شركت الكلب في ولغ الاطار
تريد بخطبة كسر الموالي	وينسيك المكارم صيد فار
وتغدو للقفاذ تدريها	ولم تعقل بدراج الديار

(٦) بشار بن برد شعره واخباره لاحمد حسنين القرني ص ٨٠ - ٨١ .

وتتشح الشمال للابسيها وترعى الضأن بالبلد القفار

ولقد امعن بشار في شعوبيته فلم يعد في هذا العصر يعترف بولائه
للعرب وبنشأته فيهم ، ولم يعد يفاخر بمواليه من بني عقيل بن كعب الذين
لقنوه الفصاحة ونشأوه عليها :

أمتسي من بني عقيل بن كعب موضع السيف من طلا الأعناق

بل لقد تبرأ من ولاء العرب كلها وأصبح يشعر بأنه لا يحتاج إليها
في قليل أو كثير ، قال :

أصبحت مولى ذي الجلال وانما	مولى العريب فجذ بفضلك وافخر
مولاك أكرم من تميم كلها	أهل النعال ومن قريش المشعر
فارجع الى مولاك غير مدافع	سبحان مولاك الأجل الأكبر

وهو في هذا يصور لنا انتقالا خطيرا في حياة الموالي وفي الحياة
الاسلامية بوجه عام ، فقد اصبح للفرد قيمته في المجتمع مهما كان أصله ومهما
كان منشؤه ، ولم يعد يحتاج الى ان يحتمي بمن يواليه من القبائل حتى
لا يستضعف فينال من الآخرين مايكره ، أو يستعير مفاخر تلك القبائل
لنفسه فيدل بها على الناس وليس هو منها في شيء . وهذه من غير شك
مزية من مزايا التحول الذي أصاب الحياة الاجتماعية في العصر العباسي ،
وهي بحق تحقيق لما أمر به الدين من احلال المساواة بين أفراد المجتمع ،
وإجهاز على بقايا التقاليد البدوية الجاهلية التي كان بنو أمية يرعونها

ويعتمدون بها ويعدون لها مصدر قوة لدولتهم وأساساً من الأسس التي قامت عليها سياستهم •

ولم يقف امر الشعوية عند هذا الحد ، فلما افوي نفوذ البرامكة وهم كانوا يرعون هذه النزعة ، ويمدون الناطقين بلسانها فأصبحت الشعوية في أيامهم تمارى في الاستهتار بالعرب ولا تبالي بالسخرية بهم وتجعل قبائلهم سخرى وتتخذها هزواً •

واتخذت اشعوية في تحقيق غرضها وسيلة الانتقاص من الاعراب وذم حياتهم والموازنة بينها وبين الحياة الحضرية التي وجد الناس فيها ماتشتيه الأتس وتلد الأعين •

فكان أبو نواس يهزأ بالاعراب ويذكر معايبهم ومثالبهم ويسخر من مفاخرهم بما كانوا يفاخرون به :

إذا ما تميمي أتاك مفاخرراً

فقل : عدّ عن ذا ، كيف أكلك للضب ؟

وقد اتخذت الشعوية عند أبي نواس مظهراً جديداً يتميز بتحدى التقاليد الفنية في الشعر ، تلك التقاليد التي لزمها المحدثون واتبعوها كالوقوف على الأطلال ومساءلة الدمن والبكاء على المنازل ، وما أشبه ذلك من وصف الصحراء ونباتها ، وكان يدعوهم الى نبذ هذه التقاليد والاعراض عن هذه الأوصاف والالتفات الى مظاهر الحضارة الجديدة وما فيها من المتع التي فتنت قلب أبي نواس وملكت عليه إحساسه :

دع الأطلال تسفيها الجنوب	وتبلي عهد جدتها الخطوب
وخل لراكب الوجناء أرضاً	تحت بها النجيلة والنجيب
ولا تأخذ عن الأعراب لهواً	ولا عيشاً فعيشهم جديب

ذر الألبان يشربها أناس
 بأرض تبتها عشر وطلح
 إذا راب الحليب قبل عليه
 فأطيب منه صافية شمول
 رقيق العيش عندهم غريب
 وأكثر صيدها ضبع وذيب
 ولا تخرج فما في ذاك حوب
 يطوف بكأسها ساق أريب

ولقد كان افتتان أبي نواس بالحضارة ومظاهرها وولوعه بالخمر
 ومجالسها يدخله مدخل المستهتر الذي لا يبالي بما يقول فتجري المثلبة
 على لسانه ، لا لأنه يريد بها ويقصد إليها ، ولكن لأنه يضيق ذرعاً بمن
 يجعلها مفخرة ومأثرة يقف عندها ويكيأهلها . ومن أجل هذا كان يشتط
 فيحقر قبائل العرب ويصرح بالاستهزاء بهم . ها هو ذا يقول مرة :

عاج الشقي على رسم يسائله
 يبكي على طلل الماضين من أسد
 ومن تميم ومن قيس ولفهما
 لا جفد مع الذي يبكي على حجر
 كم بين ناعت خمر في دساكرها
 دع ذا عدمتك واشربها معتقة

 وعجت أسأل عن خمارة البلد
 لا درّ درّك قل لي من بنو أسد
 ليس الأغاريب عند الله من أحد
 ولا صفا قلب من يصبو الى وتد
 وبين باك على نؤي ومنتضد
 صفراء تفرق بين الروح والجسد
 الخ

وبالرغم من كل هذا لا نكاد نجد أبا نواس يفاخر بالأعاجم أو يذكرهم
 في مجال المفارقة بهم وتفضيلهم على العرب الا في موضع واحد من شعره
 الذي بين ايدينا . وذلك حين يوازن بين الرسوم الدائرة التي خلفها العرب
 وبين ما خلف كسرى وسابور من منازة بين دجلة والفرات تنبت الشجر
 الجميل ولا تنبت الطلح والعشر ولا تصطاد فيها اليرابيع والوحر :

دع الرسم الذي دنسنا يقاسي الريح والمطرا (٨)
 وكن رجلاً أضاع العلم في اللذات والخطرا
 ألم تر ما بنى كسرى وسابور لمن غبىرا
 منازله بين دجلة والفرات أخصها الشجيرا
 لأرض باعد الرحمن عنها الطلح والعشرا
 ولم يجعل مصاديها يرايعاً ولا وحرا
 الخ

ويغلب على ظن البطاح أن أبا نواس لم يكن يتخذ من الشعوية
 مذهباً يجد في اعتقاده جداً ، فيعادي العرب أو يتنصل منهم كما تنصل منهم
 بشار ، ولم يذكر في شعره أنه أعجمي يفخر بأعجميته ، كما فعل بشار أيضاً ،
 وإنما كان ، كما يبدو للباحث في شعره وفي سيرته ، ابن العصر الذي عاش
 فيه ، والبيئة التي نشأ فيها ، وقد كان كذلك في جزء كبير من شعره ، وثار
 على الشعراء الذين كانوا يعيشون بمشاعرهم وبعواطفهم في عصور غابرة وفي
 بيئات غريبة عنهم ، عض عليها الدهر ، وتناول بها الزمن ، فلم يبق منها
 الا أخيلة وأوهاماً وتقاليد متحجرة لا حياة فيها ولا رواء وكانت طبيعته
 المماجسة المستهترة تدفعه الى ان يحمل على الاعراب ويثلب قبائل العرب
 ويهزأ بها ، لا لانه كان يشعر نحوها بشعور الغريب المتبرم بها وبأهلها ،
 ولكن شعور الذي كان يجد في حياته الحضرية في بيئته المتحضرة المترفة ما
 هو أخلق منها بأن يتغنى بها الشعراء ، واجدر ان يستمتعوا بها استمتاعاً
 فنياً . فلا تزوج شخصياتهم ولا يكذبون في عواطفهم ومشاعرهم
 تقليداً واتباءً .

(٨) روى ناشر الديوان الأبيات متشككاً في نسبتها الى ابي نواس وهي على
 ما يظهر ليست من طراز شعره - يراجع ديوان ابي نواس .
 ط . اسكندر آصاف .

وجملة الأمر أن أبانواس كان يحمل لواء ثورة على تقاليد الشعر الموروثة ليس هنا محل الكلام عليها ولا على تفاصيلها من الوجهة الفنية ، ولكنه لم يكن مدفوعاً الى تلك الثورة بدافع الشعوية والعصية على العرب وانما كان يدفعه اليها انطلاق وحرية في عواطفه ، واندماجه الهائل بالبيئة الجديدة ، ويحمله عليها من بعض الوجوه عصبية قبلية يمانية ، كانت مبنية على شيء من الالمام بحضارة اليمن والمعرفة بتاريخها مما سنعرض الى تفصيله في موضعه من البحث إن شاء الله . وكان يمثل وعياً حضارياً متأثر بالشعوية من بعض الوجوه ، وتمثل دعوتها الى الاقبال على الحياة الجديدة والاعراض عين الحياة القديمة المقررة الجديدة .

وقد ظهرت الشعوية في هذا العصر في مظاهر أخرى لاتعني في هذا البحث ، فألف بعض الاعاجم كتباً في مثالب العرب وفي الطعن عليهم والازدراء بحياتهم ، مثل أبي عبيدة معمر بن المثنى والهيثم بن عدي ومن على شاكلتهما .

٣ - أثر الشعوية في الشعر

ولقد ادى الى اتساع الدعوة للشعوية وتقويتها وذيوها وانتشار تأثيرها في الحياة الاجتماعية والادبية ، تغلغل النفوذ الفارسي والاعجمي في الحياة العباسية ، يمثله اوضح تمثيل نفوذ الاسرة البرمكية التي بدأ شأنها في الارتقاء ايام الخليفة محمد المهدي ، وبلغ امرها ذروته في زمن هرون الرشيد ، فجمعت حولها الشعراء واغدقت عليهم الاموال فصار الشعراء يمدحون رجالها مدحاً مجيداً ويضعونهم في مصاف الخلفاء ، حتى انه لما ولي الرشيد الخلافة وعهد الى يحيى بن خالد بن برمك بالوزارة ، دخل عليه ابراهيم الموصلي فقال يهنئه :

ألم تر أن الشمس كانت مريضة فلما ولي هرون أشرق نورها

فألبست الدنيا جملاً بوجهه فهرون واليهما ويحيى وزيرها

وحتى نعتهم الشعراء بنعوت الملوك ورفعوهم في شعرهم الى منزلة لم
تكن منزلة الخلفاء ارفع منها • وابتكروا في مدحهم معاني لم يكن للشعر
بها عهد من قبل • كقول نصيب أبي الحجناء مولى المهدي فيهم :

عند الملوك مضرة ومنافع	وأرى البرامك لا تضر ، وتنفع
إن كان شر كان غيرهم له	أو كان خير فهو فيهم أجمع
إن العروق إذا استسر بها الثرى	أشر النبات بها وطاب المزرع
فإذا جهلت من امرئ أعراقه	وقديمه فانظر الى ما يصنع

وهكذا أصبحنا نرى الشعراء يمدحون فلا يمدحون بالنسب المجيد
والاصل الشامخ والفرع الباذج وإنما يلتصقون تعليلاً جميلاً لمن لا تعرف
أصولهم وأنسابهم فيجعلون مدار الفضل على ما يصنع المرء إن خيراً فخير
وإن شراً فشر •

وحتى صرنا نرى أشجع السلمي - وهو من الشعراء الذين كانوا
منتطحين الى البرامكة - يمدح جعفر بن يحيى البرمكي مدحاً جديداً فيقول
فيه مثل هذه الايات :

ذهبت مكارم جعفر وفعاله	في الناس مثل مذاهب الشمس
ملك تسوس له المعالي نفسه	والعقل خير سياسة النفس
فاذا تراءته الملوك تراجعوا	جهر الكلام بمنطق همس

بل يبالغ أشجع في مدح جعفر فيجعله فوق الملوك بما يبذل من معروفة،
يريدون مداه فيقصرون عنه ويلوذون بأبوابه اذا نالهم حادث عظيم :

يريد الملوك مدى جعفر ولا يصنعون كما يصنع

وليس بأوسعهم في الفنى ولكن معروفه أوسع
تليود الملوك بأبوابه اذا نالها الحدث الأظلم

بل لقد بالغ بعض الشعراء في مدحهم فأسبغوا عليهم ثوباً من التقديس
لم يكن معروفاً في الشعر العربي من قبل ، فجعلهم الرقاشي - وهو ايضا
صنيعة من صنائعهم وريب من ربائب نعمتهم - كالبيت الحرام والحجر
الاسود يستلم ويطاف حوله • يروى^(٩) ان الرقاشي اجتاز بالفضل بن يحيى
مصلوباً على الجذع فوقف يبكي احراً بكاء ثم انشأ يقول :

أما والله لولا خوف ولش
لطفنا حول جذعك واستلمنا
وعين للخليفة لا تنام
كما للناس بالحجر استلام

ويطول بنا الكلام لو حاولنا ان نتبع آثار البرامكة في الحياة
الاجتماعية والادبية وحسبنا من ذلك ما اسلفناه ومرادنا منه الدلالة على
مقدار ما احدثوه من التأثير في اتجاه الحياة العباسية •

٤ - اثر الاعاجم في الحياة العباسية والشعر خاصة

ولقد كان لوجود الاعاجم في الحياة العباسية اثرها في الحياة
الاجتماعية ، وكان لها صورتها الواضحة في الشعر فقد ادت الى ظواهر
اجتماعية جديدة انعكست صورتها في الشعر - ومن اهمها :

أولاً - انحراف المقاييس الاجتماعية او بعبارة ادق تغييرها عما ألف
الناس عند العرب ، فقد ضعف الاعتداد بالانساب والتفاخر بالاموال او
كاد • ألا ترى في قول نصيب في البرامكة :

(٩) الاغاني ج ١٤ ص ٣٤ - ٣٥ •

ان العروق اذا استسر بها الثرى أشر النبات بها وطاب المزرع
فاذا جهلت من امرى أعراقه وقديمه فانظر الى ما يصنع

وقد ادى ذلك الى تغير كبير في معاني المديح ، واتجه بها واجهة جديدة . وكذلك حدث لمعاني الهجاء ، اذ اصبحت تقوم على اساس مختلف عن القديم كما سيأتي بيانه .

ثانياً - افتتان الناس بالحياة الحضرية وما فيها من العناصر الاعجمية ، ولولوعهم بما فيها من ترف باذخ في المآكل والمشرب والملبس . وقد كان لذلك صورته في الشعر فوصف الشعراء هذه الاشياء الجديدة وامعتوا في الاقبال عليها كقول ابي نواس في الخمر :

تدور علينا الراح في عسجدية حبتها بأنواع التصاوير فارس
قرارتها كسرى وفي جنباتها مها تدريها بالقسي الفوارس
فللخمر ما زرت عليه جيوبهم وللماء ما دارت عليه القلائس

وحتى نشأ - متأثراً بذلك من بعض الوجوه - فن جديد في الشعر هو وصف مجالس الشراب واللهو وغير ذلك من مظاهر الحضارة الجديدة . وحتى دخلت الالفاظ الفارسية في الشعر دليلاً على الترف وامارة على الترف والركة والدراية بالحضارة . ويبدو أن الالفاظ الفارسية كانت تتداول في مجالس الشراب واللهو فينقلها بعض الشعراء حين يصفون تلك المجالس ويتحدثون عنها . مثال ذلك قول اسحق الموصلي وقد تبناه اسحق بن ابراهيم المصعبي في مجلس من مجالس شرابه التي اعتاد اسحق ان يغشاها (١٠) :

(١٠) الاغاني ج ٥ ص ٨٠ .

لعمري لئن كان الأمير تمنائي
لقد زادني ما كان منه صباية
فيا ليت شعري هل أروحن مرة
وهل أرين يوماً غضارة ملكه
وهل أسمعن ذاك المزاح الذي به
إذا قال لي «يامردي خر»^(١١) وكرها
بمجلس لذات ونزهة بستان
وجدد لي شوقاً اليه وأبكاني
اليه فيلقاني كما كان يلقاني
وسلطانه لا زال في عز سلطان
إذا جئته سليت همي وأحزاني
علي وكناني مزاحاً بصفوان

ومن العجيب ان بعض الالفاظ الفارسية قد دخلت في فن من الشعر
عريق في البداوة لا يتصور ان يتأثر بالحياة الحضرية هذا التأثير وهو الرجز.
فقد قال العماني الراجز يمدح الرشيد في احدى اراجيزه :

من يلقه من بطل مسرند في زعفة محكمة بالسرد
يجول بين رأسه والكرد^(١٢)

وقال فيها ايضاً :

لما هوى بين غياض الأسد وصار في كهف الهزبر الورد
آلى يذوق الدهر آب سرد^(١٣)

ثالثاً - المجون والتهتك والاقذاع ، وتلك امور لم يكن المجتمع
العربي قديم العهد بها ولا كان الشعر العربي يحوم حولها او يتحدث فيها .
وكان طليعة هذه المظاهر الاجتماعية في بغداد من نزع اليها من اهل

(١١) معناها « يارجل اشرب النبيذ » .

(١٢) الكردي : العنق .

(١٣) آب سرد : الماء البارد . يراجع البيان والتبيين ج ١ ص ١٣١ .

الكوفة والبصرة ، وكان فيهم شعراء ألفوا ان يجتمع بعضهم الى بعض ويهجو بعضهم بعضاً هجاء فيه من الافحاش والاقذاع ما لم نألفه عند الشعراء من قبل ، وكان اغلب هؤلاء من غير العرب . من هؤلاء بشار بن برد وحماد عجرد وأبو الشمقمق ووالبة بن الحباب ومطيع بن اياس وغيرهم . وكان هؤلاء طرازاً فريداً من الشعراء يتهاجون تماجناً وتظرفاً ، ويمعنون في الهجاء حتى يخرجوا به مخرجاً يأباه العرف وتنفر منه الاخلاق ، ولكنهم ما كانوا يبالون بذلك ولا يغضب بعضهم من بعض على ما يكون في هجاء بعضهم بعضاً من الافحاش وبذيء القول وانما كانت تتغلب عليهم النظرة الفنية الى ذلك الهجاء ، فيعجب المهجو بمن يهجو ان كان في شعره معنى طريف جديد لم يسبقه اليه ، بل يحسده احياناً على ذلك المعنى وينفسه عليه ويتبناه لنفسه (١٤) .

ولقد كان من آثار التبدل الذي أشرنا اليه في المقاييس الاجتماعية ان الهجاء لم يعد عند شعراء هذا العصر انتقاصاً من كرامة الشخص المهجو والطعن فيه وفي قومه وبالغض من مكائته ومكانة قبيلته اجتماعياً وسياسياً كما كان يكون بين جرير والفرزدق والاخلط والراعي وسواهم من فحول الشعراء في العصر الاموي ، ولكنه اصبح هزواً بالشخص وسخرية به وعبثاً يجعله ضحكة بين الناس . ولا بأس في التفكه بالطعن في عرضه وفي شرفه طعناً لا يزيد الهجاء الا امعاناً في الاستهزاء والسخرية . وهذا يعني من الناحية الاجتماعية ان الفرد قد اصبح هو الوحدة الاجتماعية لا القبيلة كما كان الحال في ايام الجاهلية وفي عصر بني امية من بعد .

وفي اخبار بشار وحماد ما يكشف لنا عن هذه الحالة التي جّدت على المجتمع العباسي وظهرت صورتها في الشعر واضحة (١٥) .

(١٤) تراجع في ذلك اخبار بشار وحماد في الاغاني .

(١٥) تراجع في ذلك اخبار بشار وحماد في الاغاني .

وللكلام على هذا الموضوع مكانه في الفنون وفي المعاني التي جدت
في الشعر •

وكان من آثار ذلك أيضاً ما نلاحظه من الانحراف في بعض فنون
الشعر كالغزل فقد عرف الشعر الغربي لأول مرة في تاريخه الطويل ما يسمى
الغزل بالمذكر وهو وصف الفلماں والسقاة والندماء الذين تكونت منهم
طبقة جديدة في المجتمع ، تجمع بين صفات النساء والرجال ، وتعنى بالزينة
وتتخنت تخنت النساء ، ويعبث بها المجان والعابثون عبثهم بالجواري
والقيان ؛ ونشأ في المجتمع العباسي ما يغلب على الظن أنه ضرب من
الانحراف الجنسي في علم النفس بحب الجنس Homosexualiay

وصار فن الغزل القديم غزلاً مكشوفاً ضحل العاطفة سطحياً ، يبرز
فيه جانب الشهوة بروزاً لم يكن يعرف من قبل بسبب ابتذال المرأة وانحطاط
قيمتها وكثرة الجواري والقيان اللواتي يسهل الوصول اليهن والتمتع
منهن بما يشتهى ، وتوارت حرائر النساء من الشعر ، ولم يعد لذكرهن في
الشعر وأثرهن في نفوس الشعراء ما كان لهن في العصور القديمة • ومن
المعروف أن ابتذال المرأة وسهولة التمتع بما يؤدي الى اضعاف واضح لعاطفة
الحب وهبوط بها الى مستوى الشهوة الجنسية •



ولسنا نزعم ان غلبة الأعاجم في الفترة الاولى من العصر العباسي
هي التي أدت الى ذلك ، أو أنها كانت هي السبب الوحيد الذي نتج منه
هذا التحول في الحياة الاجتماعية ، فأثر في الشعر هذا الأثر الذي نحاول ان
نرصد بعض مظاهره ، وانما كانت غلبة الأعاجم هي السبب الأقوى مضافاً
اليه أسباب أخرى اجتماعية واقتصادية وحضارية •

والمهم في هذا الأمر أن نقرر أن الأعاجم ومشاركتهم الواسعة الفعالة في الحياة العباسية قد نشأ عنها تحول أساسي في الحياة الاجتماعية يشبه ان يكون رد فعل لما كان عليه الحال من قبل في عصر بني أمية . ولقد اراد هؤلاء الأعاجم أن يحلوا محل امراء العرب وسادتهم في توجيه الحياة الاجتماعية والأدبية فاجتذبوا اليهم الشعراء يغدقون عليهم الأموال ويستنطقونهم بما كانوا يهوون ويريدون ، ويهيئون لهم من ألوان الحياة ما يدفعهم الى التحدث عنها ووصفها وقول الشعر فيها ، حتى لقد اغروهم بالحيلة على تقاليد الشعر القديمة والثورة عليها ففعلوا .

ومن الملاحظ أيضاً أن جانباً كبيراً من شعراء هذا العصر - العصر العباسي الأول - كانوا من غير العرب أو مشكوكاً في عروبتهم على الأقل كبشار بن برد ومسلم بن الوليد وأبي العتاهية وأبي نواس وكان هؤلاء هم طلائع التجديد في الشعر والانتقال به من حال الى حال . وأنا أعني بذلك أنهم كانوا حضريين لا تجمعهم بحياة الاغراب وشيعة متينة ولا تصلهم بقديم الشعر العربي صلة وثيقة في الغالب .

٥ - الروح العربي واثره في الشعر

ولم يكن مجال الحياة الاجتماعية في العصر العباسي ليخلو لغير العرب ويخلو من العرب وهم مادة الدولة وعنصرها الاصيل ، فقد كان أبو جعفر المنصور مؤسس الدولة الحقيقي حريصاً على أن يحفظ التوازن بين عناصر دولته حتى لا يطغى بعضها على بعض - كما أشرنا الى ذلك أكثر من مرة - ولم يكن يتيح للأعاجم أن ينفردوا بالتأثير على مصير الحياة السياسية واجتماعية فكان منه ما كان مع أبي مسلم الخراساني .

ويبدو أن الأعاجم من أنصار أبي مسلم قد أحسوا عاقبة مقتله والقضاء

عليه فثاروا بأبي جعفر وهاجموه ، وقاتلهم حتى أصبحت حياته هو في خطر
منهم لولا أن انتدب لنصرته معن بن زائدة الشيباني فأبلى في مناصرته
بلاء حسنا أرضى عنه أبا جعفر المنصور بعد أن كان ساخطا عليه لعلاقته
بالأمويين . وقد مكن له هذا الرضا من الخليفة في الدولة العباسية وكان
له ولأولاده وأهل بيته من بعده شأنهم في الدولة وأثرهم في حياتها الأدبية
والاجتماعية .

وكان لمعن بن زائدة شعراء اختصوا به ووهبوه مدائحهم ووهبهم
عطاياهم السنينة وصلاته السخية ، فكانوا يمجدون فيه أصله ونسبه ويمدحونه
بشرف الأصل ورفعة النسب ويلتزمون في ذلك التقاليد العربية في الشعر .

وممن كان يختص معنا بالمدح مروان بن أبي حفصة ، وكان معن
يجزل صلته ويسني له العطاء ، وقد اغضب ذلك عليه أبا جعفر المنصور
حتى أنه دخل عليه مرة فلما نظر اليه قال له : « هيه يا معن ، تعطي مروان أبي
حفصة مائة ألف درهم على قوله :

معن بن زائدة الذي زيدت به شرفاً على شرف بنو شيان »

فقال : « كلا يا أمير المؤمنين ، إنما أعطيته على قوله :

ما زلت يوم الهاشمية^(١٦) معلناً بالسيف دون خليفة الرحمن
فمنعت حوزته وكنت وقاءه من وقع كل مهند وسان »

فقال : « أحسنت يا معن » . (١٧)

وقد كان معن فيما يظهر بقية من امراء العرب الذين يهتزون للمدائح

(١٦) الهاشمية : مدينة ابي جعفر المنصور قبل ان ينتقل الى بغداد .

(١٧) مروج الذهب ج ٣ ص ٢١٣ - ٢١٤ .

السنية فيثيون عليها الثواب الجزيل • روي عن ابن الاعرابي ان مروان بن
أبي حفصة أخبره أنه وفد على معن بن زائدة مرة فأنشده قوله :

بنو مطر يوم اللقاء كأنهم	أسود لها في بطن خفان اشبل
هم يمنعون الجار حتى كأنما	لجارهم بين السماكين منزل
لهاميم في الاسلام سادوا ولم يكن	كأولهم في الجاهلية أول
هم القوم ان قالوا أصابوا وان دعوا	أجابوا وان أعطوا أطابوا واجزلوا
ولا يستطيع الفاعلون فعالهم	وان أحسنوا في النائبات وأجملوا

قال : فأمر لي بحلة سنية وخلع علي وحملني وزودني •

قال ابن الاعرابي : « لو أعطاه كل ما يملك لما وفاه حقه . » (١٨)
وممن اتصل بآل زائدة من الشعراء مسلم بن الوليد صريع الغواني
وله في يزيد بن مزيد مدائح كثيرة منها لاميته البديعة التي يقول فيها :

موف على مهج في يوم ذي رهج كأنه أجل يسعى الى أمل

ولقد بلغت هذه الحركة الاجتماعية الادبية مبلغاً جعل الخلفاء يحسون
أن أمراء الجيوش وقوادها من العرب قد اخذوا ينشئون لهم بهذا الشعر
منزلة اجتماعية خطيرة ، فكانوا ينفسون عليهم مدائح الشعراء ، ويشعرون
ان هؤلاء الامراء والقواد قد غصبوهم او نافسوهم في المنزلة الاجتماعية العليا التي
كانوا يحسبونها • ذلك لان هؤلاء الشعراء كانوا يمدحون الامراء برفعة
الانساب ويقولون عنهم أنهم مفخرة العرب وعزهم ، وتلك وأمثالها صفات
يريدها الخلفاء خالصة لانفسهم من دون الناس • هذه ناحية ، وفي هذا
الامر ناحية اخرى ، فقد يكون بعض المتصلين بالخلفاء من الاعاجم — وهم

كثير - كانوا يحسون خطر هؤلاء السادة العرب على نفوذهم الاجتماعي ومكائنتهم في الدولة فيسعون بما كان يقوله فيهم الشعراء الى الخلفاء ليغضبوهم على أولئك الشعراء ويوغروا صدورهم عليهم وعلى مملوحهم .
كما كان من أمر المأمون وعلي بن جبلة العكوك حين رفض مديحه ولم يرض عنه لما قاله في أبي دلف القاسم بن عيسى وفي حميد بن عبد الحميد الطوسي .

وقد روي قصة العكوك والمأمون صاحب الأغاني عن أبي نزار الضبي الشاعر قال : « قال لي علي بن جبلة ، قلت لحميد بن عبد الحميد الطوسي : يا ابا غانم إني قد مدحت امير المؤمنين بمدح لا يحسن مثله أحد من اهل الارض فاذكرني له . قال : فأشدني ، فأشدته ، قال : أشهد أنك صادق ، ما يحسن أحد أن يقول هكذا . واخذ المديح فأدخله الى المأمون . فقال له : يا حميد ، الجواب في هذا واضح ، إن شاء عفونا عنه وجعلنا ذلك ثواباً لمديحه ، وإن شاء جمعنا بين شعره فيك وفي أبي دلف وبين شعره فينا ، فإن كان الذي قاله فيكما أجود ضربنا ظهره واطلنا حبسه ، وإن كان الذي فينا أجود اعطيناه لكل بيت ألف درهم ، وإن شاء اقلناه . فقلت له : يا سيدي ومن انا ومن ابو دلف حتى يمدحنا بأجود من مديحك ؟ فقال : ليس هذا الكلام من الجواب في شيء ، فاعرض ما قلت لك على الرجل . فقال : أفعل . قال علي بن جبلة : « فقال لي حميد : ما ترى ؟ فقلت : الاقالة احب الي ، فأخبر المأمون بذلك فقال : هو اعلم . »

ثم قال لي حميد : يا ابا الحسن ، أي شيء يعني من مدائحك لي ولأبي دلف ؟ فقلت : قولني فيك :

لولا حميد لم يكن حسب يعدّ ولا نسب
يا واحد العرب الذي عزت بعزته العرب

وقولي في أبي دلف :

انما الدنيا أبو دلف بين بادييه ومحتضره
فاذا ولّى أبو دلف ولّت الدنيا على أثره (١٩) . »

ولقد كان أبو دلف وحيد بن عبد الحميد الطوسي يقرّبان اليهما الشعراء ويحسنان اليهم احساناً بلغ الغاية ، فكانت بين الشعراء وبينهما علائق حب ومودة واعجاب واكبار ، وتلك ظاهرة جديدة في الشعر بين الشاعر وممدوحه . فنحن لا نعرف قبل أبي دلف وحيد الطوسي ممدوحاً - في مثل المنزلة التي كانا عليها - يحل الشعراء في نفسه محل الأخلاء والاحباء .

ونحن نقرأ لعلي بن جبلة العكوك مديحاً في حميد وفي أبي دلف فنحس ان الشاعر يهوى الممدوح ويحبه ويصطفيه من دون الناس ويتخذه خليلاً . فمن ذلك قول العكوك من قصيدة مدح بها حميداً ووصف قصره على دجلة :

ليس لي ذنب سوى	أنّي اسميك خليلاً
وأناديك عزيزاً	وتناديني ذليلاً
أنا أهواك وحالي	ك صروماً ووصولا
ثق بود ليس يفنى	وبعهد لن يحولا

★ ★ ★

جعل الله حميداً	لبنى الدنيا كفيلاً
ملك لم يجعل الله	له فيهم عديلاً
فأقاموا في ذراه	مطمئنين حلولا

(١٩) الاغاني ج ١٨ ص ١٠٠ .

لا ترى فيهم مقلاً
جاء بالأموال حتى
وبنى الفخر على الفخر
صار للخائف أمناً
يسأل المشري فضولاً
علم الجود البخيلاً
ربناء مستطيلاً
وعلى الجود دليلاً

ونحن نقرأ في أخباره مع أبي دلف أنه كف عن زيارته حياء منه لفرط ما يبرّه وما يصله ، فاذا أرسل إليه أبو دلف يسأله عن سبب تلك الجفوة وهل من تقصير في حقه دعاه إليها ، أجابه العكوك بهذه الايات :

هجرتك لم أهجرك من كفر نعمة
ولكنني لما أتيتك زائراً
فأفطت في بري عجزت عن الشكر
فها انا لا آتيك الا مسلماً
فان زدتي برّاً تزيدت جفوة
ولم تلقني طول الحياة الى الحشر (٢٠)

وقد اتصل بأبي دلف بعد ذلك وبأمثاله من سراة العرب أبو تمام حبيب بن أوس الطائي وأصفاهم مديحه وخلّد ذكرهم في شعره ؛ ومن مدائحه في أبي دلف بائيته التي مطلعها :

على مثلها من أربع وملاعب
أذيلت مصونات الدموع السواكب

ورثي محمد بن حميد الطوسي برائيته المعروفة التي يقول في اولها :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر
فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

وكان لهذه الصلة بين الشعراء وسراة العرب نتائجها المهمة في الشعر ، اذ انها اقترنت بعودة الشعر الى طريقته الاولى التي كاد يهجرها عند شعراء القرن الثاني .

ويظهر أن هذه الحركة الاجتماعية قد بلغت من بعض الوجوه مبلغ المناهضة للإعاجم والضيق بهم . وقد صرح بعض الشعراء بعد ذلك بما كانوا يحسون به من التبرم بالإعاجم وبغلبتهم على الحياة السياسية والاجتماعية . هذا دعبل بن علي الخزاعي يهجو المعتصم فيقول انه ليس أهلاً لأن تدين له العرب ، وانه قد اضاع الملك والخلافة يوم حكم فيها وصيفاً وأشناساً ، قال في قصيدته التي أولها :

بكي لشنات الدين مكتب صب وفاض بفرط الدمع من عينه غرب
الى ان يقول :

وقام امام لم يكن ذا هداية فليس له دين وليس له لب
وما كانت الأنباء تأتي بمثله تملك يوماً أو تدين له العرب
ويقول في الاتراك :

لقد ضاع ملك الناس اذ ساس ماكهم وصيف وأشناس (٢١) وقد عظم الكرب
وفضل بن مروان يسلم ثلمه يظل لها الاسلام ليس له شعب
وهكذا ضاق العرب بالترك كما ضاقوا من قبل بالفرس ، ولكنهم في هذا العصر - القرن الثالث - قد وجدوا الشجاعة في التصريح بذلك الضيق ، كما فعل دعبل ، وكما قال بعض الشعراء البغداديين في الاتراك (٢٢) وهو عارق بن أثل الطائي :

ما ان يزال ببغداد يزاحنا على البراذين أشباه البراذين
أعطاهم الله أموالاً ومنزلة من الملوك بلا عقل ولا دين
ما شئت من بغلة شقراء ناجية أو من أثاث وقول غير موزون

(٢١) وصيف وأشناس من قواد المعتصم الاتراك .

(٢٢) البيان والتبيين ج ١ ص ١٩٣ .

ولعل ذلك يدلنا على ان شعور العرب بالعصية وتجمعهم وتكتلهم قد بلغ في هذا القرن مبلغاً اضطر ان ينتقل بجندهِ الاتراك من بغداد الى سامراء ، بل قد يكون اصطناعه الاتراك وإعراضه عن الفرس ضرباً من الاستجابة لضيق العرب بالفرس وبسيطرتهم على الحياة الاجتماعية ، وخاصة بعد ما بلغوه من المنزلة ايام اخيه المأمون الذي كان 'يدين لهم بانتصاره على الأمين وظفروه بالخلافة الى حد بعيد .

على انه يجدر بنا ان نلاحظ ان الاتراك لم يخلفوا في الحياة الاجتماعية والادبية اثرأ يذكر ، لانهم لم يكونوا ورثة حضارة كالاعاجم من الفرس ولم يكن لهم في توجيه الشعر والحياة الادبية اثر ذو بال ، ما عدا ما مدح به البخاري احد رجالهم وهو الفتح بن خاقان .

ولقد كان لهذه الظاهرة — ظاهرة العصية العربية — اثرها في الحياة الاجتماعية وفي الشعر والحياة الادبية .

اما في الحياة الاجتماعية فقد حمت العصية بين اليمانية والنزارية وظهرت آثارها في الشعر ، وقد كان فارسها المعلم الشاعر العلوي دعل بن علي الخزاعي الذي يبدو انه كان يعتز بقبيلته خزاعة وما كان لها من البلاء في نصرة المأمون . وقد ادل بذلك في شعره ، فقال للمأمون — وقد بلغه انه توعده :

ويسومني المأمون خطة عارف	أو ما رأى بالأمس رأس محمد
يوفي على هام الخلائق مثلما	توفي الجبال على رؤوس القرد
ويحل في أكناف كل ممنع	حتى يذل شاهقاً لم يصعد
إني من القوم الذين سيوفهم	قتلت أخاك وشرفوك بمقعد (٢٢)
ان الترات مسهد طلابها	فاكف لعابك عن لعاب الأسود

(٢٢) كان طاهر بن الحسين قائد المأمون مولى لخزاعة .

وقد نقض على الكميت بن زيد الاسدي قصيدته التي هجا فيها
اليمانية وافتخر فيها بالنزارية واولها :

ألا حيت عنا يا مدينا وهل ناس تقول مسلمينا
فقال دعبل يفتخر بقومه اليمنية ويهجو نزاراً :

أفيقي من ملامك يا ظعينا كفاك اللوم سر الأربعينا
ألم تحزنك أحداث الليالي يشين الذوائب والقرونا
أحيي الفر من سروات قومي ألا حيت عنا يا مدينا
فإن يك آل إسرائيل منكم وكنتم بالأعاجم فاخرينا
فلا تنس الخنازير اللواتي مسخن مع القروود الخاسينا

الى ان يقول :

لقد علمت نزار أن قومي الى نصر النبوة فاخرينا (٢٤)

وقد اجابه عليها أبو سعد المخزومي فتناول بينهما الهجاء واشتدت
بينهما المناقضة ولم يقف أبو سعد المخزومي لدعبل ولم يبلغ منه شيئاً
فتبرأت منه بنو مخزوم .

ومما يبعث على الاستغراب أن دعبلا والكميت كليهما من شعراء
العلويين ، وأن ولاء دعبل لآل علي ولبنی هاشم عموماً لم يمنعه من هجاء
النزارية وآل علي وبنو هاشم منهم ، وذلك يدل على أن العصبية قد بلغت
عنده مبلغاً جعلته يغفل مذهبه الديني الذي عرف به وبدفاعه عنه واندفاعه
في سبيله .

(٢٤) يشير في ذلك الى الاوس والخزرج انصار النبوة وهم من الازد والازد
من اليمن .

على أن من حق البحث أن نشير الى أن هذه العصبية لم تظهر في القرن الثالث فجأة من دون مقدمات ، بل انتا نجد لها بوادر واصولا في القرن الثاني وعند شاعر لم نعرف عنه إلا انه حرب من بعض الوجوه على قبائل العرب يستهزئ بها ويسخر منها في شعره وهو أبو نواس .

ولأبي نواس شعر يمدح به اليمن ويهجو فيه نزاراً ويدافع فيه عن اليمن ويمجدها ، ويذكر فيه حضارتها العريقة ويمجد أبطالها ويتحدث في ذلك حديث العارف بتاريخها المطلع عليه وعلى مثالب القبائل النزارية . وهو يتناول هذه القبائل بالهزاء واحدة واحدة ويفند مفاخرها ويرد عايبها . وهو يستل من بينها قريشاً كما تسل الشعرة من العجين فيذكر أنه يحبها لحب النبي صلى الله عليه وسلم . قال أبو نواس في قصيدة أولها :

ليست بدار عفت وغيّرها ضربان من قطرها وحاصها
الى أن قال :

فحاتم الجود من مناقبها	فافخر بقحطان غير مكتتب
إذ زالت الهام عن مناقبها	ولا ترى فارساً كفارسها
سد الخيل أسد لدى ملاعبها	عمرو وقيس والأشتران وزب
والسادة الفر من مهالبيها ^(٢٦)	بل مل الى الصيد من أشاعثها ^(٢٥)
.....
واعرف لها الجزل من مواهبها	أحب قريشاً لحب أحملها
كان لنا الشطر من مناسبيها ^(٢٧)	ان قريشاً اذا هي اتسبت

(٢٥) يعني آل الأشعث بن قيس الكندي .

(٢٦) يعني آل المهلب وهم من الأرد .

(٢٧) لعله يريد بذلك بني النجار من الخروج وهم أخوال عبدالله بن عبد المطلب والد الرسول صلى الله عليه وسلم .

ان فاخرتنا فلا افتخار لها ال تجارت من مكاسبها
وانها ان ذكرت مكرمة جاءت تجارتها بغالبها
فاهج نزاراً وابر جلدتها واهتك الستر عن مثالبها
اما تميم فقير داحضة ما سلسل العبد في شواربها (٢٨)
أول مجد لها وآخره ان ذكر المجد قوس حاجبها (٢٩)

وقد كان أبو نواس يدعي النسبة الى اليمن ويزعم أنه حكيم وفي ذلك يقول
له والبة بن الحباب :

يا شقيق النفس من حكم نمت عن ليلي ولم أنم



أما أثر هذه الظاهرة - ظاهرة احياء العvisة العربية - في الشعر
خاصة وفي الحياة الأدبية عامة ، فيبدو في غلبة العرب على الشعر مرة أخرى ؛
فقد صرنا نلاحظ ان الذين غزوا الشعر العربي من الموالي قد قل عددهم
وضعف شأنهم في القرن الثالث على وجه العموم ، وعادوا الشعر حينه الى
القديم فهجر التجديد الذي أصابه في القرن الثاني بعض الهجران ، وعاد
يتمثل في اساليب الشعر الجاهلي والاسلامي صورته المثلى في الموضوع وفي
الأسلوب .

ولم تكن هذه الظاهرة الاجتماعية هي السبب الوحيد لهذه النتيجة
الادبية وانما كانت سبباً قوياً أضيف الى أسباب أخرى منها تدارس الشعر

(٢٨) يعني بذلك القين الذي يعبر به بنو تميم . فكان جرير يهجو الفرزدق
به .

(٢٩) يعني حاجب بن زرارة الذي استرهن كسرى قوسه :
فنحن بلدي قار اذلت سيوفنا أنوف الذين استرهنوا قوس حاجب

القديم بالرواية ومنها عودة الدوافع القديمة للشعر ، تلك الدوافع التي
ضعفت في القرن الثاني - قرن النهضة الحضارية في مناحيها المختلفة - وحل
محلها التأثير بتلك الحضارة الجديدة . وأنا أعني تلك الدوافع والاحداث
الخطيرة التي دأب الشعر العربي على تصويرها والحديث عنها . ولكل
ذلك تفصيل نكتفي هنا بالاشارة اليه ، حتى يأتي مكانه من البحث .



الفصل الثالث

العامل الحضاري

لقد أصبح الشعر في بغداد تتضح فيه آثار الحضارة الجديدة التي دخلت في المجتمع العربي قبل تأسيس بغداد ، وصار الباحث يلاحظ في هذا العصر سلطاناً للحضارة على مناحي الحياة ومنها الادب والشعر حتى كأن الحضارة لم تتغلغل في المجتمع العربي الاسلامي من قبل أو كأن الأمصار الاسلامية قبل بغداد لم تتأثر بالحضارة تأثر بغداد بها . والدليل على ذلك أن الحياة الادبية كانت بمعزل عن التبدل الذي أصاب حياة العرب بعد الاسلام وما دخلها من ألوان الترف واللهو والحياة الناعمة الرخية .

فنحن لانكاد نحس قبيل بغداد أن الشعر صار يشارك في هذا التبدل الذي طرأ على الحياة - وبخاصة في العراق - . ولعل سر ذلك أن هذا التحول لم يتغلغل أو ينفذ في نفوس الشعراء أو يلامس موطن الشعور ومنبع الاحساس فيها فبقوا ينهجون في شعرهم نهج القدماء وخلا شعرهم - الذي يعتد به نقاد الأدب ومؤرخوه - من صور الحياة الحضارية الجديدة في الغالب .

ولعل من أهم الاسباب أيضاً أن مركز الخلافة في العصر الأموي - وهو دمشق - لم يكن بيئة أدبية أو شعرية متميزة وإنما كان مقراً للحكم وتدير الامور العامة وكان أهله في شغل بكل ذلك عن أن يستوعبوا شيئاً جديداً أو قديماً في الادب والشعر .

ولهذا نلاحظ أن البيئة الشامية قد أقفرت من النشاط الأدبي فلا تكاد

تذكر في التاريخ الأدبي بشيء متميز واضح كما تذكر مكة والمدينة والكوفة والبصرة وبغداد بعد ذلك .

ولقد بدأت مظاهر الحياة الحضرية الجديدة تظهر في الحجاز في مكة والمدينة بعد أن تخلى عنهما السلطان وبارحتهما الخلافة الإسلامية ، فكانت مجالس الغناء واللهو وكانت القيان والجواري وكانت نوادي الأدب واللهو والأنس والترف .

١ - حضارة الكوفة والبصرة

وقد انتقل بعض ذلك الى العراق في أيام الدولة الأموية . وكانت الكوفة على وجه الخصوص وارثة هذا اللون من الحياة المترفة فكان فيها القيان وكان فيها الغناء وكان فيها مجالس اللهو التي انحدرت اليها من الحجاز من مكة والمدينة والطائف وكثر في أهلها الندماء والظرفاء حتى اشتهرت بذلك شهرة بلغت مركز الخلافة وعاصمة الملك دمشق .

ولعل قرب الكوفة من الحجاز واتصالها بها من طريق نجد هو الذي أتاح لها أن تقتبس هذه الألوان من حياته ، يضاف الى هذا أنها قد ورثت حضارة الحيرة التي كانت قبل الاسلام موطناً للهو والترف والحياة الحضرية الناعمة .

ويبدو أن الكوفة قد أصبحت في أواخر العصر الأموي الموطن الأول لهذا اللون من الحياة . فكانت تعج بمجالس الغناء والشراب واللهو وكان فيها من يمتحن إعداد هذه المجالس فيهيىء فيها أسباب اللهو لمن يغشاه من الظرفاء وطلاب اللذة ورواد المتعة .

روى صاحب الأغاني عن ابن حبيب أنه قال : كان في الكوفة صاحب قيان يقال له ابن رامين قدمها من الحجاز فكان من يسمع الغناء ويشرب

البيذ يأتونه ويقيمون عنده مثل يحيى بن زياد الحارثي وشراعة بن الزند
ومطيع بن إياس وعبد الله بن العباس المفتون وعون العبادي الحيري ومحمد
ابن الأشعث الزهري المغني .

وكان ابن رامين هذا نازلاً في بني أسد في جيران اسماعيل بن
عمار فكان اسماعيل يغشاه ويشرب عنده ، ثم انتقل من جواره الى بني عائد
فكان اسماعيل يزوره هناك على مشقة لبعدهما .

وكان لابن رامين جوار يقال له سلامة الزرقاء وسعدة ورييحة وكس
من أحسن الناس غناء .

واشترى بعد ذلك محمد بن سليمان سلامة الزرقاء التي يقول فيها
محمد بن الأشعث :

أمسى لسلامة الزرقاء في كبدي صدع مقيم طوال الدهر والأبد
لا يستطيع صناع القوم يشعبه وكيف يشعب صدع الحب في كبدي^(١)

وقد وصف اسماعيل بن عمار ، وكان مفتوناً بقيان ابن رامين ومجالس
أنسه بعض تلك المجالس وتحدث عما كان يجري فيها من ألوان اللهو والطرب
حديثاً فيه تحرر أهل الظرف وانطلاقهم في الشعر، من دون تكلف أو إهمال
روية أو قصد الى التفنن والابداع . وصور لنا في ذلك مرحلة من مراحل
تأثر الشعر بالحضارة وتحرره من تقاليده الأولى . والقصيدة طويلة نرويها
دلالة على ذلك وتسجيلاً لهذا التحول في الشعر العراقي - قال :

هل من شفاء لقلب لج محزون	صب يغيب الى ريم ابن رامين
الى ريحة ان الله فضلها	بحسنها وسامع ذي أفانين

(١) الأغاني ج ١٠ ص ١٢٨ .

ولشفة بعد رائني وفي سين
وأنت تأبين لؤماً أن تطيعيني
من الجوى فأنشي في في وارقيني
أضنيتني يوم دير المالح فاشفيني
عين^(٢) وليس لنا غير البراذين^(٢)
يرضى به منك عين الر بربر العين
بالباح شرقيه فوق الدكاكين
للمسجعي بتشتيت المحبين^(٤)

وهاج قلبي منها مضحك حسن
نفسني تأبى لكم إلا طواعية
أنت الطبيب لداء قد تلبس بي
نعم شفاؤك منها أن تقول لها
يا رب ان ابن رامين له بقر
لو شئت أعطيته مالا على قدر
لا أنس سعدة والزرقاء يوم هما
تغنيان^(٣) ابن رامين على طرب

ثم يمضي على هذه الشاكلة فيصف أنسه وأنس أصحابه في بستان
شورين (ولعله أحد المواضع بالكوفة) وكيف كانوا يشربون حتى يخرجوا
من البستان متشاقلين من السكر فيقول :

فراشي الورد في بستان شورين
بالجردناج وشحاج الشعانين
يمشي الأصحاء منه كالمجانين
كأنها ثقلاء يقلعن من طين
مشي الأوز التي تأتي من الصين
سوى العصي الى يوم السعانين
تيم بن مرة لا تيم العديين
حساء شمطاء وافت من فلسطين

أذاك أنعم أم يوم ظللت به
يشوي لنا الشيخ شورين دواجنه
نسقى طلاء لعمران يعتقه
تزل أقدامنا من بعد صحتها
نمشي وأرجلنا مطوية شللاً
أو مشي عميان عمه لا دليل لهم
في فتية من بني تيم لهوت بهم
حمر الوجوه كأننا من تحشنا

ويبدو أن دار ابن رامين كانت ملاذاً لأهل الهوى ومنتدى لرواد اللهو

(٢) في الأغاني ج ١٠ ص ١٣٠ « وليس لنا الا البراذين » ولعل الصحيح ما أثبتناه .

(٣) في الأغاني « يغنيان » ولعل الصحيح ما أثبتناه .

(٤) هذا على لغة من يقول : وقد جاوزت حد الأربعين .

والأنس والمتعة حتى انه لما حج بجواريه وكان محمد بن سليمان اذ ذاك على
الحجاز ساء ذلك رواد بيته وأحزنهم وافتقدوا ما كانوا يجدونه عنده . فقال
اسماعيل بن عمار :

أية حال يا ابن رامين	حال المحبين المساكين
تركهم موتى وما موتوا	قد جرعوا منك الأمرين
وسرت في ركب على طيبة	ركب تهمام ويمائين
حجبت بيت الله تبغي به الـ	بر ولم ترث لمحزون

فرقت قوماً لا يرى مثلهم ما بين كوفان الى الصين^(٥)

وكان في الكوفة غير دار ابن رامين مواطن أخرى للهو الفاجر يختلف
اليها جماعة من مجان الشعراء كحماد عجرد ومطيع بن اياس . فقد كان
هذان يختلفان الى دار ابي عون نافع بن عون بن المقعد ويجتمعان فيها
بجاريته جوهر وكان حماد عجرد يحبها ويجن بها . وهو يقول فيها :

إني لأهوى جوهرًا	ويحب قلبي قلبها
وأحب من جبي لها	من ودها وأحبها
وأحب جارية لها	تخفي وتكتم ذنبها
وأحب جيراناً لها	وابن الخيثة ربها ^(٦)

ويكني دليلاً على ما وصلت اليه الكوفة من توافر أسباب اللهو فيها
وانصراف طائفة من ظرفائها وأدبائها اليه وتخصصهم فيه أنه كان يطلب منها
الظرفاء والندماء الى سائر الأمصار الاسلامية . حتى أن الوليد بن يزيد لما أراد أن
يختار جماعة من الندماء والظرفاء ينادهم ويعاقرهم الشراب ويعاقرونه

(٥) يراجع في ذلك الاغاني ج ١٠ ص ١٢٨ - ١٣٠ .
(٦) نفسه ج ١٣ ص ٧٩ - ٨١ .

ويأس اليهم أمر شراعة بن الزند أن يسمي له جماعة من الظرفاء من أهمل الكوفة فسمى له جماعة منهم مطيع ابن اياس وحماة عجرد والمطيعي المغني فكتب في إشخاصهم اليه فأشخصوا فلم يزالوا في ندمائه ولم يفارقوه الى أن قتل فعادوا الى أوطانهم (٧) .

ولم تكن البصرة لتخلو من مثل هذه الحياة اللاهية فقد كان فيها من يقتني القيان ويخرجهن الى الناس ويعقد في بيته مجالس اللهو والشراب والغناء . وكان من هؤلاء بالبصرة أبو النضير فقد كان له جوار يغنين ويخرجن الى جلة أهل البصرة وكان أبان بن عبد الحميد اللاهقي يهجو به ذلك (٨) .

وكان للشعراء في البصرة مجالسهم ونواديهم التي يجتمع فيها بعضهم الى بعض ، يجمعهم فيا الشراب واللهو وقول الشعر ينشده بعضهم بعضا ، ذكر صاحب الاغاني رواية عن الجاحظ أنه قال : كان والبة بن الجباب ومطيع بن اياس ومنقذ بن عبد الرحمن الهلالي وحفص بن ابي وردة وابن المقفع ويونس بن ابي فروة وحماة عجرد وعلي بن الخليل وحماة بن ابي ليلى الراوية ويزيد بن الفيض وجميل بن محفوظ وبشار المرث وأبان اللاهقي ندماء يجتمعون على الشراب وقول الشعر ولا يكادون يفترقون ويهجو بعضهم بعضا هزلا وعمدا وكلهم متهم في دينه (٩) .

وكان لبشار بالبصرة مجلسان في بيته يجلس في احدهما بالفداة ويسميه البردان ويجلس في احدهما بالعشي ويسميه الرقيق وكانت النساء تغشاه فيتحدث اليهن ويسمعن شعره ويتنزل بهن وقد ضج من أجل ذلك فقهاء اهل البصرة وعلماءها أمثال الحسن البصري ومالك بن دينار وقد وصف بعض ما كان يجري في مجلسه مما احتج عليه الحسن البصري .

(٧) نفسه ص ٧٦ .

(٨) الاغاني ج ٢٠ ص ٧٤ .

(٩) الاغاني ج ١٦ ص ١٤٣ .

فقال في نساء وردن مجلسه فتغزل فيهن وشاع أمره معهن فقال :

لما طلعتن من الرقي	ق علي بالبردان خمسا
وكأنهن أهـلّة	تحت الثياب زفن شمساً
باكرن عطر لطيمة	وغمسن في الجادي غمسا
لما طلعتن حففنها	وأصخن ما يهمسن همسا
ليت العيون الطارقا	ت طمسن عنا اليوم طمسا
فأصبن من طرف الحدي	ث لذاذة وخرجن قلسا
لولا تعرضهن لي	ياقس (١٠) كنت كأنت قسا (١١)

وقد كان يسقي زائراته من النساء النبيذ ويتحفهن بما لديه من لذيذ
المطعم ويقول فيهن الشعر الماجن المتهتك (١٢) .

ولقد ورث بغداد هاتين البيئتين في حياتها الاجتماعية والعقلية
والحضارية وانتقلت إليها هذه الألوان الجديدة فتأثرت بها في أدبها وفي
شعرها على وجه الخصوص .

٢ - العناصر البغدادية في الحضارة

ولقد زادت بغداد على ما ورثته من الكوفة والبصرة أشياء أخرى ، فقد انتقل
إليها من أهل هذين المصرين طائفة كبيرة وكانت تؤلف جزءاً مهماً من
مجتمعها . وكانت ظروف الحياة فيها مواتية لهذا الطراز من الحياة
الحضرية إذ كان جمال موقعها الطبيعي واعتدال هوائها ووفرة الأنهار
والبساتين فيها مدعاة لأن يزهر فيها غرس الانس والمتعة واللذة . وكان

(١٠) كان بشار بلقب الحسن البصري بالقس لنسكه وورعه ونقواه .

(١١) يراجع في ذلك كتاب بشار بن برد شعره وأخباره ص ٦٨ .

(١٢) نفسه .

الرخاء ووفرة الاموال وحياة الدعة والاستقرار من الاسباب التي دعت اهل بغداد الى الاقبال على اللهو ولانس في مختلف الوانه وضروبه .

ولا ننس في هذا المقام سبباً يكاد يكون رأس هذه الاسباب وهو ان الحياة جرت في بغداد - بعد أبي جعفر المنصور وما وُطد من أركان الخلافة - رخاء هادئة ، لم تعث بها حوادث خطيرة تصرف الناس الى الهم والغم ، وتفسد عليهم مباحج الحياة . وقد كان القرن الثاني كله كذلك على وجه العموم حتى وقع ما وقع بين الامين والمأمون فتغير وجه الحياة في بغداد .

وكان الاقدار ارادت أن تهيم لبغداد أسباب المتعة والانس من كل جانب ، فأوجدتها وسط تلك القرى الآرامية الجميلة التي ورثت حضارة العراق القديمة وأخذت من حضارة الفرس الساسانيين بطرف . وقد كان أهل تلك القرى يحسنون الاستمتاع بالحياة ويجيدون من ضروب اللهو والمتاع كل طريف أنيق . فكانوا يحسنون صنع النبيذ ويهيئون لمن يقصدهم من متعاطيه المكان الجميل النظيف ، ويمتعون أظفارهم بكل جميل من مناظر طبيعية وآدمية .

تحدث اسحق بن ابراهيم الموصلي فقال : قال لي أبي « كنت في شبابي الازم أصحاب قطر بل وباري وبني ^(١٣) وما أشبه هذه المنازل فأتخذ فيهم الخمار اللطيف ، فيجيئونني بالشراب ويخبئونني ^(١٤) لي فجئت الى باري يوماً فلقيني خماري فقال لي : « يا أبا اسحق عندي شيء من بابتك . وقد كنت عملت لحني هذا :

(١٣) قرى كانت قريبة من بغداد محيطة بها . يراجع في ذلك معجم البلدان لياقوت .

(١٤) في الاغاني ج ٥ ص ٢٠ بالجزم ولا وجه له .

اشرب الراح وكن في شربك الراح وقورا
فاشرب الراح رواحاً وظلاماً وبكسورا

قال فدخلت بيته وبذلت دته وجعلت أرجع الصوت فبهت ينظر الي
والنبيد يجري حتى امتلا الاناء وفاض فقلت له : ويحك شراك قد فاض . فقال :
دعني من شرابي . بالله مات لك انسان في هذه الأيام ؟ فقلت : لا . قال :
فما بال حلقك (١٥) هذا حزين (١٦) ؟ »

والظاهر أن سكان هذه القرى كانوا من الآراميين كما أشرنا الى ذلك
وانهم كانوا يتكلمون بالآرامية ويحافظون على علاقتهم بماضيهم ، الامر
الذي يقفنا على أن في حياتهم هذه أثاراً من الحضارة السامية التي نبتت في
وادي الرافدين قبل أن تعرف الحضارة الفارسية طريقها الى الوجود بقرن .
وثمة خبر يدلنا على ذلك جرى لابراهيم الموصلي أيضاً . فقد خرج
الرشيذ ذات مرة فأخرج معه ابراهيم ، وكان به مشغوفاً ففقده في بعض
المنازل أياماً وطلبه فلم يخبره أحد بقصته ، ثم أتاه فقال له : « ويحك ما خبرك ؟
وأين كانت غيبتك ؟ » فقال : « يا أمير المؤمنين حديثي عجيب . نزلنا بموضع
كذا وكذا فوصف لي خمار من ظرفه ومن نظافة منزله كيت وكيت ، فتقدمت
أمام ثقلي وأتيته مخفياً فوافقت أطيب منزل واوسع رجل وأطيب طعام ، وأسخى
نفس من شاب حسن الوجه ظريف العشرة فأقمت عنده فلما أردت اللحاق
بأمير المؤمنين أقسم علي وأخرج لي من الشراب ما هو أطيب واجود ما
رأيت فأقمت ثلاثاً ووهبت له دنائير كانت معي وكسوة وقلت فيه :

سقياً لمنزل خمار قصفت به وسط الرصافة يوماً بعد يومين
ما زلت أرهن أثوابي وأشربها صفراء قد عتقت في الدنّ حولين

(١٥) لا يزال اهل بغداد يسمون اللحن حلقاً فيقولون : حلق صبا وحلق حجاز
ويريدون به لحن صبا ولحن حجاز .

(١٦) الأغاني ج ٥ ص ٢٠ - ٢١ .

حتى إذا قُتلت مني بأجمعها عاودته بالربا دنأ بدنين
 فقال «أزل بشينا» حين ودعني وقد لعمرك زلنا عنه بالشين
 وقوله «أزل بشينا» كلمة سريانية تفسيرها «امض بسلام» (١٧) .

وفي هذا ما يدل على حياة الحضارة التي ازدهرت في بغداد وآتت أكلها
 في الشعر وفي الأدب كانت تستمد أسباب الازدهار من الميراث الحضاري
 الاصيل الذي انحدر الى بغداد من بقايا العراقيين القدماء ، وأن التأثير
 الحضاري لم يكن لحضارة الفرس فحسب كما ذهب الى ذلك فريق من
 أساتذة الأدب المعاصرين (١٨) . بل قد يكون بعض الحضارة الفارسية قسماً
 من حضارة وادي الرافدين تأثر به الفرس ثم ردوه بعد ذلك الى العرب في
 بغداد .

وقد حفلت بغداد يومئذ بالمواضع الجميلة التي كانت تتخذ مسارح
 للأنس واللهو ومجالس للشراب كانت تجمع بين جمال الطبيعة وجمال
 الوجوه . وقد وصفها الشعراء فأكثرُوا من وصفها وتحدثوا عما كان فيها من
 وسائل الانغراء والامتناع .

من ذلك قول أبي نواس :

لا تبك رسماً بجانب السند	ولا تجدد بالدموع للجرد
ولا تعرج على معطلة	ولا أثاث حلت ولا وتد
ومل الى مجلس على شرف	بالكرخ بين الحديق معتمد
ممهد صفقت (١٩) نمارقه	في ظل كرم معرش خضد

(١٧) الأغاني ج ٥ ص ١١ .

(١٨) من هؤلاء الأستاذ نيكلسون في كتابه تاريخ العرب الادبي :
 M. Nicholson : Literary History of the Arabs. P. 285 - 287 .

والدكتور طه حسين في حديث الاربعاء ج ٢ ص ٢٣ وما بعدها .

(١٩) في الديوان ط . صاف صفقت ولعل ما أثبتناه اصوب .

قد لحفتك الفصون أودية فيومك الفض بالنعيم ندي
ثم اصطبج من أميرة ججبت عن كل عين بالصون والرصد

ومن ذلك أيضاً قول علي بن الجهم :

سقى الله باب الكرخ من متنزه الى قصر وضاح فبركة زلزل
مساحب أذيال القيان ومسرح ال حسان ومثوى كل خرق معدّل
لو أن امرأ القيس بن حجر يحلها لأقصر عن ذكر الدخول فحومل

وكان هؤلاء القوم من سكان بغداد القدماء نصارى في الغالب وكانت
لهم أديرة يغشاها الشعراء وغيرهم من أهل الظرف واللّهو ليشربوا من
خمرها وليتمتعوا فيها بالنظر الى حسانها • وقد تحدث عنها أبو نواس في
بعض شعره أيضاً • فمن ذلك قوله في دير حنة :

يا دير حنة من ذات الأكيراح من يصح عنك فإني لست بالصاحي
رأيت فيك ظباء لا قرون لها يلعبن منا بألباب وأرواح

ونحن نطالع إغراء هذه المواضع ، وما كانت تفعله في نفوس الشعراء
فتحملها على الامعان في اللّهو والاغراق فيه والاقامة عليه ، والانصراف اليها
والإي ضروب المتاع فيها ونجد هذه الصورة في شعر أبي نواس أيضاً على وجه
الخصوص • فقد حج أبو نواس وتنسك وكان يخشى على نسكه من
مغريات هذه المرافق التي تسبي الحليم وتفتن الناسك فقال :

قالوا تنسك بعد الحج قلت لهم أرى وأرجو وأخشى طيرنا باذا
أخشى قضيب كرم أن ينازعني رأس القطار وان اسرعت إغذاذا
ما أبعد النسك من قلب تقسّمه قطربّل فقرى بنى فكلواذا
فان سلمت وما قلبي على ثقة من السلامة لم أسلم ببغذاذا

٣ - الغناء والشراب ، الغناء والشعر

وثمة عنصر عتيق من عناصر الحياة الحضرية ورثته بغداد عن الحجاز والكوفة فوجد فيها منبتاً طيباً وتربة خصبة فأتى آكله شهياً جنياً وهو الغناء .
ولقد مر بنا في هذا الفصل أن بعض أهل الحجاز قد رحل الى الكوفة ومعه قيان يغنين الناس في بيته يسمعون فيه الغناء ويتخذون فيه ضروباً أخرى من اللهو . ويبدو أن الكوفة قد أصبحت فيما بعد موطناً مهماً من مواطن هذا الفن .

فقد ولد في الكوفة ابراهيم الموصللي وفيها بدأ يأخذ الغناء ثم طلبه بعد ذلك في الأمصار .

وقد انتقل هذا الفن بطبيعة الحال هو وأهله الى بغداد ، فوجد في مجالس خلفائها وأمرائها الرحبة الناعمة بيئته الملائمة المساعفة فنى وأزهر وأثمر وأصبح في بغداد أشبه شيء بالضرورة في مجالس الأنس واللهو ، ووجدت طائفة المغنين مجالا رحباً فيها ، حتى كانوا يتناوبون الحضور في مجالس الخلفاء للغناء (٢٠) .

وكان الخلفاء ومن اليهم من عليه القوم ورجال الدولة يتذوقون الغناء ويطلبون عليه ، ويجيزون المغنين ويصلونهم بأسنى الصلات . بل كان بعضهم يحسن الغناء ويعرف أصوله ، ويصنع أصواتاً يغنيها هو أو يلقبها على جواريه وعلى المغنين ليغنيوها . كذلك كان هرون الرشيد وكذلك كان الواصلق وكذلك كان ابراهيم بن المهدي وأخته علية بنت المهدي .

فأما ابراهيم بن المهدي وهو أخو الخليفة هرون الرشيد ، فقد بلغ في الغناء منزلة المجيدين وكان صنواً لابراهيم الموصللي وابنه اسحق . وكتب الأدب واخبار حافلة بأخباره وأصواته التي كان يضعها أو

(٢٠) يراجع على سبيل المثال الاغاني والطبري ومروج الذهب .

يغنيها . حتى هجي بالغناء وعيّر به ، هجاه به الشعراء حين ولى نفسه
الخلافة في بغداد زمن المأمون حين فارق مقر الخلافة فقال فيه دعبل بن علي
الخزاعي :

ان كان ابراهيم مضطرباً بها فلتصلحن° من بعد لمخارق (٢١)
ولتصلحن° من بعد ذلك لزلزل (٢٢) ولتصلحن° من بعده للمارق
أنى يكون ولا يكون ولم يكن لينال ذلك فاسق عن فاسق

ويروى صاحب الاغاني أن عليّة بنت المهدي كانت تغني وكان
يعقوب يرمز لها على الغناء (٢٣) .

وكان الواثق يصنع أصواتاً في الغناء ويعرضها على اسحق بن ابراهيم
الموصلي وكان اسحق يغني أصواتاً صنعها الواثق . ولقد قال فيه اسحق :
ما كان بحضرة الواثق أعلم منه بالغناء (٢٤) على كثرة ما كان في حاشيته
من المغنين .

وممن كان يحسن الغناء من أهل بيت الخلافة عبد الملك بن صالح
العباسي ومن الوزراء جعفر بن يحيى البرمكي (٢٥) .

وكانت عليّة بنت المهدي تقول الشعر وتغنيه وكان اخوها هرون
الرشيد يعلم بذلك وقد غنت جارية من جواريه ذات يوم :

ياموري الزند قد أعيت قوادحه اقبس إذا شئت من قلبي بمقباس
ما أقبح الناس في عيني واسمجهم إذا نظرت فلم أبصرك في الناس

-
- (٢١) مخارق مغن معروف .
(٢٢) زلزل ضارب على العود من معاصري ابراهيم .
(٢٣) الاغاني ج ٩ ص ٨٤ .
(٢٤) الاغاني ج ٥ ص ٩٠ - ١١٢ .
(٢٥) الاغاني ج ٩ ص ٨٣ - ٨٥ .

فأراد الرشيد أن يعرف الصوت فأسرت اليه الجارية انه لعلية أخته .
وروى أبو الفرج عن احمد بن زيد قال : حدثني أبي قال : كنا عند
المنتصر فغناه منان لحناً من الرمل الثاني :

يا ربة المنزل بالبرك وربّة السلطان والملك
تخرجي بالله من قتلنا لسنا من الديلم والتترك

فضحكت فقال لي : مم ضحكت ؟ قلت : من شرف قائل هذا الشعر وشرف
من عمل اللحن فيه وشرف مستمعه . قال : وما ذلك ؟ قلت : الشعر فيه
للرشيد والغناء لعلية بنت المهدي وأمير المؤمنين مستمعه (٢٦) .

وانما سقنا هذه الاخبار ليتصور مدى المكافاة التي بلغها فن الغناء
في المجتمع البغدادي وما كان له من أثر بعيد في حياة بغداد
الاجتماعية والادبية .

وقد كان باعث النهضة الغنائية في بغداد ابراهيم بن ميمون (أو ماهان)
الموصلي . فقد بدأ ابراهيم هذا يأخذ الغناء بالكوفة مسقط رأسه - كما
سلف بيانه - ثم طلبه في بلاد اخرى كالموصل والري واتصل بعد ذلك
بالمهدي وحظي عنده .

وكان ابراهيم يتصرف في الغناء تصرفاً فاق فيه قدماء المصنفين وظهر
عليهم . إذ المعروف عند أهل الفن - كما يقول أبو الفرج - ان لكل واحد
من المشاهير مذهباً في الخفيف والثقيل وكان معبد ينفرد بالثقيل وابن سريج
بالرمل وحكم بالهزج ولم يكن يتصرف في كل مذهب من الاغاني إلا ابن
سريج وابراهيم وابنه اسحق (٢٧) .

(٢٦) الاغاني ج ٩ ص ٨١ - ٨٢ .

(٢٧) الاغاني ج ٥ ص ٣٤ .

وكان ابراهيم الموصلي حفيظاً على تراث القدماء من المغنين فكان يغني
الخلفاء ما كانوا يستحسنون من اصواتهم . فقد غنى موسى الهادي لحن
ابن سريج في قول أبي صخر الهذلي :

وإني لتعروني لذكراك هزة كما انتفض العصفور بلله القطر
..... الخ (٢٨)

وكان يعارضهم احياناً اخرى فيصنع اللحن في صوت صنعه ابن سريج
وكان يقصر في ذلك بعض الاحيان فيعيبه عليه ابنه اسحق . ذكر ابو الفرج
رواية عن اسحق قال : لما صنع أبي لحنه في « ليت هنداً أنجزتنا ما تعد »
خاصته وعبته في صنعته وقلت له : أما بازائك من ينتقد أنفاسك ويعيب
محاسنك وانت لا تفكر ، تجيء الى صوت قد عمل فيه ابن سريج لحناً
فتعارضه بلحن لا يقاربه والشعر اوسع من ذلك . فدع ما قد اعتورته
صناعة القدماء وخذ في غيره ... الخ (٢٩)

ولقد احدث ابراهيم الموصلي في الحياة الحضرية - فيما يتصل منها
بالغناء - حدثاً جديداً ، ذلك ان الناس من قبله وفي زمنه كانوا يعلمون
الغناء للصفر والسود من الجواري ، وكان أول من علم الجواري الحسان
الغناء ابراهيم الموصلي وبلغ بهن في الغناء كل مبلغ ، فارتفعت اقدارهن
وغلّت قيمتهن . وفي ذلك يقول أبو عيينة المهلب ، وقد كان هوي جارية
يقال لها أمان فأغلى بها مولاها السوم ، وجعل يرددها الى ابراهيم الموصلي
وابنه اسحق فتأخذ عنهما ، فكلما زادت في الغناء زاد في سومه ،
فقال ابو عيينة :

قلت لما رأيت مولى أمانا قد طغى سومه بها طغيانا

(٢٨) نفسه ص ١٥ .
(٢٩) الاغاني ج ٥ ص ٢١ .

لا جزى الله الموصلي أبا اسحق عنا خيراً ولا احساناً
 جاءنا برسلاً بوحى من الشيطان أغلى به علينا القيانا
 من غناء كأنه سكرات الـحب يصبي القلوب والآذاناً (٣٠)

وجاء بعد ابراهيم الموصلي ابنه اسحق ، فكان ظهوره حدثاً خطيراً
 في تاريخ الغناء فهو الذي وضع لهذا الفن قواعده واصوله وبيّن طرائقه
 وميّز اصنافه بعضها عن بعض ولم يكن من قبله كذلك .

« واستخرج بطبعه علماً رسمته الاوائل ، لا يوصل الى معرفته إلا بعد
 علم كتاب اقليدس الاول في الهندسة (٣١) » . وقد أعانه على ذلك ذكاء
 ودراية ورواية وطبع شعري وذوق فني أدهش معاصريه وبهرهم .

واسحق الموصلي هو الذي اختار للرشيده ما يعرف بالاصوات المائة
 المختارة التي وضع أبو الفرج الاصبهاني (٣٢) فيها كتاب الاغاني . فهو اذن
 الذي انتقل بالغناء من فن يقوم على التلقي بالسمع من دون ضوابط
 وقواعد الى فن له اصوله المعروفة وقواعده الموضوعية واصنافه المسماة
 بأسمائها المعروفة بسماتها .

ويبدو أن ما فعله اسحق بالغناء قد جعل الغناء العربي فناً مستقلاً
 متميزاً ذا طابع يتبينه الحاذق في انعامه فلا تختلط عليه بغيرها بل يستطيع
 ان يتبينها ويميزها عما سواها . وقد كان اسحق يمتحن في هذا فيدس له
 الصوت الاجنبي في ثنايا الغناء فيستطيع أن يدل على مكانه . ويبدو انه
 كان على معرفة بالغناء الاجنبي ايضاً . روى ابو الفرج بسنده عن اسحق
 ابن ابراهيم الطاهري قال : حدثتني مخارق مولتنا قالت : كان لمولاي الذي
 علمني الغناء فراش رومي وكان يغني بالرومية صوتاً مليح اللحن فقال لي

(٣٠) الاغاني ج ٥ ص ٨ - ٩ .

(٣١) الاغاني ج ٥ ص ٤٩ - ٥٠ .

(٣٢) يراجع الجزء الاول من كتاب الاغاني ص ١ وما بعدها .

مولاي : يا مخارق خذي هذا اللحن الرومي فانقلبه الى شعر من اصواتك العربية حتى امتحن به اسحق الموصلي فأعلم اين يقع من معرفته . ففعلت ذلك . وصار اليه اسحق فاحتبسه مولاي فأقام وبعث إلي مولاي ان ادخلي اللحن الرومي في وسط غناءك . فغنيت اياه في درج اصوات مرت قبله فأصغى اليه اسحق وجعل يتفهمه ويقسمه ويتفقد اوزانه ومقاطعته ويوقع عليه بيده ثم اقبل على مولاي فقال . هذا صوت رومي اللحن فمن ايسن وقع اليك الخ (٣٣) .

ولقد كثرت من اجل ذلك مجالس اللهو والانس في بغداد فكانت في بيوت الخلفاء مجالس للغناء والشراب يتبارى فيها المغنون في إطراب الخلفاء وفي اتحافهم بكل صوت جيد حسن الصنعة ، فأخبار هذه المجالس تحفل بها كتب الأدب والتاريخ ، ولاتكاد سيرة واحد من الخلفاء بعد المنصور تخلو من أخبار وافرة عن مجالس أنسه وشرابه ، وما كان يجتمع لديه من المغنين وأخباره معهم . نذكر من ذلك على سبيل المثال ما تحدث به ابراهيم الموصلي عن هرون الرشيد فقال: جمع الرشيد ذات يوم المغنين فلم يبق احد من الرؤساء الا حضر وكنت فيهم وحضر معنا مسكين المدني ويعرف بأبي صدقة وكان يوقع بالقضيب مطبوعاً حاذقاً طيب العشرة مليح البادرة . فاقترح الرشيد وقد عمل فيه النيذ صوتاً فأمر صاحب الستارة ابن جامع ان يغنيه ففعل فلم يطرب عليه ثم فعل ذلك بجماعة ممن حضر فلم يحرك منه أحد . فقال صاحب الستارة لمسكين المدني : يأمرك أمير المؤمنين ان كنت تحسن هذا الصوت فغنه . قال ابراهيم : فاندفع فغناه فأمسكنا جميعاً متعجبين من جرأة مثله على الغناء بحضرتنا في صوت قد قصرنا فيه عن مراد الخليفة قال ابراهيم : فلما فرغ منه سمعت الرشيد يقول : يامسكين أعدده . فأعاده بقوة ونشاط ، فقال : أحسنت وأجملت . ورفعت الستارة

بيننا وبينه (٣٤) •

وكان في بغداد الى جانب مجالس الخلفاء والوزراء مواضع ومنازل يتخذها أصحابها نوادي للغناء واللهو فيها القيان اللواتي يحسن الغناء وفيها غير ذلك من وسائل اللهو وكان يغشاها الفتيان الظرفاء فيأخذون بأطراف من اللذة وأفانين من المتعة يستعمون فيها الى الغناء ويغازلون القيان ويشربون ويلهون • وقد وصف لنا بعض هذه المنازل علي بن الجهم وقد كان يعاشر جماعة من فتيان بغداد وكانوا يغشون منزلاً لأحد المغنين بالكرخ يقال له المفضل • قال :

نزلنا بباب الكرخ أطيّب منزل على محسنات من قيان المفضل
فلا بن سريج والغريض ومعبّد بدائع في أسماعنا لم تبدل
ويصف القيان فيقول فيهن :

أوانس ما للضيف منهن حشمة ولا ربهن بالجليل المجلل
ثم يصف صاحب المنزل ، وكيف كانوا يطمعون بالهدايا الكثيرة من نبيذ معسل وغير ذلك ثم يفعلون بعد ذلك ما شاء لهم المجنون وما شئت لهم الخلاعة أن يفعلوا فيقول :

يُسّر إذا ما الضيف قل حياؤه ويفغل عنه وهو غير مغفّل
ويكثر من ذم الوقار وأهله إذا الضيف لم يأنس ولم يتبدّل
ولا يدفع الايدي المريبة غيرة إذا نال حظاً من لبوس ومأكّل
ويطرق اطراق الشجاع مهابة ليطلق طرف الناظر المتأمل
أشرب يد واغمز بطرف ولا تخف رقيباً إذا ما كنت غير مُبْخَل
وأعرض عن المصباح والهج بمثله فان خمد المصباح فادن وقبّل
وسل غير ممنوع وقل غير مسكت ونم غير مذعور وقم غير معجل
لك البيت ما دامت هداياك جمة وكنت ملياً بالنبيذ المعسل

(٣٤) يراجع في ذلك المروج ج ٣ ص ٢٧٨ وما بعدها •

١ آثار الحضارة العامة في الشعر

أما علاقة الشعر بالغناء وتأثره به فأمر هو أوضح من أن يدل عليه ، إذ الغناء لا يكون الا بالشعر والمغنون يختارون لانغامهم من الشعر ألصقه بالمواظف وأقربه الى النفوس وأحلاه لدى الاسماع ، ولشيوخ الغناء وذيوه الاثر الاكبر في الاهتمام بموسيقى الشعر من حيث الاوزان وتناسق الالفاظ وانسجامها وتناسب موسيقاها .

ويجدر بنا أن نتذكر هنا أثر الغناء في شعر الحجاز فقد برّاه من ثقل اللفظ وغريبه ونزّهه من متنافره ومستكرهه .

ويتأتى تأثير الشعر بالغناء من طريقين أحدهما أن الغناء والموسيقى يهذبان أذواق الشعراء فيتخيرون الالفاظ والاوزان مما تلذه الاسماع وتعلق به القلوب ، والاخر انهم يجتهدون في التقرب من اذواق المغنين والموسيقين ليحملوهم على اختيار اشعارهم للغناء فيقصدون الى المعاني والاغراض التي تصلح للغناء ويحاولون ان يجوّدوا فيها .

تلك أهم آثار الغناء في الشعر من الوجهة العامة .

وقد كان للغناء في بغداد أثر آخر في الشعر ، ذلك ان الخلفاء والوزراء والرؤساء كانوا يستحبون ان يسمعوا الشعر غناء اكثر مما يحبون ان يسمعوه إنشاداً ، فكان الشعراء اذا ارادوا أن يبلغوا بشعرهم من الخليفة أو غيره مكاناً لطيفاً قريباً من نفسه ، فانهم كانوا يدفعون بالشعر الى المغنين ليغنوه في حضرة الخليفة . فقد كان مصعب بن عبدالله الزبيري يروي شعره فليح ابن ابي العوراء ليغني مدائحه للمهدي (٣٥) .

ولما ولي الرشيد الخلافة وجلس للشرب بعد فراغه من احكام الامور ودخل عليه المغنون كان اول من غناه ابراهيم الموصلي بشعره فيه وهو :

(٣٥) الاغاني ج ٤ ص ٩٩ .

إذا ظلم البلاد تجللتها فهارون الامام لها ضياء
بهارون استقام العدل فينا وغاض الجور واتسح الرجاء
رأيت الناس قد سكنوا اليه كما سكنت الى الحرم الطباء
تبع من الرسول سبيل حق فشأنك في الامور به اقتداء (٣٦)

وكان الخلفاء اذا سمعوا الشعر فاستحسنوه يأمرؤن المغنين ان يضعوا فيه
اللعن ويغنوه ليستكملوا بذلك تلذذهم به وتذوقهم إياه • تحدث أسحق
الموصلي فقال : لما ولي المعتصم دخلت اليه في جملة الجلساء والشعراء فهناه
القوم نظماً ونثراً وهو ينظر الي مستنطقاً فأنشدته :

لاح بالفرق منك القير وذوى غصن الشباب النضير
هزئت أسماء مني وقالت أنت يا ابن الموصلي كبير
الى أن قال :

يا بني العباس أتم شفاء وضياء للقلوب ونور
وأبو اسحق خير إمام ماله في العالمين ظير
..... • • • • • الخ

ثم أمرني أن أصنع فيه لحناً فصنعت وغنيته (٣٧) •

وكان ابراهيم الموصلي اذا عنت له حاجة يريد قضاءها قالها شعراً
وصنع للشعر لحناً ثم لقنه أحد أصحابه وأرسل به الى من يرجوه لقضاء
تلك الحاجة • كما فعل مع يحيى بن خالد البرمكي وابنيه الفضل وجعفر •
وكان من آثار ذلك في الشعر أنه أصبح أداة للغناء الى مدى بعيد
وتحول عن أن يكون إنشاداً في محفل الى أن يصبح مغنى في مجلس ، فلم

(٣٦) الأغاني ج ٥ ص ٢٣ •

(٣٧) الأغاني ج ٥ ص ٦٤ - ٦٥ •

يعد يستحسن فيه القصائد الطوال وما كانت تشتمل عليه من موضوعات متعددة من النسيب الى وصف الناقة والصحراء التي تقطعها الى الممدوح ، أو نحو ذلك من المعاني بل لقد استحال جزء كبير من شعر هذا العصر مقطعات قصيرة يقصد فيها قائلها الى ان تصلح ليغنيها احد المغنين ، فتقع من نفس الممدوح أو المرجو في موقعها الذي يريده الشاعر .

ولا مراء بعد ذلك أن الشعراء أخلق بأن يألّفوا المغنين وأن يتلذذوا بغنائهم ويتذقوا فنهم ، ولقد كلنوا فعلا أحرص الناس عليهم في هذا العصر وأشدهم تعلقاً بهم ، يشفقون إذا أصابهم مكروه ، ويحزنون لهم إذا ألت بهم نازلة . وقد حبس المهدي ابراهيم لأنه كان نديماً لابنيه موسى وهرون يشاركهما في الشراب واللهو ، فحزن الشعراء لذلك فقال أبو العتاهية يخاطب سلماً الخاسر :

سلم يا سلم ليس دونك سر	حبس الموصللي فالعيش مر
ما استطاب اللذات مذ سكن المط	بق رأس اللذات والله حر
ترك الموصللي من خلق الله	جميعاً وعيشهم مقشعر
وقال أيضاً يتوجع لما أصابه :	

أيا غمي لغمك يا خليلي	ويا ويلي عليك ويا عويلي
يعز علي أنك لا تراني	وأني لا أراك ولا رسولي
وأنت في محل أذى وضنك	وليس الى لقاءك من سبيل
وأني لست أملك عنك دفعا	وقد فوجئت بالخطب الجليل

وهذا الصلة العاطفية بين المغنين والشعراء تمهد للتجاوب النفسي والاتصال الفني والتأثر الذي وقع ، فأحدث في الشعر معاني جديدة وأظهر فيه فنوياً أصبحت ضرورة من ضرورات الحياة . بعد أن قضت ظروف الحياة في تلك الحقبة وأعني بها الشطر الأكبر من القرن الثاني أن تضعف في الشعر

فنون تضاءلت دواعيها أو انحرف مجراها وحل محلها جديد يوائم طبيعة تلك الحياة السياسية والاجتماعية والحضرية .

وكانت آثار الحضارة في شعر بغداد على شاكلتين : الأولى يلتقي فيها الشعر بسائر مظاهر النشاط الاجتماعي في حياة المجتمع البغدادي وأظهر ما فيها تخلص الشعر من طبيعة البداوة الى حد كبير ، تلك التي لم تكن تعني إلا بالتعبير الفصيح عن أغراضها ومشاعرها ، وأصبح الشعر في بغداد حضرياً الى حد كبير يعنى بمظاهر الحضارة من رقة في الطبع وأناقة في المظهر وتناسق بين الأجزاء . وصارت الصناعة واعمال الفن في الشعر والرواية والعناية بالافراج الفني عنصراً من أهم عناصر الشعر ، بل صار أهم عنصر فيه عند من تشربوا روح الحضارة واندمجوا فيها واصبحوا جزءاً منها .

على أن هذا التأثير بالحضارة لم يؤت ثماره دفعة واحدة وإنما بدأ عند بعض الشعراء ثورة على القديم جامحة تريد أن ينسلخ منه الشعر جملة واحدة فيعرض عن المعاني الموروثة التي يتناقلها الشعراء تقليداً للأسلاف من دون أن يحسوا بها وأن يشعروا بها ، ولم يقبض لتلك الثورة الجامحة أن تحقق ماتريد ولكنها لفتت الشعراء الى الحياة الحضرية الجديدة وجذبهم اليها شيئاً فشيئاً ، فكان أن أقبلوا عليها يستمدون منها أغراضهم ومعانيهم ثم أخذ الشعر يمثل الحضارة شيئاً فشيئاً ، ويأخذ منها ما يلائمه ويقتبس ما يوافقه من الوجهة الفنية ، وهو يحتفظ في الوقت نفسه بما يجد أن لامناص من الاحتفاظ به من القديم . حتى أصبح الشعر وهو يحمل طابع الحضارة في الذوق وفي المظهر والصورة ، ولم يعد يكفي من الشعر عند الشعراء والنقاد التعبير الموجز الفصيح عن الأفكار والمشاعر ، بل أخذوا يتلمسون من مظاهر الأناقة في الشعر القديم مايتخذونه أساساً لتجميل الشعر والابداع فيه . وهكذا كان البديع هو الثمرة الحقيقية التي تتجتها الحضارة في الشعر ، وكانت التربة التي أنبتتها هي بغداد .

اما الجانب الثاني من تأثر الشعر بالحضارة فيتجلى في شيوع الرقة
والدماثة والحس المرهف الدقيق • وظهر ذلك في أسلوب الشعر وفي أفكاره
ومعانيه ، فأما الأسلوب فقد تبرا من الغريب ومال الى اليسر والعذوبة
والسلاسة ، وجانب أكثر ما ورثه الشعر من آثار البداوة في التراكيب وفي
صور التعابير • وأما في المعاني والأفكار فقد أصبح الشعر حاجة حضارية
ان جاز هذا التعبير ، تحتاج اليها النفوس المنعمة المترفة لتستكمل بها
مظاهر النعمة وتستقيم بها وجوه اللذة والمتعة • وأصبح في مجالس الشراب
والغناء والأنس أشبه شيء بالنقل الشهي والريحان العطر • فمن أمثلة ذلك
ما يروى عن الرشيد أنه كان في مجلس غناء يسمع ويضطرب اذا بوصيفة
أقبلت على المجلس ومعها تفاحة مكتوب عليها بغالية :

سرورك ألهاك عن موعدي فصيرت تفاحتي تذكره
فأخذ الرشيد تفاحته وكتب عليها بغالية :

تقاصيت وعدي ولم أنسه فتفاحتي هذه معذره
ثم قال لأحد ندمائه - وهو خالد بن يزيد الكاتب - ياخالد قل في هذا
شيئا • فقال :

تفاحة خرجت بالدرّ من فيها أشهى الي من الدنيا ومن فيها
بيضاء من حمرة علت بغالية كأنما قطفت من خد مهديها

وقد حملت الحضارة طائفة كبيرة من الشعراء على أن تقول الشعر في
موضوعات وأغراض قريبة المنال هي أدنى الى الهزل والعبث والترويح عن
النفس - في نظر النقاد القدماء على الأقل - • من ذلك غرام طائفة من
الشعراء بالأوصاف لذاتها من دون أن تكون وسيلة الى غرض آخر • كما
كان حالها في القديم ، فأصبحوا يصفون ماتقع عليه حواسهم من الحيوان
والجماد من غير أن يتقيدوا بطريقة القدماء في الوصف • فبينما كان القدماء

يعنون بوصف الناقة والفرس وبقر الوحش ونحو ذلك من حيوان الصحراء
أصبح شعراء بغداد يصفون اليمامة وما إليها من الحيوان الأليف في المدينة .
ومن أجمل ذلك مارواه المسعودي لبعض الشعراء في وصف حمامة :

هتفت هاتفه آ ذنها إلف بين
ذات طوق مثل عطف النون أقصى الطرفين
وترى ناظرة نحـوك من ياقوتتين
ترجع الأنفاس من ثقبين كاللؤلؤتين
وترى مثل البساتين لها قادمتين
ولها ساقان حمرا وان مثل الوردتين
نسجت فوق جناحيها لها برنوستين
..... الخ

والوصف تصوير ، والتصوير يحتاج الى أداة تعرض بها الصور عرضاً
مؤثراً جميلاً ، وأعسر ما يكون التصوير الدقيق بالألفاظ . ومن أجل ذلك
كان الشعراء يجتهدون في تقريب الأوصاف من أخيلة السامعين والقارئین
فيلجأون الى التشبيه ، ويلجأون الى المجاز ، ومن هنا أيضاً شاعت الصور
البيانية في شعر الوصف على وجه الخصوص ، وعرف الوصافون بالاكثار
منها حتى لقد وضع أحدهم قواعد هذا الفن الذي أغرم به في شعره الوصفی،
وذلك هو ابن المعتز في كتابه البديع .

ومما أحدثته الحضارة في معاني الشعر أن بعض أغراضه القديمة قد
أصابها تحول ظاهر واضح من جراء الحضارة ، فدخلت المعاني الحضارية في
الرثاء ، فصرنا نرى رثاء المغنين وأهل اللهو تشيع فيه معان لم يعهدها الرثاء
في الشعر العربي . فبينما كان يرثى قديما بصفات النجدة والمروءة والكرم
والشجاعة وما الى ذلك من الصفات أصبح بعض الناس في بغداد يرثى بمثل
مارثى به بعض الشعراء ابراهيم الموصلي فقال :

تولى الموصلي فقد تولت بشاشات الزاهر والقيان
وأى بشاشة بقيت فتبقى حياة الموصلي على الزمان
ستبكيه الزاهر والملاهي وتسعدهن عاتقة الدنان

وبينما كان يرثى الميت بأنه بكته الخيل والسيوف والجفان والأضياف أصبح
بيكيه الهوى والشراب والعود ومن يضرب عليه :

أصبح اللهو تحت غفر التراب ثاوياً في محلة الأجاب
اذ ثوى الموصلي فانقرض اللهـ وبخير الاخوان والاصحاب
بكت المسمعات حزناً على وبكاه الهوى وصفو الشراب
وبكت آلة المجالس حتى رحم العود دمة المضرب

وفي الحق أن رثاء المغنين وأهل اللهو يصور لنا جانباً من تأثر الشعر
بالحياة الحضرية الجديدة ، حتى نحار في ذلك الرثاء أيقصد فيه قائلوه الى
الهزل والعبث والمجنون ، أم يقصدون به الى الحزن والبكاء بحق ؟ والظاهر
أن مثل هذا الشعر لم يكن حزناً كله بل كانت طائفة منه مجوناً وهزلاً . من
ذلك قول اسحق الموصلي يرثى هشيمة الخمارة وكانت جارته :

أضحت هشيمة في القبور مقيمة وخلت منازلها من الفتيان
كانت اذا هجر المحب جيبه دبّت له في السر والاعلان
حتى يلين لما تريد قياده ويصير سيؤه الى الاحسان

وكان بعضه حزناً لاشك فيه كقول جارية زلزل ترثيه :

أقصر من أوتاره العود فالعود للآوتار معمود
وأوحش الزمار من صوته فما له بعدك تغريد
من للزمير وعيدانها وعامر اللذات مفقود
الخمير تبكي في أباريقها والقينة الخمصانة الرود

وحسبنا هذا دليلاً على أثر الحضارة في الشعر أشاعت فيه المرح
والبشاشة وملأته بصورها المشرقة البهيجة حتى لم يكد يفارقها حتى في
مواطن الجد والحزن والبكاء .



وجملة الأمر أن الشعر قد خضع في بغداد لعامل الحضارة وتأثر به
تأثراً واضحاً لم يكد الشعر العربي يعرفه من قبل ، وكانت مظاهر هذا
التأثر - التي أشرنا ما استطعنا أن نستدل عليه منها - ليست سواء في البقاء
والاستمرار ، فكان بعضها آنياً لم يكتب له الامتداد في حياة الشعر ،
كالمعاني التي استحدثتها الحضارة في الشعر من وصف لمجالس الأنس
والشراب ، وغير ذلك من مظاهر الترف والنعمة ، وكالذي أشرنا إليه قريباً
من المعاني الجديدة في الرثاء وما أشبه ذلك من الهزل والعبث والمرح في الشعر .

ولعل السر في عدم استمرارها أنها كانت آثاراً قريية لم تتغول في
طبيعة الشعر ولم تبلغ قرارته ، بل لم تجاوز منه الشكل والمظهر ، أما الأثر
الباقى من آثار الحضارة فهذا الذوق الذي اشاعته الحضارة في الشعر ،
فجعلته فناً يقصد فيه الى الجمال والابسداع ، ولا يكتفى فيه بالصراحة
والاستقامة والوضوح وسلامة التعبير من آفة التعقيد والاضطراب .

وقد بقي هذا الذوق الحضاري في الشعر لانه أثر بعيد من آثار
الحضارة ، بل هو خلاصتها وزبدتها ، فبعد ان مخض الشعر كل ما تركته
الحضارة فيه من آثار استخلص منها ذوقها وروحها فاحتفظ به وحافظ
عليه . ويدلنا على ذلك ان ذلك لم يظهر في الشعر مبكراً كغيره من مظاهر
الحضارة ، وانما انتظر ان يتمثل الشعر الحضارة ويطويعها وينقاد لها ، ولم
يتم ذلك الا في اواخر القرن الثاني واول القرن الثالث للهجرة .

الفصل الرابع

العامل العقلي

لقد اصاب العراق في اواخر العصر الاموي تطورا في الحياة الاجتماعية والفكرية والادبية مهد لما شهدته بغداد - باعتبارها مركز الخلافة - من ازدهار في الادب والعلم . وكان لابتعاد العراق عن الحكم من بعض الوجوه اثره في هذا التطور ، كما كان لموقعه قريبا من بلاد الاعاجم اثره في ذلك ايضا .

وكأن انشاء بغداد كان هو واليقظة العلمية الجبارة على ميعاد ، ففي هذه الحقبة - اواخر النصف الثاني من القرن الاول - اتجه العلماء الى تمييز العلوم بعضها عن بعض ، ولم الشئ منها الى شئته ، واخذوا في تدوين العلوم ، فدونت كتب العربية واللغة والتاريخ وايام الناس والفقه والتشريع^(١) كما سبق ان اشرنا الى ذلك في اول هذا البحث^(٢) .

١ - تراث البصرة والكوفة

وقد ورثت بغداد البيئتين العلميتين الكبيرين بيئة الكوفة وبيئة البصرة ، وقد كان لكل منهما لون من الثقافة متميز ، وطريق في العلم يختلف عن الاخرى ، إذ كانت الكوفة على طرف الصحراء اقرب ما تكون الى جزيرة

(١) تراجع في ذلك ضحى الاسلام ج ٢ ص ١١ .

(٢) تراجع الفصل الثاني من الباب الاول .

العرب ، وكان محصولها من تراث الجاهلية وافرا عظيما ، وكانت الى جانب ذلك وارثة الحيرة عاصمة المناذرة ، وهي بيئة من بيئات الجاهلية الحضرية التي تأثرت بالفرس حلقائها من ناحية وبالحضارة القديمة - على ما يرجح - من ناحية اخرى ، وخلفت من اجل ذلك في الادب ذكرا وأثرا واضحا .

ويظهر أن الكوفة قد أصبحت في أواخر العصر الأموي هي المرجع في الرواية ، فكان فيها حماد الراوية والمفضل الضبي وغيرهما ممن حفظوا تراث الجاهلية ، حتى لقد كان رواتها هم المرجع الأول لمن يريد أن يقف على شيء من الشعر القديم . وحسبنا أن الوليد بن يزيد لما أراد أن يقف على قصيدة عدي بن زيد العبادي التي يقول فيها :

بكر العاذلون في وضح الصب - - - - -
ح يقولون لي ألا تستفيق

لم يجد بداً من أن يبعث في طلب حماد الراوية من الكوفة لينشده هذه القصيدة .

وثمة أمر آخر أحسب أن له حظه من الخطر وهو أن الكوفة تقع قريبة من بابل عاصمة العموريين والكلدانيين من بعدهم ، والبابليون قوم سبقوا الى الحضارة وعرف عنهم التاريخ أنهم أقدم من وضع الشرائع وسن القوانين ، وفي الكوفة ولد أبو حنيفة وهو أول من صنف في الفقه والرأي وقال بالقياس .

وليس من المستبعد أن تكون آثار الحضارة العراقية قد وصلت الى الكوفة في صورة من الصور ، فتأثر بها أهلها تأثراً كان بعض القدماء يلحظه فيهم . حتى إن أبا عمرو بن العلاء المازني التيمي - وهو من علماء البصرة ورواتها - كان يقول لاهل الكوفة موازناً بينهم وبين اهل البصرة : لكم حذقة النبط وصلفهم ولنا دهاء فارس واحلامهم^(٣) وليس النبط

(٣) البيان والتبيين ج ٢ ص ٨٩ .

الا خليطاً من سكان العراق القدماء والعرب ممن سكن السواد وفيهم قطعاً أثارة من حضارة العراق القديمة .

والبيئة العقلية الاخرى كانت بيئة البصرة وهي تختلف في تكوينها وفي طابعها عن بيئة الكوفة ، انها كانت أقل احتفالاً بالرواية والاخذ عن القدماء ، واحفى بالافكار الجديدة التي طرأت على البلاد الاسلامية بعد ان شارك غير العرب في الحياة الاسلامية .

ولم تكن البصرة في الحقيقة اقل اتصالاً بالجزيرة من الكوفة ، ولم تكن في ماضيها أقل شأناً منها في الحفاظ على التراث الجاهلي في الشعر ، وبحسبها انها بيئة الفرزدق وجريز وأمثالهما من فحول الشعر . وإنما الذي ميزها عن الكوفة هذا التمييز انها كانت بحكم موقعها ملتقى اقوام واجناس مختلفة ، وكان هذا يشحن اليها وفراً من الافكار والعقائد والنزعات . هذه ناحية ولعل الناحية الاخرى اهم منها واطهر ، ذلك انها كانت من اول امرها مضطراً للآراء وموطناً لاختلاف المذاهب والخصومات بين الرعيل الاول من حملة الاسلام وصحابة الرسول كعلي وعائشة وطلحة والزبير ، وكانت المنبت الاول للخوارج الذين لم يرتضوا احداً من المتخاصمين علي ومعاوية ، وكان الجدل والخصام وتضارب الآراء بين اصحاب المذاهب المختلفة سبباً ودافعاً قوياً بعثهم على السعي الى كل ما يمكن ان يستخدموه في دفاع كل منهم عن مذهبه وما يدين به ، والرد على خصومه والاحتجاج عليهم .

وهكذا تسربت الى البصرة الافكار الاجنبية لحاجة الفرق المختصة اليها ، وكان طابع البصرة في ثقافتها يغلب عليه جانب العقل والدراية ويضعف فيه جانب النقل والرواية . على انه كان فيها من جلة الرواة امثال ابي عمرو ابن العلاء والخليل بن احمد وسواهما .

ومن اجل ذلك ازدهر في البصرة علم الكلام وقوي واشتد عوده ، وقد كان للمعتزلة الذين اتخذوا البصرة معقلاً لمذهبهم الاثر الاقوى في ذلك ،

فكان فيها واصل بن عطاء وابراهيم النظام ونحوهما من أئمة المعتزلة ومتكلميهم .

وظهرت في البصرة من اول الامر الافكار الدخيلة والعقائد المتلوة للإسلام كالزندقة والمناوية وما الى ذلك . يروي صاحب الاغانى انه كان بالبصرة ستة من اصحاب الكلام : عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء وبشار الاعمى وصالح بن عبدالقدوس وعبدالكريم بن ابي العوجاء ورجل من الازد فكانوا يجتمعون في منزل الازدي ويختصمون عنده . فأما عمرو وواصل فصارا الى الاعتزال وأما عبدالكريم وصالح فصمما التوبة (٤) ، وأما بشار فبقي متحيراً مخطئاً ، وأما الازدي فمال الى قول السمنية وهو مذهب من مذاهب الهند وبقي ظاهره على ما كان عليه (٥) .

وهذا يدل على ان القوم قد اخذوا يجولون بأفكارهم ويطوفون فيها بين العقائد المختلفة والافكار الجديدة ، وان طائفة منهم قد أغريت بالآراء والعقائد الاجنبية من الهند وفارس وغير ذلك .

ولم يكن هذا النشاط العقلي الذي يتميز بالاعتباس من الأفكار الغريبة ونبد التقليد في العقيدة قاصراً على البصرة ، بل كان له في الكوفة شبيه مقارب وإن لم يبلغ مداه الاتساع والقوة والشمول .

ومما يدل على ذلك ما روي عن ابن المعتز أنه قال : كان بالكوفة ثلاثة

(٤) هكذا في الاغانى طعمة الساسي ونقلها الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في مقدمته لديوان بشار « فصمما على الثنوية » ولا علاقة لها بالسياق . ولكن المعروف أن صالحاً وعبدالكريم قتلا لامر يتصل بالعقيدة . وفي عبد الكريم يقول بشار :

جاء بعث الاسلام بالكفر موقا
ت فبعض النهار صوماً رقيقا
ر عتيقا أن لا يكون عتيقا

قلت عبدالكريم يا ابن ابي العو
لا تصلي ولا تصوم فان صم
لا تبالي اذا أصبت من الخم

(٥) الاغانى ج ٣ ص ٢٤ - ٢٥ .

نفر يقال لهم الجمادون • حماد عجرد وحماد الراوية وحماد الزبرقان
يتنادمون على الشراب ويتناشدون الأشعار ويتعاشرون معاشرة جميلة
وكانوا كأئهم نفس واحدة يرمون بالزندقة جميعاً وأشهرهم فيها حماد
عجرد (٦) •

٢ - عناصر الحياة العقلية في بغداد

وصفوة القول أن بغداد قد ورثت بيئتين كانتا على جانب عظيم من
النشاط الفكري الذي أثر في الدين فكان الاعتزال وكان علم الكلام ،
وكان لكل ذلك أثره في الأدب وفي الشعر على وجه الخصوص • وكان
الشعراء ، بوصفهم جزءاً مهماً من طبقة أهل الفكر ، يشاركون في هذه
الأفكار ، وكانوا أسرع ما يكونون إلى تقبل الأفكار الطارئة التي تلقى
هوى في نفوسهم الميالة إلى التحلل من القيود والانطلاق والتحرر •

ولقد سبق لنا أن ألمعنا إلى ظاهرة جديدة بالتأمل ، وهي أن شعراء
القرن الثاني كان فيهم طائفة كبيرة من غير العرب ، ممن لم تصغ إلى
الاسلام أفئدتهم ، ولم يدخل الايمان في قلوبهم ، فكان هؤلاء مادة ما عرف
في هذا القرن بالزندقة والشعوبية ، وهؤلاء الذين ذكرتهم رواية الأغاني
منهم •

ولقد انتقل ميراث هاتين البيئتين ، أو انتقل معظم مافيه إلى بغداد ،
فكانت ملتقى الأفكار وانصب إليها التراث العقلي من كل جانب • ويستطيع
الباحث أن يجمع عناصر الحياة العقلية في بغداد بما يأتي :

أولاً - ميراث البصرة والكوفة ، وهو تراث يكمل بعضه بعضاً ، فبينما
كانت عناية أهل الكوفة متجهة إلى الرواية والنقل ، وكان طابع الثقافة

(٦) الأغاني ج ١٣ ص ٧٠ •

الكوفية عربياً أو أقرب الى العربية بعبارة أدق ، كان الغالب في ثقافة البصرة عناصر أصيلة من علم الكلام والجدل ، والبحث في أمور الدين والعقائد وعناصر مقتبسة من أفكار الامم الاخرى كالفرس والهند . وكانت الدولة أميل الى جانب الكوفة لأسباب ألمنا بأهمها فيما سبق من البحث (٧) ، ونذكر منها الآن أن السلطان ، على وجه العموم ، قلما تروق له حياة الصراع الفكري والنشاط العقلي بما فيه من أفكار قد تستهدف هدم الدولة ، كما كان شأن الشعوبية والزنادقة .

ولقد اتخذ العباسيون من علماء الكوفة حاشيتهم ومؤدبي أولادهم كالفضل الضبي والكسائي ، وغلب على البيئة البغدادية علوم أهل الكوفة فكان مؤسس المذهب البغدادى في النحو أبو العباس أحمد بن يحيى الشيباني المعروف بثعلب . ولم يحظ عند الخلفاء العباسيين أحد من علماء البصرة على ما يظهر وقصة سيويه والكسائي عند الرشيد مشهورة معروفة (٨) .

على أن هذا لايعني أن أثر الثقافة البصرية ، وما فيها من أصالة وتغليب لجانب الفكر والمنطق والقياس ، قد حيل بينها وبين التأثير في حياة بغداد الفكرية على الاطلاق . فقد كانت طبيعة التقدم العلمي والفكري تقتضي أن يحدث ذلك التأثير ، وقد حدث بالفعل ولا سيما في القرن الثالث حين تغلب مذهب الاعتزال فاتخذه المأمون مذهباً للخلافة وفرضه على سائر أمصار الدولة الاسلامية .

وكانت آثار الثقافة الكوفية واضحة في الخلفاء والشعراء ، فكان الرشيد مثلاً يروي شعر ذي الرمة ويعجب به ولا يعدل به أحداً من الشعراء . وكان أبو نواس عالماً باللغة ، راوياً للحديث والأخبار ، أخذ اللغة عن

(٧) راجع الفصل الثاني من الباب الاول .

(٨) ضحى الاسلام ج ٢ ص ٣٤ .

الأعراب وروى الحديث عن العلماء ، وخرج الى البادية في طلب اللغة فأقام بها سنة (٩) . وقد قال فيه الجاحظ : « مارأيت أحداً كان أعلم باللغة ممن أبي نواس ، ولا افصح لهجة منه مع حلاوة ومجانبة الاستكراه (١٠) » .

وفي أبي نواس أيضاً يتضح أثر الثقافة البصرية ، وتشيع في شعره بعض المعاني المقتبسة من مذاهب علم الكلام والفلسفة مما سنذكر امثلة منه في ما بعد .

ثانياً - ميراث الثقافة العراقية القديمة . فان موقع بغداد قريب من بقايا مدينة سومرية قديمة تركت آثاراً علمية على جانب عظيم من الخطورة في العلوم الرياضية على الخصوص ، وقد كشفت التنقيبات الاثرية حديثاً أن القوم قد توصلوا الى بعض النظريات في الهندسة من قبل أقليدس بسبعة عشر قرناً (١١) .

وليس من شك في أن عناصر الثقافة العراقية القديمة السامية وغير السامية قد تسربت على صورة من الصور الى بغداد ، تسربت بطريق السريان الذين كانوا ينقلون الى العربية علوم الأوائل ، وهم الذين أصبحوا في الحقيقة ورثة أسلافهم من قدماء الساميين ، وفيهم تلاقت معارف اليونان بالموروث من معارف البابليين والآشوريين وغيرهم من سكان العراق الاقدمين ، وهم الذين انشأوا مدرسة جنديسابور التي كان اثرها في الطب والحكمة وكان رأسها جبريل بن بختيشوع الطبيب النسطوري الذي استدعاه ابو جعفر المنصور لمداواته من مرض ألم به (١٢) .

(٩) اخبار أبي نواس لابن منظور ، السفر الاول ص ١٢ .
(١٠) نفسه ص ٦ .

(١١) نشرت أبحاث هذه التنقيبات في مجلة سومر ونشر الاستاذ طه باقر بحثاً بهذا العنوان في مجلة دار المعلمين العالية المجلد الاول السنة الثالثة الصادر في حزيران سنة ١٩٥١ .

(١٢) ضحى الاسلام للاستاذ احمد أمين ج ٢ ص ١٢ .

ثالثاً - علوم اليونان وفلسفتهم • وقد ازدهرت ترجمتها في بغداد وحظيت من الخلفاء بالرعاية ، ولا سيما المأمون الذي كان على جانب من العلم والفقه والشغف بالمعرفة • ومن المهم أن نلاحظ في الترجمة أن الذين كانوا يقومون بها أكثرهم من عناصر عراقية قديمة ، فالنسطرة وغيرهم من السريان كالعباديين من أهل الحيرة ومنهم حنين بن اسحق • وعند هؤلاء امتزجت معارف اليونان بالموروث من المعارف السامية القديمة ، وغيرهم تلمس آثار الأوائل •

وحسبنا هذه الإشارة الموجزة الى عناصر الحياة الفكرية في بغداد وقد استكملت في عصر المأمون وبلغت فيه الأوج والقمة • والذي يهمنا في هذا البحث هو أن نلم بآثار ذلك في الشعر وأن نعرض لتأثره بهذه الحياة الفكرية الجديدة •

٣ - مشاركة الشعراء في الحياة العقلية

لقد شارك الشعراء في الحياة الفكرية مشاركة تليق بمكانهم في الحياة الاجتماعية ، اذ كانوا جزءاً من الطبقة المفكرة في المجتمع ، وأخذوا بأطراف من الافكار الجديدة ، وانغمروا في لجج الصراع العقلي ، فكانوا بطبيعة مقام الشعر في الحياة العربية دعاة العقائد والمذاهب وروادها واللسنة الطليقة في التعبير عنها ، ولا سيما اذا لاحظنا ان النثر لم يكن قد اخذ مكانه في الحياة الادبية في القرن الثاني فيما عدا الخطب والرسائل التي حفظتها كتب التاريخ •

واول من يلفت الباحث من هؤلاء الشعراء بشار بن برد الذي نشأ في البصرة واتصل بالحركة الفكرية فيها اتصالاً وثيقاً ، فكان من اصحاب واصل ابن عطاء شيخ المعتزلة وامامها ، وكان معجبا به في اول الامر فكان يمدحه ويشني عليه بالفصاحة والقدرة على البيان قدرة فائقة • وقد ذكر في شعره انه خطب خطبة جانب فيها الرأى لانه كان ألثغ فيها فقال :

تكلف القول والاقوام قد حفلوا وحبروا خطبا ناهيك من خطب
فقام مرتجلا تغلي بداهته كمرجل القين لما حُفَّ باللهب
وجانب الرء لم يشعر به أحد قبل التفصح والاغراق في الطلب

ثم اختلفت بينهما المسالك فأعرض عنه وانقلب عليه وهجاه قائلا :

مالي أشايح غزالا له عنق كننقك الدوَّ إن ولّى وان مثلا
عنق الزرافة ما بالي وبالكم لم تكفرون رجالا اكفروا رجلا

ويبدو ان عقيدة الاعتزال ، وهي التي تعد المرء مسؤولا عن مقارفة المعاصي وارتكاب المخالفات ، لم تصادف هوى في نفس بشار وهو الما جن التمهك ، فانقلب جبريا لا يرى لنفسه قدرة على الاختيار ، وانما هو مسير في ما يأخذ وفي ما يدع وفي ما يقارف من الذنوب ، وهو يعبر عن عقيدته الجبرية فيقول :

طبع على ما في غير مخير هواي ولو خيرت كنت المهدبا
أريد فلا أعطى وأعطى ولم أرد وقصّر علمي أن أنال المغيا
وأصرف عن قصدي وعلمي مقصر وأمسي وما اعقتب الا التعجبا

ويظهر ان بشاراً لم يقف في حيرته عند حد ، ولم يجنح في تخليطه الى جانب يطمئن اليه ، فقال بعد ذلك بالثنوية وبمذهب النور والظلمة ، وفضل النار على الارض :

الارض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار
وقد أسلمه تفضيل النار على الارض الى تفضيل ابليس على آدم فقال :

ابليس خير من أيكم آدم فتنبهوا يا معشر الفجار
ابليس من نار وآدم طينة والارض لا تسمو سمو النار

وكانت بينه وبين حماد عجرد مهاجاة فكان حماد يرميه بالزندقة (١٣)
ويحرف له شعراً هجاء به وهو قوله يتبرأ من الزندقة :

يا ابن نهى رأس عليّ ثقيل واحتمال الرؤوس خطب جليل
ادع غيري الى عبادة الالتيب سن فاني بواحد مشغول
يا ابن نهى برئت منك الى الله جهاراً وذاك مني قليل
وقد جعل حماد البيت الثاني هكذا :

ادع غيري الى عبادة الالتيب سن فاني عن واحد مشغول
وأشباعه بين الناس ليشتهر كفر بشار •

على ان في هجاء بشار لجماد ما يدل على انه لم يكن يؤمن بالثنوية ،
بل لقد رمى بها حماداً فقال يهجوّه بعد موته ويذكر فيها صاحباً كان لجماد
اسمه حريب :

بكى حريب فوقه بتعزية مات ابن نهى وقد كانا شريكين
.....
امسى حريب بما اسدى له غيرا كراكب اثنين يرجو قوة اثنين
حتى اذا اخذا في غير وجههما تفرقا وهوى بين الطريقين

وكان حماد عجرد ، وهو كوفي المنشأ يرمى بالزندقة ، بل كان في رأي
معاصريه اماماً من أئمة الزنادقة والمقدمين فيهم • روى صاحب الأغاني بسنده

(١٣) الزندقة في عرف ذلك العصر اعتقاد بعض مذاهب الفرس كالمثونية
والثنوية وما الى ذلك من هذه العقائد الفارسية القديمة . وقد توسع
في مدلولها حتى اخذ بها البريء وحتى ادعاها بعضهم تظرفاً ، كما
في قول بعض الشعراء :

يا ابن زياد يا ابا جعفر اظهرت ديناً غير ما تخفي
ما كنت زنديقاً ولكنما اردت أن توسم بالظرف

عن أبي نواس قال : كنت أتوهم أن حماد عجرد انما يرمى بالزندقة لمجونه
في شعره ، حتى حبست في حبس الزنادقة فاذا حماد عجرد امام من أئمتهم ،
واذا له شعر مزوج بيتين بيتين يقرأون به في صلاتهم (١٤) .

وقد أثار بشار بما قاله تفضيل النار على الأرض ، وتفضيل إبليس على
آدم ، فريقاً من الشعراء تصدوا للرد عليه ، واثبات الفضل للأرض بأنها أصل
النار ، وأن النار موجودة فيها القوة . وأن في الأرض عناصر عديدة وأعاجيب
لا تحصى من المعادن والنبات والعناصر .

فمن ذلك قصيدة طويلة لصفوان الانصاري رواها الجاحظ (١٥) وفيها :

زعمت بأن النار أكرم عنصراً	وفي الأرض تحيا بالحجارة والزند
ويخلق في أرحامها وأرومها	أعاجيب لا تحصى بخط ولا عقد
وفي القمر من لج البحار منافع	من اللؤلؤ المكنون والعنبر الورد
كذلك سر الأرض في البحر كله	وفي الغيضة الغناء والجبل الصلد
.....
وفي الحرة الرجلاء تلقى معادناً	لهن مغارات تبجس بالنقد
من الذهب الأبريز والفضة التي	تروق وتسبي ذا القناعة والزهد
وكل فلز من نحاس وأنك	ومن زئبق حي ونوشادر يسدي
وفيها زرايخ ومكر ومرتك	ومن مرقشيشا غير كاب ولا مكدي
وفيها ضروب القار والشب والنهي	واصناف كبريت مطاولة الوقد
تري العرق منها في المقاطع لائحاً	كما قدت الحسناء حاشية البرد
ومن ائمد جون وكلس وفضة	ومن توتياء في معادنه هندي

الى أن يقول :

(١٤) الاغاني ج ١٣ ص ٧١ .
(١٥) البيان والتبيين ج ١ ص ٣٨ - ٤١ .

وفيها مقام الخل^(١٦) والركن والصفاء^(١٧) ومستلم الحجاج من جنة الخلد^(١٨) وفي صخرة الخضر^(١٩) التي عند حوتها وفي الصخرة السماء تصدع آية لأم فصيل ذي رغاء وذو وجد^(٢٠) فذلك تدبير ونفع وحكمة ووضح برهان على الواحد الفرد وقال سليمان الأعمى أخو مسلم بن الوليد يرد على بشار أيضاً ويذكر كرم الأرض ويفضلها على النار^(٢٢) :

لابد للأرض ان طابت وان خبثت من أن تحيل اليها كل مغروس وتربة الأرض إن جادت وان قحطت فحملها أبداً في إثر منفس وبطنها بفلز الأرض ذو خبر بكل جوهرة في الأرض مرموس وكل آنية عمت مرافقها وكل ما عونها كالملح مرفقة وكل مضحك من قول إبليس وهكذا ظهر تأثير الشعر بالحياة العقلية ، وشارك فيها ، فصار يستوعب بعض حقائق العلوم التي عرفت في ذلك العصر ، ويتخذ وسيلة للدعوة الى العقائد والمذاهب الجديدة والمنافحة عنها . وتلك بعض آثار الحياة العقلية فيه .

٤ - آثارها

وقد كانت هذه الظاهرة إيذاناً بما عرف بالشعر التعليمي ، وهو نظم الحقائق العلمية في قصائد تخلو - في الغالب - من المقومات الفنية للشعر

(١٦) مقام إبراهيم .

(١٧) الصفاء والمروة .

(١٨) البيت الحرام والحجر الاسود .

(١٩) يشير الى قوله تعالى في حكاية موسى والخضر : (قال أرأيت اذ أوبنا الى الصخرة) .. الخ الآية .

(٢٠) يشير الى قوله تعالى (يا ايها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبراه الله ..) الخ الآية .

(٢١) يشير بذلك الى ناقة صالح .

(٢٢) البيان والتبيين ج ١ ص ٤١ - ٤٣ .

كالخيال والأسلوب الطلي الجميل ، وكان الباعث عليه في أول الأمر أن الشعراء - وهم يفتنون بكل جديد - قد أخذوا يضمنون شعرهم مسائل علمية وتاريخية وقصصية إظهاراً للبراعة ودلالة على الابتكار والتجويد ، وتديلاً على أن لهم من المعارف الجديدة نصيباً ، فاستخدموها في الشعر ، ومن أخذ من هذا الفن بطرف السيد الحميري الذي كان يكتب ما يروى من أخبار علي بن أبي طالب فينظمها شعراً (٢٣) . وبشر بن المعتمر الذي استخدم هذا الطراز من الشعر في تعزيد عقيدته في الاعتزال . ثم جاء أبان بن عبد الحميد اللاحقي فنقل للبرامكة كتاب كليله ودمنة شعراً قال في أوله :

هذا كتاب أدب ومحنة وهو الذي يدعى كليله دمنه
فيه احتمالات وفيه رشد وهو كتاب وضعته الهند

وعمل أيضاً قصيدته المسماة ذات الحلل وهي التي ذكر فيها مبدأ الخلق وأمر الدنيا وشيئاً من المنطق (٢٤) ولم نجد لها ذكراً في كتب الأدب التي بين أيدينا .

ومن نظم في الشعر التعليمي أبو العباس الناشيء وأبراهيم الفزاري ، وقد نظم الأول قصيدة ذكر فيها الملل وعقائدها (٢٥) ، ونظم الثاني قصيدة في الفلك والنجوم (٢٦) . وسنعرض للكلام على ذلك في الفنون التي جدت في الشعر في موضعه من البحث .

٥ - تمثل الشعر للثقافة الجديدة

وكلما تقدمت الحياة الفكرية وانتشرت المعرفة وعمت الثقافة ، وجدنا الشعر يزداد بها تأثراً فيستوعبها ويجدد بها في معانيه وفي أسلوبه .

(٢٣) الاغاني ج ٧ ص ١٤ وما بعدها .

(٢٤) الاغاني ج ٢٠ ص ٧٣ .

(٢٥) مروج الذهب ج ٣ ص ٣٦١ .

(٢٦)

وقد كانت المرحلة الثانية من مراحل تأثر الشعر بالمعارف الجديدة تطويع المعاني العلمية والفلسفية لأسلوب الشعر ، حتى تصبح جزءاً مقبولا مستساغاً مستحسن الموقع لا ينبو مكانه ولا يستكره ، ولا يستثقل فيه السرد والتعداد والحشد الذي لا وجود للفن الشعري فيه ، كما في شعر صفوان وسليمان الذي مر ذكره .

وصار بعض الشعراء يتملحون بألفاظ الفلاسفة والمتكلمين والفقهاء ويستخدمونها في شعرهم استخداماً موقفاً لا يقدح في فن الشعر ، بل يزيده طرافة ويضفي عليه رونقاً ورواء من طراز غير مألوف حقاً .

فمن ذلك قول أبي نواس في الهجاء :

قل لزهير إذا حدا رشدا	أقلل أو اكثرفأنت مهذار
سختت من شدة البرودة حتى	صرت عندي كأنك النار
لا يعجب السامعون من صفتي	كذلك الثلج بارد حار

وهذا معنى أخذه أبو نواس من بعض حكماء الهند ، فانهم يقولون ان الشيء إذا أفرط في البرودة انقلب حاراً (٢٧) .

واستخدم أبو نواس المذهب الكلامي في شعره ، وهذا المذهب من ضروب البديع التي عدها ابن المعتز ضمن الخمسة الأشياء التي جدت في الشعر العربي (٢٨) .

ومن ذلك قوله في الغزل :

وذا ت خدّ مورّد	قوهيّة المتجرّد
تأمل العين منها	محاسناً ليس تنفد

(٢٧) أخبار أبي نواس لابن منظور السفر الاول ص ١٤ .
 (٢٨) بلاغة ارسطو بين العرب واليونان للدكتور ابراهيم سلامة ص ١٠٦ -

فبعضها قد تناهى وبعضها يتولد
والحسن في كل عضو منها معاد مردد
وقوله في الغزل أيضاً :

يا عاقد القلب مني هلا تذكرت حلاً
تركت قلبي قليلاً من القليل أقل
يكاد لا يتجزأ أقل في اللفظ من لا

ومن ذلك أيضاً استخدام بعض الشعراء والشواعر ألفاظ الفقهاء
والاصوليين استخداماً فيه شيء غير قليل من الطرافة والجمال كقول عليّة
بنت المهدي :

ليس أمر الهوى يدبر بالرأ ي ولا بالقياس والتفكير
ومنه أيضاً قولها في الغزل :

بني الحب على الجور فلو أنصف المعشوق فيه لسمج
ليس يستحسن في حكم الهوى عاشق يحسن تأليف الحجج
لا تعيين من محب ذلة ذلة العاشق مفتاح الفرج
وقليل الحب صرفاً خالصاً لك خير من كثير قد مزج

* * *

ولقد كان من بين الشعراء في هذه الحقبة من شارك في الحياة العقلية
مشاركة فعلية ، كأبي العتاهية الذي تعلم الفلسفة وأخذ من معارف عصره
بنصيب وكان له مذهب في العقيدة عرف به ، ومذهبه القول بالتوحيد
وأن الله خلق جوهرين متضادين لا من شيء ، ثم إن الله بنى العالم هذه
البنية .

وهو يذهب أيضا الى أن العالم حديث العين والصنعة • لا محدث له
إلا الله وأن الله سيرد كل شيء الى الجوهرين المتضادين قبل أن تفنى الأعيان
جميعاً •

ومذهبه في المعرفة أن المعارف واقعة بقدر الفكر والاستلال طباعاً •
وكان أبو العتاهية يذهب مذهب الاجبار ، ويقول في الوقت نفسه بخلق
القرآن • وقد سئل مرة : القرآن عندك مخلوق أم غير مخلوق ؟ فقال لسأله :
أسألتني عن الله أم عن غير الله ؟ قال له سأله : عن غير الله • فأمسك (٢٩) •
وكان سلم الخاسر تلميذ بشار الذي خرج عليه وتشبه بأبي العتاهية
يشتغل بالكيمياء ويذهب ماله فيها ويصاحب من يشتغلون بها (٣٠) •
وكان من آثار اشتغال أبي العتاهية بالفلسفة أن أكثر في شعره من
الموضوعات الفلسفية والعقلية كالحكمة والزهد والوعظ والتذكير بالموت
وبما بعد الموت • وبرزت الأفكار الفلسفية في شعره بحيث أصبحت تدل
على نفسها وتنبيء عن اطلاعه على كلام الفلاسفة :
فمن ذلك قوله لما وقف على قبر صديقه علي بن ثابت يكيه ويرثيه :

ألا من لي بأنسك يا أخيا	ومن لي أن ابشك ما لديا
طوتك خطوب دهرك بعد نشر	كذاك خطوبه نشرأ وطيا
بكيتك يا علي بدمع عيني	فلم يغن البكاء عليك شيا
وكانت في حياتك لي عظات	وأنت اليوم أوعظ منك حيا

وقد أشار صاحب الاغاني الى أبا العتاهية قد أخذ البيت الاخير من
كلام الفلاسفة لما حضروا تابوت الاسكندر (٣١) •

(٢٩) الاغاني ج ٣ ص ١٢٤ - ١٢٥ وليلاحظ أن القائلين يخلق القرآن هم
المعتزلة وهم القدرية الذين يذهبون الى أن المرء مختار فيما يفعل ،
مجزي بعمله ، ان خيرا فخير وان شرا فشر •

(٣٠) الاغاني ج ٢١ ص ٧٨ •

(٣١) الاغاني ج ٣ ص ١٤٢ •

٦ - آثارها البعيدة

تلك بعض الآثار القريبة التي خلفتها الحياة العقلية في الشعر وهي آثار يمكن أن نصفها بأنها آثار ظاهرة فحسب . أما الآثار البعيدة التي غاصت في كيان الشعر وتغولت فيه فأحدثت فيه تطوراً محسوساً ، فهي آثار سلبية لا ايجابية ، كان بعضها تمهيداً لما أعقبه وجاء بعده .

وأول هذه الآثار وأسبقها كان في أسلوب الشعر وفي تراكيبه وفي صورته التعبيرية .

وبيان ذلك أن التطور الذي أصاب الحياة العقلية فأدخل فيها أفكاراً جديدة وأحدث فيها نشاطاً جديداً وحركة سريعة ، قد جعل الشعر ، بأسلوبه القديم وطرائقه الفنية المألوفة في التعبير ، أعجز من أن يتحمل التعبير عن الأفكار الجديدة وأن يجاريها في حركتها النشطة السريعة ، فناء بهما ، والتمس لنفسه وسيلة يلائم بها بين طبيعته الفنية وبين اصراره على المشاركة الفعالة في الحياة العقلية ، فهبط أسلوبه وتحلل من قيود الفنية وجنح الى التوضيح بصوره التعبيرية الجميلة وأخذ وقاره يتضاءل عند المشتغلين بالأفكار الجديدة من شعراء القرن الثاني .

ثم إن الشعر قد يئس — على ما يظهر — من فلاحه في أن يكون أداة طيعة للتعبير عن الفلسفة والأفكار الجديدة ، فعاف ذلك فترة من الزمن في القرن الثالث — أو عافته هي والتمست في النثر مجالها الحيوي الرحيب الذي لا يصلح لها غيره ، وأخذ الشعر يعود الى قديمه شيئاً فشيئاً ويستعيد عند أغلب الشعراء أسلوبه الفني الأول وصوره التعبيرية الأولى ، وهجر هذا الجديد الطارئ على أسلوبه هجراً دائماً إلا عند شاعر واحد هو ابن الرومي .

وليس من شك في أن تأثير الأفكار الجديدة في الشعر ومسايرته للتطور في المعارف والعلوم امر لا بد منه ولا مناص ، إلا أن الشعر — بطبيعته الفنية

المحافظة وبعلاقته الوثقى بالعاطفة - بطيء التطور والتأثر بالجديد لا يسرع اليه ولا يعجل ، وانما يأخذه على مهل شيئاً فشيئاً ، حتى يستوعبه ويتمثله ويطوعه لمقاييسه الفنية فيجعله جزءاً منه .

وهذا هو الذي حدث في الشعر العربي في الحقبة التي تحدث عنها . فلم تظهر فيه آثار الفلسفة ولم تتضح فيه آثار التطور الفكري اتضاحاً فنياً الا في النصف الثاني من القرن الثالث ، ثم في القرنين الرابع والخامس عند ابي تمام وعند المتنبّي ثم عند ابي العلاء المعري في اوضح صورة وأجلاها .

ولم يكن اسراع الشعر الى الفلسفة والمعارف الجديدة - في القرن الثاني - وافتتانه بها الا اثاراً من طبيعة الشعر العربي التي سبق الكلام عليها^(٣٢) . اذ انه يعد نفسه جماع الفكر واداته الوحيدة التي عرفها العرب للتعبير عما يختلج في قلوبهم وفي عقولهم في وقت معاً . ولكن فرقاً لا ينكر بين التعبير عن الافكار التي تنشأ من الخبرات والتجارب الانسانية ، فتقلبها الحياة ظهراً لبطن ، تنفذ الى نفس الشاعر تفوذ الماء في الارض الصلدة على مهل وروية وأناة ، فتغوص في قرارتها ولا تتبدد ، وبين الافكار التي يستنبطها العلم والفلسفة ، ولا تزال تتجمع وتحتشد وتسرع في الحركة ، حتى يضيق بها الشعر المقيّد ذو التقاليد الفنية الثابتة المستقرة ، ثم لا تلبث أن تحمله على قلب كيانه وتكسير قيوده ، حتى اذا فعل ذلك لم يجده شيئاً ، فتعود تلتمس لها المجال الرحيب الفسيح : مجال النثر .

أما الامر الثاني فهو يتصل بموضوعات الشعر وبعلاقتها بالوحدة الفنية في القصيدة . فقد أخذت الموضوعات والاعراض ، ولا سيما الجديد منها يستقل كل منها بمقطوعة أو قصيدة لا يشركه فيها موضوع آخر .

فظهرت مقطوعات الهجاء ، وإن كانت سابقة في ظهورها لقيام بغداد ، واستقل بعض القصائد بالخر ووصفها ، واستقل بعضها الآخر بالحكمة والزهد ، ولم نجد نشهد في القصيدة الواحدة فنوناً وموضوعات لا تجمع بينها إلا وحدة الوزن والقافية ، بل صار للوحدة مكانها في الفن الشعري . وذلك ، وإن يكن قد عرف في الشعر من قبل على مدى محدود ، في غزل الحجازيين ، إلا أنه اتضح في هذا العصر وتؤكد ؛ وهو بالطبع متأث من تأثر الشعر بالحياة العلمية التي عرفت التبويب والتصنيف في العلوم وجمع التشابه منها بعضه إلى بعض .

تلك إشارة مجملة إلى ما أمكن أن يلم به البحث مما أعقبته الحياة العقلية والعلمية في الشعر من الآثار في الموضوع وفي الصورة ، وهي آثار لها قيمتها في تاريخ الشعر العربي على وجه العموم ، ولها مكانها من استجابته لتبدل الظروف والأحوال وتمثله لما أحاط به من مؤثرات ، صمد بعضها فلم يلبس له ، ولأن لبعضها واستجاب له ، أو ألانه واستغله واستخدمه . وعلى كل حال فإن للكلام على أسلوب الشعر وأغراضه ومعانيه موضعه من البحث سيأتي إن شاء الله .



الباب الرابع

الشعر بين القديم والجديد

تمهيد

كان انتقال الحياة الادبية الى بغداد حدثاً جديداً في تاريخ الادب العربي لم يعرف له من قبل مثيلاً . فقد كانت مراكز الخلافة من قبل بغداد في شغل عن الحياة الادبية ، ولم تكن تعنى من الادب إلا بالقدر الذي يتصل بسياسة الحكم وتأييد الحاكمين ومدح الخلفاء واستخدام الادب في أمور الدولة ، من كتابة رسائل ، أو تأييد سياسة ، وما أشبه ذلك .

ونحن لو تتبعنا هذا الامر قبل بغداد ، وجدنا أن أول مراكز الدولة الاسلامية وهو المدينة ، لم يكن في أيام الرسول صلى الله عليه وسلم يفرغ لغير الدعوة الاسلامية ونشر الدين وتثبيت دعائم الاسلام ، وهكذا كانت المدينة في عهد الخلفاء الراشدين الثلاثة . فقد كان اشتغالهم بالفتوحات وتدير أمور الدولة الواسعة هو الشغل الشاغل لهم وللمجتمع في عاصمة الخلافة .

وعندما انتقلت الخلافة الى الكوفة في عهد علي بن أبي طالب ، لم يكن الحال يختلف فيها عما كان عليه في المدينة ، بل لقد زاد في تعقيد الامور واضطرابها ان امر الخلافة لم يصف لعللي ولم يستقر ، فكان عليه أن يقاوم خصماً أبي أن يقر له وأن يبايعه ، وهو معاوية بن ابي سفيان .

ثم انقضى زمن الكوفة وانتقل مركز الخلافة الى دمشق بعد انتصار معاوية ، وتم للامويين ما كانوا يريدون من استقرار ، ومضت فترة التوطيد والتهدة والقضاء على الخصوم . ولكن دمشق لم تحتضن الادب ، ولم يعرف لها التاريخ أنها اصبحت بيئة شعر وفن ادبي متميز يعرف بها وتعرف به .

بل ان من الغريب ان نلاحظ ان الامصار الاسلامية لم يكن لها شأن في تاريخ الادب وفي الشعر بصفة خاصة إلا بعد ان هجرتها مقاليد الحكم وتخلى عنها سلطانه . هـ هكذا كان شأن مكة والمدينة بعد ان انتقلت منهما الخلافة الى دمشق ، وهكذا كان شأن الكوفة في عصر بني امية كما اسلفناه وكأن الفنون ، ولاسيما الشعر ، كانت في تلك العصور ضروباً من الهزل لا يصح ان يجتمع الى جد الحكم ورسائته ووقاره ، وانما يلزمه ان يلتمس لنفسه مجتمعاً فارغاً من مشاغل العمل الجدي الى حد كبير ، منصرفاً الى ناحية اخرى من نواحي الحياة .

لقد كان النشاط الادبي ، والشعري منه على وجه الخصوص ، والتفرغ اليه والانصراف عما سواه في البيئات التي عرفت به . ونحن لو تتبعنا ظاهرة النشاط والتجديد في الشعر من اول الامر وجدناها نبتت اول ما نبتت في الحجاز بعد أن تخلى عنه السلطان ، فقامت فيه حياة جديدة شاع فيها الغناء واللهو والطرب ، فكان أن ظهرت في ظل هذه الحياة الجديدة بواكير التجديد في الشعر ، ونشأت فيه مذاهب فنية جديدة في الغزل ، وأصبح الشعر فناً ذاتياً يقوم على العاطفة والمشاعر .

ونحن نشهد في العصر الاموي بيئة اخرى ورثت شيئاً من تراث الحجاز في الفن وفي حياة اللهو ، وزادت عليه شيئاً من تراث حضري قديم كان في الجاهلية متميزاً عما سواه معروفاً بركة الحضارة ونعومة المدنية ، وهو تراث الحيرة ، وكانت هذه البيئة هي بيئة الكوفة . وثمة بيئة عراقية اخرى جمعت بين مظاهر الحضارة المترفة وبين مظاهر النشاط الفكري المستمد من القديم العربي قليلاً ومن الجديد الاجنبي كثيراً ، فكانت مصدراً من مصادر الحيوية في الشعر في ايام بني امية وهي البصرة .

مرة اخرى نعود فنقول ان انتقال الحياة الأدبية الى بغداد كان إيذاناً بحدث جديد في تاريخ الادب العربي لم يسبق اليه . فقد كانت بغداد مركز

الخلافة ومقر الحكم ثم أصبحت بعد فترة من الزمان هي المركز الأول والمصـب الذي كانت ترفده البيئات الأدبية الأخرى كالبصرة والكوفة بعد انتقال طائفة كبيرة من أهل هذين المـصـرين اليه - كما سلف بيانه - • ثم مالبث هذا المركز الجديد أن طغى وارتفع ، حتى انفرد بالمقام الأول في الأدب ، وصار موطن التجديد والابداع والابتكار وأصبح مصدر الإشعاع في الحياة الأدبية لسائر أمصار الدولة الإسلامية • واجتمع لبغداد في العصر العباسي وفي الحقبة التي نبحث فيها على الخصوص زعامة الأمصار الإسلامية في كل شيء في الحكم والسياسة وفي العلم والأدب •

ولقد اسلفنا في الفصول الماضية الكلام على العوامل الجديدة التي توافرت لبغداد ، فأثرت في الشعر وغيرت في السبيل التي سلكها بعد أن تأتي له أن ينبت في تربتها ويزدهر ، ونرى في هذا المقام أن نعلل انتقال الشعر إليها خلافاً لما ألفناه في عواصم الخلافة الإسلامية من قبلها •

ولعل أهم الأسباب التي أدت إلى ذلك سببان :

الأول - أن الخلافة العباسية قد قامت في أول أمرها بالكوفة وهي إحدى أمهات البيئات الأدبية والشعرية خاصة • وقد كانت الكوفة هاشمية النزعة فانتقل إليها المعتبطون بأن آل الأمر إلى بني هاشم من البصرة ومن غيرها ثم انتقلت الخلافة بعد ذلك إلى بغداد ، وتوافدت عليها عناصر العلم والأدب والشعر من الكوفة ، رغبة في القرب من مركز الحكم بعد أن حرمت منه حقبة طويلة • واذن فقد تهيأ لبغداد عناصر التكوين الأدبي قبل انشائها ، وكأنما أعدت لها الكوفة بناءها في الناحية العلمية والأدبية فنقلته إليها على وجه يقرب من التمام •

الثاني - أن بغداد كانت أرضاً بكرأ ، وكانت لحدائث انشائها وتكوينها صالحة لاستيعاب كل جديد يطرأ عليها ويستقر بها ، ولم يكن فيها من الناس من يصفون على حياتها الاجتماعية والأدبية صيغة خاصة قد ينفر منها بعض

الناس كالطبع الذي عرف به اهل الشام وبعض الصفات الاخرى في اهل السواد . يضاف الى ذلك انها كانت من الوجة الطبيعية جميلة المناظر معتدلة الهواء موفورة فيها الارزاق . ومن اجل ذلك أقبل الناس على سكناها واستطابوا المقام فيها ووجد الادب والشعر فيها تربة خصبة غرس فيها بلا عناء فأثمر غراسه .

وهكذا قامت في بغداد حياة جديدة سبق لنا ان عرضنا المؤثرات السياسية والاجتماعية والحضارية فيها . واخذ الشعر يتأثر بهذه المؤثرات شيئاً فشيئاً واتخذ سبيله فيها سرباً بين قديم ورثه عن عصوره المتطاولة في القدم ، وجديد اقتضته ظروف التجديد في حياة بغداد .

وكانت عوامل التجديد في الشعر تستمد من تلك المؤثرات التي اشرنا اليها في السياسة وفي الاجتماع وفي الحضارة وفي التطور الفكري . وكانت ثمار هذه العوامل تختلف قوة وضعفاً ويتفاوت اوان ظهورها تبعاً للظروف .

على ان عوامل التجديد لم تكن تنفرد بالتأثير على الشعر والادب ببغداد بل كان القديم — بطبيعة الحال — يفعل فعله في المحافظة على نفسه ، وفي الابقاء على كيانه ، وكانت الحرب بين القديم والجديد سجالات فمرة يظهر الجديد على القديم ، ويطنح ، وتارة ينخزل ويتوارى ، وقد كانت نتيجة ذلك الصراع مذهباً في الشعر وسطاً ، فيه من القديم كيانه الذي لم تنل منه ظروف الحياة الجديدة ، وفيه من هذه الحياة مظاهر وألوان جديدة .

وثمة أمر لا يصح اغفاله بل يجدر بالباحث ان يتنبه اليه ، وهو أن القديم والجديد كليهما كانا على جانب من القوة لا يستهان به، ولهذا كتب لهما أن يعيشا في صعيد واحد ولا يتغلب أحدهما على الآخر فيقضي عليه أو يطويه في مطاوي النيسان ، ولعل سر القوة في القديم أن العراق كان بعد الاسلام وارث الجاهلية في شعرها وفي بعض تقاليدھا الاجتماعية — كما سبقت الاشارة الى ذلك — . فقد كان في العراق رواة الشعر الجاهلي الذين

احتفظوا به وتلقنوه بعد أن تغير وجه الحياة في الحجاز ، وكانت فيه بقية غير قليلة من البداوة في بادية البصرة وفي الجزيرة وفيما حول الكوفة ، وكان فيه فحول الشعراء الذين يعتبرهم مؤرخو الشعر العربي بحق امتداداً للشعر الجاهلي كجرير والفرزدق والأخطل والراعي . فكان العراق هو الذي احتفظ بالصلة بينه وبين الجاهلية قائمة مترابطة الحلقات ، لم تنفصم عراها كما انفصمت في الحجاز بعد الاسلام ، فأدى ذلك فيه الى أن يتغلب الجديد من الشعر على القديم أو يكاد .

وكان من أسباب القوة في القديم أنه يتمثل في البيئة الكوفية التي عرفت في تاريخ الأدب وفي تاريخ علوم العربية باعتمادها على الرواية والنقل وبكثرة الرواية فيها . ومعلوم أن الخلفاء العباسيين كانوا يؤثرون أهل الكوفة فاتخذوا منهم مؤدبي أولادهم ومسامريهم في مجالسهم ، وأهملوا العلماء من أهل البصرة حتى لم يكد أحد منهم يحظى عند الخلفاء حظوة علماء الكوفة . وقد أشرنا الى بعض ما يمكن اعتداده علّة لهذا الايثار في ما سلف من البحث . واستند القديم في صراعه وفي تشبثه بالبقاء بالحركة العلمية في الرواية وفي تدوين الأدب ، تلك الحركة التي قامت على احياء القديم والاعتداد به واعتباره المثل الأعلى في الشعر .

ومما أمد القديم بالقوة ومنحه القدرة على البقاء روح الحكم ويقظة الخلفاء العباسيين للمحافظة على العروبة في الدولة والمجتمع كما سلف بيان ذلك في الكلام على تأسيس بغداد واسبابه . ومن ذلك ايضا ان طائفة كبيرة من الخلفاء العباسيين كانت على حظ غير قليل من رواية الشعر وتذوقه وتقديره ، فقد كان هرون الرشيد يروي شعر ذي الرمة ويتذوقه ويعجب به ، وكان ابنه المأمون ناقدًا ذواقًا للشعر من طراز عال ، وكان أغلب الخلفاء يقول الشعر بقلّة ، ويعرف من مقاييسه الفنية التي توارثها عن القديم شيئاً غير قليل .

كانت هذه الأسباب كلها تأخذ بناصر القديم وتعينه على البقاء ، وتخفف

من فورة التجديد العارمة التي كانت تخيل أن تطغى عليه ، وكانت هذه الأسباب في الوقت نفسه تميل بالتجديد الى شيء من الاعتدال وتريه أنسه أهل لأن يصل في ميدانه مما كانت تقتضيه ظروف الحياة الجديدة ، وأنها ليس أهلاً لأن يحل محل ما توارثته الأجيال من تقاليد فنية في الشعر .

ولعل هذا يفسر لنا ظاهرة تذبذب المجددين من الشعراء بين المقتديم والجديد ، وأنا لا نجد أحداً منهم التزم التجديد ، أو لزم هجر القديم في كل غرض من أغراض الشعر وفي كل فن من فنونه ، بل نلاحظ وجود الضربين كليهما يصدران عن المجددين الثائرين على القديم كأبي نواس .

أما السر في قوة الجديد فهو أنه لم يكن وليد الحياة الجديدة في بغداد فحسب ، وإنما كان أحياناً وليد التحول الذي طرأ على الحياة في بعض الأمصار الإسلامية من قبل أن تنشأ بغداد وأن تصبح بيئة للشعر تؤثر فيه وتتحكم في مجرى حياته . لقد كان جزء كبير من ذلك الجديد استجابة لظروف الحياة في البصرة والكوفة ، أو كانت أصوله — على وجه الدقة — قد أخذت تثبت في تلك البيئات ، وقد مر بعضها بأطوار الكفاح من أجل البقاء في تلك البيئات حتى تلفقته بغداد وأنزلته فيها منزلاً مكن له في النماء والازدهار تارة ، وعرضه للانزهاً في معركة البقاء تارة أخرى .

وكان بعض هذا الجديد يستمد قوته من السلطان ويستند اليه السلطان الذي لم يكن في يد العرب الى مدى بعيد ، اذ كان الأعاجم ولا سيما البرامكة وأمثالهم هم المهيمنين على دفة الحياة السياسية والاجتماعية في غالب الأحيان ، فاندفع الجديد يتخذ مكانه من الحياة الأدبية قوياً مرضياً عنه من السلطان ، ممهدة سبله لاجبة طرائقه ومسالكه ، وسنتين تفصيل ذلك عند الكلام على الثورة على القديم وما يتصل بها من موضوعات الشعر ، وعلى سهولة الاسلوب وتفككه في موضع هذه المسائل من البحث .



هكذا كان القديم والجديد في الشعر يتصارعان في بغداد ، ويتنافسان
تنافسا اجدى على الشعر كثيرا ، وامده بثروة قيمة تذكر في تاريخ
الشعر العربي .

ولعل من اعظم مزايا بغداد انها كانت - وقت ان صارت اليها الزعامة
الادبية - حفيظة على الشعر القديم ، حريصة على بقاءه ، وهي في الوقت
ذاته مجال فسيح للجديد يخرج من فنونه ما يشاء ويختار .



الفصل الاول

عوامل التجديد

عرضنا في الباب السابق للعوامل التي توافرت في بغداد فأثرت في الشعر تأثيراً متفاوت بين التجديد الثائر على القديم ، وبين التطور الذي يأخذ من الجديد بقدر معلوم ، او المحافظة ، التي تأبى على الشعر ان يخرج على قديمه او يفارق اصوله الاولى .

ونريد في هذا الفصل ان نستخلص منها تلك العوامل التي بعثت التجديد في الشعر وأدت اليه ، وان تلمسها من بين العوامل التي اسلفنا الكلام عليها . ويمكن القول ان هذا الفصل خلاصة لما سبق ، وتشخيص الآثار التي تكلمنا على مسبباتها في الفصول الماضية ، ومن اجل ذلك فلا مندوحة من اعادة الاشارة الى بعض ما سبقت الاشارة اليه والكلام فيه مرة ثانية لان سياق البحث يفرضه ويقتضيه .

وقد كانت عوامل التجديد يختلف بعضها عن بعض في الاصول التي نشأت منها وفي الاثر الذي خلفته في الشعر سلباً او إيجاباً ، وكان بعضها نبات البيئة البغدادية الجديدة بتكوينها الطبيعي والسياسي والاجتماعي والثقافي والحضاري ، وكان بعضها اثرأ من آثار الحياة العامة في الدولة العباسية ، قدّر لبغداد ان تكون مجالاً لاستجلاء آثاره ، بوصفها مركز الخلافة وعاصمة الدولة .

ويمكن ان نحصر عوامل التجديد في الشعر فيما يأتي :

١ - السياسة

فقد كان للسياسة تأثير سلبي في حياة الشعر ، وقد مر بنا في الكلام على العامل السياسي ان الشعر السياسي قد ضعف في هذا العصر وفي هذه البيئة ضعفاً واضحاً ، لان الدولة العباسية لم تشهد معارضة سياسية يعتد بها ، ولم يقم فيها من الاحزاب السياسية ما يتخذ الشعر وسيلته للكفاح السياسي والدعوة الى مذهبه ومعارضة خصومه ، وقد حاولنا بسط الكلام في اسباب ذلك فلا محل له هنا .

وكان من آثار هذا الضعف في الشعر السياسي ان دفع الشعر الى ان يلتمس بنفسه مجالا في جوانب الحياة الاخرى ، بل قد يكون اقرب الى الصواب ان نقول ان جوانب الحياة الاخرى هي التي تلقت الشعر فأحلتها فيها على الرحب والسعة، وافسحت له فيها مكاناً عوضه عما فقد في السياسة . وهكذا فرغ الشعر من السياسة الى ألوان اخرى من الحياة الاجتماعية كانت في واقع الامر اقرب الى طبيعته الفنية واولى به من الجدل والمناقشة وايراد الحجج ، وما اشبه ذلك من معاني الشعر السياسي .

وكان لهذا التحول في الشعر - تحوله عن السياسة الى حد كبير - ما قد نستطيع ان نصفه بأنه اجهاز او بعض اجهاز على الطبيعة الموضوعية التي تميز بها الشعر العربي في اغلب عصور ازدهاره ، وبخاصة في العصر الجاهلي والعصر الاموي . لقد كان الشاعر - يشبه الى حد كبير - جندي الميدان الذي يكلف ويؤمر فيمشل ويطيع ، إذا هوجم قومه او حمل عليهم خصومهم ، فلا بد ان يكون على اهبة الاستعداد لصد الهجوم ودرء العدوان . وقلما كان الشاعر يرسل نفسه على سجيتهما تستجيب لدواعي الشعر من عاطفة ذاتية واحساس شخصي بلا تكلف ولا ارهاق ولا تصنع .

ويبدو ان الفرزدق - وهو واحد من فحول الشعراء الذين وصفنا

حالم آتفاً - كان يحس بهذا الارهاق ويشعر به حيث يقول : « أنه اشعر
تميم عند تميم وقلع ضرسه أهون عليه احياناً من قول الشعر » .

ولعل هذا القول يدل على ان الرجل كان يتكلف قول الشعر في بعض
الاحيان استجابة لدواع غير ذاتية - ان صح التعبير - فيجد في ذلك عتاً
ورهماً . وكان امثاله من شعراء القبائل الذين يحامون عن مجدها ، ويردون
العدوان عنها ، يحسون بمثل ما احس به ، كجريس والراعي النميري
والبعيث وغيرهم .

ولقد لازم هذا المظهر - واعني به الموضوعية - الشعر العربي فلم
يكذ يفارقه ، وكان من مواطن الضعف البادية حتى عصرنا الحاضر . وحسبنا
بشعر المناسبات وما يجري مجراه دليلاً ساطعاً على ذلك .

وقد اتاحت الحياة الجديدة للشعراء ان ينسلخوا بعض الشيء من هذه
الطبيعية في شعرهم ، ويقبلوا على الوان الحياة الجديدة فيستمتعوا بها
ويشعروا بها ويستجيبوا الى دواعيها فيعبروا عن ذلك في شعر نستطيع ان
نتلمس فيه مشاعرهم الذاتية ، ونحس فيه خوالج نفوسهم وعواطفهم ، وهذا
بلا شك ضرب من الحرية اللازمة للفن .

لقد اقبل الشعراء في بغداد يملأون نفوسهم من الوان الحياة الجديدة
ويشاركون فيها مشاركة وجدانية تمثلت في اغراض الشعر الجديدة التي نشأت
في بغداد ، وفي التطور الواسع الذي اصاب بعض الاغراض القديمة . واعرض
الشعر الى حد ما عن الوجهة الموضوعية التي اشرنا اليها آنفاً وتخلى عنها
وعما هو بسببها من الاغراض والمعاني - الى النثر الذي بدأ يتخذ مكانه
في الحياة الادبية ببغداد .

وفي هذا ايضا ظاهرة جديدة بالتسجيل حرية بالالتفات ، وذلك ان
الشعر باعراضه عن بعض ما كان يعتبر من اغراضه الاولى ، في ما سبق
من عصور الحياة العربية قد سجل للادب العربي انه عرف التفريق بين

الفنون الادبية ، وما يصطلح له كل منها من الاغراض والموضوعات ، واخذ الشعر يتخصص بعض التخصص بما هو ادنى الى طبيعته الشعورية العاطفية ، وتسلم منه النثر ما هو اصلح له واقرب اليه من اغراض وموضوعات تستلزم حرية في طريقة التعبير ومجالاً فنياً اوسع للأخذ والرد والمناظرة وإيراد الحجج وقد كان فاتحة ذلك — على ما نحسب — الرسائل التي وضعت في تأييد بعض الاحزاب السياسية على بعض .

وصحيح ان الشعر العربي قد سبق له — وقتاً ما — ان التزم التعبير عن العاطفة وتفرغ له ، واعرض عما سوى ذلك من الاغراض التي تربطه بالحياة العامة ، وقد لا يصلح لها الشعر ، وكان ذلك في شعر الجحازين ايام بني امية ، إلا ان هذا الموقف كان موقفاً سلبياً وقفه الشعر — إن جاز هذا التعبير — وان الحياة العامة هي التي هجرته وتخلت عنه ، فعكف على العواطف والمشاعر وتخلي عن مكانه في التعبير عن غير ذلك من الاغراض وعن المشاركة في الحياة العامة ، والفرق واضح بين الحالين على كل حال .

وثمة امر آخر يصح ان يعتبر من آثار السياسة في الشعر ، وهو ان الخلفاء ورجال الدولة واصحاب السلطان — وهم مصدر الرزق الاول للشعراء — قد اصبحت مطلبهم في الشعر يختلف اختلافاً واضحاً عما كان يطلبه الخلفاء الامويون ومن اليهم من اصحاب السلطان . فبينما كان هؤلاء يطلبون من الشعراء ان يمدحوهم ويهجووا خصومهم ، ويرضوا غرورهم بما شاءوا من التمجيد والتعظيم وتحقير الخصوم ، اصبحت الخلفاء العباسيون ومن اليهم يتطلبون في الشعر اشياء اخرى ، كأن يمر الواحد منهم بحالة نفسية معينة ، فيرغب الى الشعراء ان يقولوا فيها ، فمن اصاب ما في نفسه كان جديراً بصلته وبماله . وكأن يجلس الواحد منهم مجلس اللهو والشراب فيعجبه ان يستمع الى غناء في معنى بعينه من معاني الشعر ، فمن استطاع ان يحدد ما في نفس الخليفة او الامير فيقول فيه شعراً يقع موقع الاعجاب

نال من الخليفة او الامير ما يطمع فيه من الجوائز والصلات •

ومن هذا القبيل ما يروى عن الخليفة محمد المهدي وبشار ، فقد بعث المهدي الى بشار ذات يوم فقال له : « قل في الحب شعراً ولا تطل ، واجعل الحب قاضياً بين المحبين ولا تسم احداً » فقال بشار :

اجعل الحب بين حبي وبينني	قاضياً انني به اليوم راض
فاجتمعنا فقلت يا حب نفسي	إن عيني قليلة الاغماض
أنت عذبتني وأنحلت جسمي	فارحم اليوم دائم الامراض
قال لي لا يحل حكمي عليها	انت أولى بالسقم والامراض
قلت لما أجابني بهواها	شمل الجور في الهوى كل قاض

فبعث اليه المهدي : « حكمت علينا ووافقنا ذلك » وأمر لم بألف دينار^(١) •

ومثل هذه القصة كثير في كتب الادب والاخبار ، يدل على ان مطلب الخلفاء والامراء من الشعر لم يعد يقتصر على جانب السياسة من مدح وتأيد وما الى ذلك مما كان وكدهم ومطلبهم في العصور السابقة •

وصفوة القول ان ضعف الدواعي السياسية في الشعر قد اجدى عليه قوة في نواح اخرى ، وصرفه الى اغراض جديدة تتصل بمطالب الحياة الجديدة في الاجتماع وفي الثقافة وفي الحياة الحضرية المترفة ، ومهد للشعر سبيل التحرر من بعض التقاليد الموروثة فيه ، واتاح لبعض النقاد والشعراء ان يغيروا في المعايير الفنية ويتطلبوا فيها ان تلائم تطور الحياة وما جد فيها ، وسيأتي تفصيل الكلام على هذه الامور في ما بعد •

(١) بشار بن برد ، شعره واخباره ، لاحمد حسنين القرنى ٦٩ - ٧٠ •

٢ - الأعاجم

ومن عوامل التجديد في بغداد وجود الأعاجم على الحياة الاجتماعية ، وصيرورتهم عنصراً أساسياً من عناصر التوجيه الاجتماعي ، فانطبع المجتمع العباسي في كثير من نواحي حياته بطابع غير عربي ، وعرف الترف والبدخ ، واصبح اللهو والشراب والأنس أشبه بالضرورة اللازمة في الحياة . وكان فوق ذلك ما أشرنا اليه آنفاً من تزلزل بعض القيم الاجتماعية التي سار عليها المجتمع الاسلامي محتفظاً بالتقاليد العربية الجاهلية من فخر بالأنساب ودفاع عن الأعراس ونحو ذلك . وكان من نتائج ذلك افحاش الشعراء في الهجاء وافرطهم في قذف بعضهم بعضاً ، وسلوك طائفة منهم في كل ذلك سبيلاً ينبو عنها الذوق وتأباها الكرامة .

وحدث من جراء ذلك أيضاً أن أعان القوم على تسرب الحضارة الفارسية الى الحياة العربية^(١) ، ودخول الأفكار الغربية والعقائد الأجنبية التي اتضح أن من أغراضها ومراميها زلزلة العقيدة الاسلامية ، ومهاجمة الدين ، الذي حملة العرب ، في عقر داره .

على ان ذلك لم يكن شراً كله بل لقد كان فيه الى جانب ضرره البالغ نفع ، وفتح للشعراء مجال الاطلاع على الثقافة والأفكار الأجنبية فجنى منه الشعر أطيب الثمرات .

ولم يقتصر أثر الأعاجم وغلبتهم على الحياة الاجتماعية على الجديد في بعض فنون الشعر وتوجيه بعضها الآخر وجهة جديدة ، بل كان له أثره في أسلوب الشعر وطريقته في التعبير . فقد جنح أسلوب الشعر الى السهولة ونبد الغريب من اجل الأعاجم ، لانهم لم يكونوا يفهمونه أو يتذوقونه بطبيعة الحال ، فأخذ الشعراء يتجنبونه ويتعمدون أن يتبسطوا في لأسلوب ويتحللوا من الطريقة

(١) العامل السياسي في ادب العصر العباسي الاول للاستاذ احمد الشايب ص ٢٥ .

الفنية المألوفة في التعبير ، حتى انحط بعضهم بأسلوبه الى العامة . على
أن لهذه الظاهرة سبباً آخر سنعرض للكلام فيه عند البحث في سهولة
الأسلوب .

ولقد كان من آثار الأعاجم في حياة الشعر أن تغير معيار الشاعر واختلف
تقويمه ، فأصبحت خفة الطبع ، وقرب المأخذ ، وسهولة الأسلوب ، هي
الأمور التي بها يقاس تجويد الشاعر وتقدمه ، وبها يحظى عند الأمراء ورجال
الدولة من الأعاجم خاصة .

وقد خلف لنا أحد الشعراء الذين خطف أبصارهم بريق المال والجاه
عند البرامكة صورة لما ينبغي أن يكون عليه الشاعر حتى يستحق أن يكون
في خدمة هؤلاء الأمراء وفي جملة حاشيتهم . ذلك هو أبان بن عبد الحميد
اللاحقي ، فقد وصف نفسه في أبيات بعث بها الى أحد رجال البرامكة يرجو
أن يكون في خدمته ويرشح نفسه لذلك فقال :

شاعر مفلق أخف من الريشة مما يكون تحت الجناح	
لي في النحو فطنة واتقاد	أنا فيه قلادة بوشاح
ثم أروي من ابن سيرين للعلم بقول منور الإفصاح	
ثم أروي من ابن سيرين للشعر وقول النسيب والامداح	
وظريف الحديث من كل فن	ويسير بترهات الملاج
كم وكم قد خبأت عندي حديثاً	هو عند الملوك كالفتح
فبمثلي تخلو الملوك وتلهو	وتناجي في الشكل والاقداح
أيمن الناس طائراً يوم صيد	لغدو دعيت او لسرواح
أبصر الناس بالجوارح والنحي	ل وبالخرّد الحسان الصباح
كل ذا قد جمعت والحمد لله	على انني ظريف المزاح
لو رمى بي الامير أصلحه الله	رماحاً ثلثت حدّ الرماح

ما انا واهن ولا مستكين لسوى أمر سيدي ذي السماح
لست بالضخم يا اميري ولا القد م ولا بالمجدر الدحداح
لحية جمدة ووجه صبيح واتقاد كالشعلة المصباح
ان دعاني الامير عاين مني شمرياً كالبلبل الصياح

هذه الأبيات في معناها وفي أسلوبها تدلنا على نظرة القوم الى الشاعر والنديم ورأيهم فيه ، وما يجب أن يكون عليه ، وكيف أثرت الحضارة في تقديره ، فأصبح شخصه وهيئته ومظهره يدخل في حساب من يصطنعه ويقربه من رجال الدولة واهل السلطان . أما أسلوب هذه الأبيات ، فهو أشبه بأسلوب النثر المترسل الخالي من التنفن منه بالشعر وما فيه من الخيال والصور الفنية في التعبير .

وكان من آثار الأعاجم في الحياة الأدبية والفكرية ، أنهم أعانوا على نقل طائفة من الكتب الفارسية وغيرها الى العربية ، مثل كتاب كليله ودمنة وكتابي الأدب الكبير والأدب الصغير ، وقد نقلها الى العربية عبدالله بن المقفع . على اننا لانعلم ان كان قد نقل شيء من الشعر الفارسي الى العربية ، والظاهر الراجح انه لم ينقل . وقد كان من آثار هذه الكتب أن زودت الشعراء بمعان جديدة ، وأن أحدثت نشاطاً فكرياً لاشك في جدواه على الشعر . ويبدو أنه كان لهذه الكتب أثر لا ينكر في شعر الحكمة والزهد وفي نشأة ما عرف بالشعر التعليمي .

ولا ننسى أن النزعة الشعوية التي وجدت في كنف هؤلاء الأمراء - الأعاجم رعاية وحماية - قد أتاحت للشعراء من غير العرب أن يحملوا على العرب ويثلبوهم وينقصوهم ، وبالتالي أن يدعوا بعضهم الى الثورة على تقاليد الشعر العربي دعوة فيها سخرية وفيها أيضاً شيء لا ينكر من الواقعية الفنية التي تدعو الى التحرر من قيود القديم والاستجابة الى دواعي الحياة الحضارية الماثلة في الواقع .

٣ - شيوع الحياة الحضرية

ومن عوامل التجديد أيضاً شيوع الحياة الحضرية بما فيها من ترف في المأكل والمشرب والملبس ، وإقبال الناس على التمتع بالجانب المرح اللاهني من الحياة بسبب حالة الاستقرار والهدوء التي كانت طابع الحياة في العصر العباسي الأول ، بعد الجهود الجبارة التي صرفها أبو جعفر المنصور في القضاء على كل ما كان يهدد الدولة من أخطار . وهكذا خلا الناس الى أنفسهم ، يلتمسون لها المتعة من كل لون ، ويبحثون لها عن مطالب الأنس واللهو .

وكان الشعراء بطبيعة الحال طليعة من طلائع هذا التحول في الحياة ، فكانت صورته في شعرهم واضحة جلية فقد انصرفوا الى مجالس اللهو والانس والشراب يملأون منها نفوسهم، ويشحذون بها عواطفهم ومشاعرهم، حتى لقد فني بعضهم فيها فصار يعبر عنها تعبيراً فيه امعان وفيه اغراق ، وفيه ما يشبه حالة الفناء في التصوف ، ففني أبو نواس في الخمر واتخذها دمية يتعبد لها ويتبتل في حضرتها ، ويأتي في وصفها بالعجب العجيب ، مما لم يعرف له الشعر العربي من قبل مثيلاً ، وكان يقارنه في هذه السبيل شعراء آخرون كالحسين بن الضحاك وغيره . لقد عرف وصف الخمر وما يتصل بها من وصف مجالس الشراب في الشعر العربي ولكنه كان لمحة خاطفة والمامة عابرة، لا يلبث أن يتحول عنها الى غيرها ، ثم أصبح ، هذا العصر غرضاً أساسياً عند شعراء هذا العصر ، لا وسيلة الى أغراض أخرى ولا غرضاً جزئياً يلمون به ثم يتجاوزونه الى سواء .

وقد كانت المرأة منذ القديم هي الملهم الأول للشعراء ، والمعين الذي يستقون منه الحب حلوه ومره ، وكانت لها المكانة الأولى في الشعر العربي ، فلم تخل من ذكرها قصيدة مهما كان غرضها ومهما كان موضوعها . واتجه

اليها الشعراء بكل ما في نفوسهم من اعجاب واكبار فوصفوها ووصفوا
تعلقهم بها وعاطفتهم نحوها .

كانت المرأة العربية في موضع من الاحترام لا يدانى ، لأنها في الأغلب
قريبة أو جارة أو نحو ذلك ، لا ينالها العاشق الا بجهد ولا يبلغها الا بعناء ،
هكذا كانت في العصر الجاهلي ، ثم جاء الاسلام فزاد مكاتبتها وأعلى قدرها
وجعلها ندا للرجل في اكثر الحقوق ، وأنزلها في المجتمع منزلاً كريماً ، فحلت
من اجل ذلك في الشعر محلاً ارفع ، بل صارت تنفرد بشعر بعض
الشعراء فلا يشاركها فيه امر من امور الحياة مهما بلغ من الخطر .

واصبحت بعد الاسلام على جانب من العلم والفقه بشؤون الحياة ،
ومنها الادب ، فكانت تعقد المجالس والندوات وتجمع الشعراء لتسمع منهم
وتنتقد شعرهم وتحكم لبعضهم على بعض ، وما امر سكينه بنت الحسين
عنا ببعيد .

ولقد جاءت الحضارة فكثرت الجواري وبلغ عددهن في بيوت الاغنياء
والموسرين مبلغاً عظيماً ، وصرن يتخذن للغناء واللهو والعبث ، فهبط شأن
المرأة في الشعر واصبح الحديث عنها عند اكثر الشعراء ضرباً من اللهو
والعبث والمجون ، ولم تعد المرأة تثير في النفوس تلك المعاني العميقة او تلك
العواطف المشبوبة ، بل صار الحديث عنها — كما قلنا — جزءاً من الحديث
عن مجالس اللهو والغناء والشراب في الغالب ، فتوصف الخمر وكؤوسها ،
ويوصف مجلسها وما فيه من اسباب المتعة والانس ، وتوصف المرأة
باعتبارها آلة من آلاته .

لهذا السبب ولبعض الاسباب الاجتماعية الاخرى ، هبط فن الغزل
من عليائه عند اغلب الشعراء ، ولم نعد نعرف فيهم عاشقاً خالط العشق
قلبه ، وتقد الى قرارة نفسه الا قليلاً ، كالعباس بن الاحنف ، واصبح

الغزل في جملته تعبيراً عن لذة عابرة وشهوة طارئة ، لا تصل الى طوايا النفس ولا تثبت على حال •

واتجه الغزل من ناحية اخرى الى الغلمان ، فأصبح غزلاً بالمذكر يتخذ موضوعه من السقاة والغلمان الذين كانوا يتشبهون في مظاهرهم بالنساء ويتخشون ليتصدوا لعبث الشعراء ومجونهم •

وهكذا كانت الحضارة جنانية من بعض الوجوه على الغزل ، وتلك فيما احسب ظاهرة تقارن الحياة الحضرية المترفة في اوان بدايتها ، اذ يطلق فيها الناس العنان للغرائر والشهوات ، فلا يعود للتسامي واعلاء الغرائز فيها مكان ، يضاف الى ذلك ان ابتذال المرأة ووجدانها في كل مكان وفي كل حين بحيث يسهل الوصول اليها والتمتع بها ، انما يفقدها مزية من اهم مزاياها • وهي تربية العواطف وتهذيب المشاعر ، والسمو بالمتعة واللذة وتحويلها من الناحية المادية العابرة الطارئة الى ناحية نفسية معنوية تجلو انسانية المجتمع ، وتظهرها في اجمل صورة وابهى مظهر •

وكان المرأة لم ترض بهذا الدرك التي انحدرت اليه مكاتنها في هذا العصر ، فالتهمت لنفسها مجالات اخرى ، تفرض بها على المجتمع منزلتها ، فاتجهت طائفة من النساء الى التعليم ، وشاركن في الحياة العقلية والادبية والفنية ، فكان منهن الشاعرات والروايات والآخظات من معارف عصرهن بطرف • وقد عاد ذلك على الشعر خاصة بنتائج تاريخية وفنية قيمة ، فنحن لم نكن نقف من قبل شوارع بغداد على عاطفة المرأة تجاه الرجل وعن شعورها بالحب نحوه ، ولا نكاد نجد في شعر الخنساء وليلى الاخيلية صراحة في التعبير عن عاطفة الحب كالتى نجدها في شعر عليّة بنت المهدي وفضل ومحبوبة • وتلك احدى مظاهر التجديد القيمة الخطيرة في الشعر •

ومن آثار الحضارة في الشعر انها جعلته فناً يقصد فيه الى الجمال ،

ولا يقتصر فيه على محض التعبير عن المشاعر من دون ان يلتفت الشاعر الى صورة ذلك التعبير وان يعتمد فيها الى التزييق والتنميق والتفنن . وانتقل الشعر من جمال البداوة الساذج البسيط الى جمال الحضارة المعقد ذي التهاويل والتفاصيل ، فجعلت الشعراء يقصدون في شعرهم الى الصور التعبيرية قصداً ولا يأتونها عفواً من غير تعمد ، كما كان اسلافهم يفعلون .

وقد كان جمال الشعر من قبل يقوم على صدق التعبير عن المعنى ومطابقته للغرض الذي قيل فيه ، وفصاحة لفظه ، واستقامة عموده ، اما الحضارة فلا يكفيها ذلك من الفن شعراً كان او غيره ، وإنما يهتمها ، الى ابعد حد ، ان تكون الصورة جميلة تلفت النظر وان يكون المظهر براقاً يذهب بالابصار . وكم نراها تضيفي على المعدن الرخيص المتبدل ما يوهم انه المعدن النفيس . وقطعة النحاس البراقة المصوغة بدقة وعناية اجمل واقوم في نظر الحضارة من قطعة الذهب التي لم تمسها يد الصناع الماهر .

وصفوة القول ان الذوق - واعني به معناه اللغوي - اصل من اصول الحضارة ، مهما كان الشيء المذوق خالياً من الغذاء ، قليل النفع والغناء ، ولهذا يكون جمال المظهر فيه طاعياً على اصالة المخبر . ومن اجل ذلك نجد الشعر في العصر العباسي - وفي بغداد خاصة - قد نحنا نحو تجميل الصورة وتزييقها ، وبذل المجهود في ذلك الى حد كبير ، ونشأ في هذا العصر ، او اتخذ صناعة في الشعر ، ما يعرف بفن البديع واعني به ما كان يعتمد اليه الشاعر ويتكلفه ويصنعه ، واصبح عند الشعراء او عند بعضهم مذهباً فنياً يلتزمون به ويلحون عليه .

٤ - التقدم العقلي

ومن العوامل التي اثرت في الشعر واعانت على التجديد فيه ، ذلك التقدم الذي اصابته الحياة العقلية في بغداد إذ بدأ فيها تنظيم المعارف

وتدوينها وتفتحت امام المجتمع العباسي آفاق جديدة في المعرفة ، فاطلع القوم على طائفة من الآثار الاجنبية في العلوم والفلسفة ، وبخاصة آثار اليونان والهند وفارس فأدى ذلك الى حركة نشاط وافر في الشعر .
وكان لهذه النهضة العلمية آثارها في موضوعات الشعر وفي صورته واسلوبه .

اما الموضوعات فقد جد فيها ما لم يكن معروفاً قبل اتصال هذا المجتمع بالافكار الاجنبية كالشعر التعليمي ، وتطورت بعض الاغراض واستقلت بالقصائد كشعر الحكمة والزهد واصبح الشعر يعبر عن بعض الموضوعات البعيدة عن طبيعته محاولة منه لمجاراة الحياة العقلية والمشاركة فيها . وتأثرت الموضوعات القديمة بالحياة العقلية ، فأدخل الشعراء فيها معاني جديدة احسنوا استخدامها .

وافتنن بعضهم بالمعارف الجديدة حتى كادوا يفسدون بها طبيعة الشعر ، فأمنعوا في استخدام المنطق وتكلفوا حدوده ، حتى ضج من ذلك المحافظون كالبحثري ومن على شاكلته ، فقال البحثري :

كلفتمونا حدود منطقكم والشعر يغني عن صدقه كذبه
ولم يكن ذو القروح يلهج بال منطق ما اصله ؟ وما سببه ؟
والشعر لمح تكفي إشارته وليس بالنثر طوَّلت خطبه

اما الاسلوب فقد ادى به ذلك الى شيء من التحلل والتفكك والبساطة ، ليستطيع استيعاب الاغراض والموضوعات الجديدة ، فأصبح اسلوب الشعر اقرب الى النثر في بساطته وخلوه من الصور التعبيرية المألوفة في الشعر .



ومن المهم ان نلاحظ في هذا المقام ان عوامل التجديد لم تخلق كلها في بغداد ، ولم تظهر فيها فجأة بلا مقدمات ، فذلك امر يخالف سنة الحياة

وطبيعة التطور في الفنون وفي سواها من اوجه النشاط الحيوي • وانما كان بعض تلك العوامل موجوداً من قبل البيئات الادبية التي سبقت بغداد • وقد اشرنا في اثناء الكلام على هذه العوامل الى ما كان شبيهاً لها في البيئة الحجازية مثلاً وما كان اصلاً لها في بيئة الكوفة وبيئة البصرة ، وما ظهرت بواكيره في الشام على يد الوليد بن يزيد • ونقول هنا مرة اخرى إن الشعر قد اتخذ سبيله في التطور الواضح البعيد الاثر في تاريخه منذ أن نشأت في الحجاز مدارس الغزل ، وانصرف الشعراء الى نفوسهم وعكفوا على مشاعرهم ، ثم قامت في الحجاز تلك النهضة الغنائية الفنية التي أحدثت في الشعر وفي الشعراء إدراكاً جديداً لوظيفة الشعر وصرفته الى وجهة في الحياة يحقق فيها تلك الوظيفة •

على أن هذا الادراك الجديد كان ادراكاً قسرياً — إن جاز لنا مثل هذا الوصف — لأن الشعر والشعراء قد أرغموا عليه ، بعد أن أريد للحجاز أن يعتزل الحياة العامة ويخلو الى ما يشاء مما سواها • ولم يكن أهل العراق آنئذ يعترفون بهذا الشعر ولا يقيمون له وزناً ، بل كانوا يجدونه أقرب الى الهزل وأدنى الى العبث •

ولذلك قال الفرزدق في عمر بن أبي ربيعة : ما زال هذا الفتى القرشي يهذي حتى قال الشعر • ونحن نلاحظ ان كتب طبقات الشعراء لم تصف من شعراء الحجاز أحداً منهم بالفحول المقدمين •

ثم أصبح لهذا الادراك الجديد لوظيفة الشعر مكانه في العراق ، بعد أن تأثرت الكوفة بحياة الحجاز وانتقل اليها ألوان منها •

وإذا كان لبغداد من فضل في تاريخ الشعر العربي وفي ما أصابه من التجديد ، فهو أنها قد جمعت بين تلك المؤثرات وقرنت بين تلك العوامل ، وأعدت لها كل ما أتاح لها أسباب النماء والازدهار ، وأضافت اليها ما استطاعت ، وخلقت من كل ذلك مزاجاً نتج منه هذا الذي قد نستطيع أن ندعوه جديد الشعر في بغداد ، وسنبحث في تفاصيله فيما يأتي ان شاء الله •

الفصل الثاني

الشعر والشعراء بين التجديد والتقليد

الاتجاهات الفنية في الشعر

لقد أصبحت بغداد في منتصف القرن الثاني للهجرة على وجه التقريب مركز الحياة في البلاد الاسلامية المترامية الأطراف ، و انتهت اليها زعامة الأدب العربي والفكر العربي ، فأقبل اليها العلم والأدب والحضارة من كل مكان . وأصبحت بالنسبة لتلك البلاد أشبه بالقلب الذي منه تصدر أمارات الحياة ومنه تتوزع مادتها الى سائر أنحاء الجسم ، واجتمع لها كل ما كان معروفاً من ألوان الحياة على تعددها وتنوعها في ذلك الحين .

وكانت عوامل التجديد والمحافظة في الشعر تفعل فعلها وتؤتي أكلها في بغداد ، وكانت مظاهر تأثيرها في الشعر أن تقسمته اتجاهات ثلاثة :

الأول - اندفاع في التجديد وافتتان بالحضارة وبالحياة الجديدة ، ومحاولة جاهدة للتخلص من القديم والانفلات مما يصل به من العرى ، وحاول أن يتحكم في الشعر وأن يخضعه له في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري ، وهو بالنسبة لبغداد أشبه بأيام الصبا وما فيها من الخفة والنزق والاندفاع . وكانت هذه الوجهة في الشعر تستمد قوتها من ماض قريب عاشته في الكوفة وفي البصرة أواخر العصر الأموي ، كما أشرنا الى ذلك من قبل ، ثم انتقلت الى بغداد بعد أن انتقلت اليها الحياة في السياسة وفي الشعر وفي غير ذلك ، ووجدت في مركز الخلافة وما جمع من ألوان الحياة الجديدة

مجالات تقوت فيه وازدهرت • وقد اعانها على البقاء ومكن لها في ارض بغداد بغداد - غلبة الاعاجم في الحياة الاجتماعية وصيرورتهم سادة الموقف في الدولة الجديدة كما يقال ، وامتدتهم الحياة العقلية بمزيد من الافكار الجديدة التي كانت تستهويهم في الكوفة وفي البصرة فأتاح لهم الحضارة المادية وما كان فيها من متاع فني ان ينصرفوا اليها ويتخذوها الموجه الاول في الشعر ، والوحي الجدير بالاستجابة والانقياد والتأثر •

وكانت اهم الخصائص التي تتميز بها هذه الوجهة الفنية في الشعر هي الآتية :

اولا - انها اقتحمت بالشعر مجالات جديدة فاشتركت به في الحياة العقلية وتأثرت بها والزمتم نفسها ان تعبر عنها ، فاستحدثت فنوناً جديدة كالشعر التعليمي ، وادخلت في الشعر التعبير عن المعارف الجديدة ، فاستخدمت اساليب المتكلمين وملأت شعرها بمصطلحات الفلسفة والعلوم . واتجهت ببعض الاغراض القديمة في الشعر وجهة جديدة متأثرة بما اصاب من المعرفة ، فجعلت الحكمة وتجارب الحياة العامة موضوعات تستقل بالقصيدة لا يشركها فيها موضوع آخر •

ثانياً - انها تحللت من وقار الشعر وتحررت من بعض القيم الاجتماعية فأمعنت في الهجاء وأسفّت فيه ، ثم اتخذت منه في النهاية فناً يقوم على الهزء والسخرية والاضحاك ، بعد ان كان يقوم على الايلام والايجاع • وتقدمت به حتى جعلته فناً يعتمد فيه الى الرمز والايحاء بعد ان كان خصاماً صريحاً وعراكاً مكشوفاً •

ثالثاً - انها اقبلت على الجانب الذاتي في الشعر فجعلت همها ووكدها فيها ، فأكثر من وصف الخمر ، ومن الحديث عن الشهوة في الغزل ، ومن الانحراف به الى الغزل بالمذكر •

رابعاً - انها تحولت بالقصيدة من نظامها القديم في تعدد موضوعاتها الى ان حاولت ان تجعلها واحدة الموضوع في الغالب ، وتبع ذلك ان قصرت القصيدة ولم تطل ، واصبحت لاتصلح للانشاد والالقاء في المحافل ، وانما هي اخلق بمجالس اللهو والغناء والهزل والعبت .

خامساً - انها حاولت ان تتحلل من اسلوب الشعر الذي الفه وعرف به ، وان تصل اسلوب الشعر ولغته بأسلوب الحياة ولغتها ، فجنحت الى السهولة والبساطة ، واعرضت عن الاسلوب القديم عجزاً او انسياقاً في تيار الحياة الجديدة في الثقافة وفي المعرفة .

اما الاتجاه الثاني فكان تأثراً معتدلاً بالحضارة يأخذ منها بمقدار ، ولم يندفع في التجديد التائر اندفاع السابق . وكان هذا الاتجاه يحظى برضا السلطان ويتمتع بالتأييد الروحي من الخلافة ، لانه كان في حقيقة امره محافظة على التقاليد العربية التي كان الخلفاء العباسيون لا يرغبون أن يفرطوا فيها ، وهو في الوقت ذاته مجارة للحياة الحضرية في ذوقها وفي الذي يتميز بجمال المظهر وتناسقه وترفه ورونقه . وكان هذا الاتجاه أيضاً ثمرة الاتباع والمدارسه لقديم الشعر ومأثوره ، والتنقيب عن مواطن التجميل الذي يوائم حياة الحضارة فيه .

ومما يلاحظ في هذه الوجهة أنها لم تظهر ولم تتغلب على الشعر في بداية القرن الثالث على وجه التقريب ، حيث عادت الحياة في الدولة العباسية وفي بغداد على وجه الخصوص الى شيء من الجد يشبه الحياة العربية قبلها، وحيث تغلب الطابع العربي على الطابع الأعجمي . وقد كان الأخير هو الذي يرمي وجهة التجديد المندفع في الأغلب ، بينما نشأت هذه الوجهة في كنف النفوذ العربي الى حد بعيد .

وكان أهم ما تتميز به هذه الوجهة الفنية في الشعر ما يأتي :

أولاً - أنها عادت بالشعر الى القديم في الطريقة وفي الموضوعات ، وحاولت أن تتناسى أو تتجاهل ما استجد في الشعر مما اعقبته الوجة الاولى، فضاعت وحدة الموضوع في القصائد أو كادت ، وعاد الأسلوب الى ما كان عليه من الجزالة والفخامة •

ثانياً - أنها هجرت الأغراض الجديدة وتركتها تستسلم لفن آخر من فنون التعبير هو النثر ، وتمثلت المعاني الجديدة التي اقتبسها الشعر من المعارف الجديدة ، وطوعتها للشعر ، واستخدمتها من دون أن تخل بطبيعة الشعر وأن تجور على أسلوبه وطبيعته الفنية •

ثالثاً - أنها عنيت بالتفنن في أسلوب الشعر ، فاستخدمت الصورة في التعبير عن المعنى ، وعنيت بتقسيم العبارة وتزويقها وترصيعها بالمحسنات اللفظية •

وأما الاتجاه الثالث فكان تقليداً للقديم واتباعاً له في الموضوع والأسلوب تقليداً مبعثه إما العجز عن مجاراة الحياة الجديدة واما الاعجاب المفرط بالقديم والاستسلام لذلك الاعجاب •

طوائف الشعراء

وقد جمعت بغداد بين ظهرائها طوائف الشعراء الذين كانوا يختلفون في تأثيرهم بالحياة الجديدة من بين متأثر بها مندفع في تيارها ، أو متحفظ يأخذ منها بقدر ، أو محافظ لا يريد أو لا يستطيع أن يجاري تيارها العارم القوي •

وصار الباحث في الشعر يحس أن الشعراء قد تقسموا طوائف ، واختلفوا مذاهب وطرائق ، منها ما انغمز في ليج الحضارة الجديدة انغماراً ، والتمس في التحول الذي أصاب الحياة مجالاً للتجديد والابداع ونبد

القديم والاستهانة به ، واختط لنفسه في الشعر نهجاً جديداً غير مألوف من قبل . ومنها ما وقف من الحضارة الجديدة موقفاً يشبه أن يكون موقف الوعي المدرك ، الذي يفقه من الفن أن ليس كل جديد فيه مستحسن وكل قديم مستهجن ، فتأثر بالحياة الجديدة على قدر ، وأخذ منها بمقدار ، ولم يفارق أصول الفن الشعري وقواعده الثابتة التي ورثها الشعر عن قديم متناول في القدم . ومنها ما لم تتسع نفسه للجديد الذي أصاب الحياة ، ولم يستطع بحكم ظروفه الزمانية والمكانية أن يفارق القديم وأن يعيش في عصر غير عصره ، أو أن اعجابه بالقديم بلغ به كل مبلغ فالتزمه واتبع سبيله .

وربما جاز للباحث أن يقسم الشعراء في بغداد في هذه الحقبة ثلاث طوائف .

١ - المجددون

طائفة غلب عليها الهزل والمجون ، وتميزت بالتحلل ، ولم تكن تبالي بشيء أو تلتزم حدوداً في عقيدة أو خلق . وقد سلكت في فنها الشعري على وجه العموم مسلك الثورة على القديم والتحرر من قيوده قدر المستطاع ، وحاولت أن تخرج على قواعد الفن في أسلوب الشعر وأن تجدد في موضوعاته ما شاء لها تحليلها أو تحررها أن تفعل . وكان على رأس هذه الطائفة بشار بن برد ومن قارنه كحماد عجرد وأبي الشمقمق وسواهما من أهل المجون والتهتك الذين كانت نشأتهم الأولى في البصرة والكوفة . وكان من هذا القبيل أيضاً مطيع بن أياس ووالبة بن الحباب وأبو نواس والحسين بن الضحاك وأبو العتاهية .

ولقد كانت هذه الطائفة من الشعراء تمثل في شعرها وفي أسلوب حياتها ثورة عارمة تدعو إلى التحلل من القديم صراحة أو سراً . وكان معظم أفرادها يدينون بعقائد غريبة دخيلة ، ويمارسون حياة ماجنة خليعة

يأبأها الدين وتنكرها الاوضاع الاجتماعية . وكان غالب افرادها يتهمون بالزندقة ، ويتهاجون في ما بينهم بهجاء مقذع مفحش ، ينبو عنه الذوق وتأباه المروءة ، ويتحدثون في شعرهم عن حياة التبذل والتهتك والمجون التي كانوا يحيونها ، حديثاً صريحاً .

وكان هؤلاء الشعراء ثمرة من ثمار التفسخ والتحلل الذي اصاب الحياة في البلاد الاسلامية والعراق خاصة - في اواخر العصر الأموي - وكان طليعته ورائده الوليد بن يزيد الخليفة الأموي الذي جاهر بالفجور وأعلن المجون والتهتك حتى قضى بذلك على نفسه ، والزعم الحجة خصومه الذين تذرعوا بذلك الى خلعه وقتله .

ويبدو ان الامويين قد اهللوا في اواخر عهودهم الاهتمام بالبصرة والكوفة يأساً من الانتفاع بهما وبأهلها ، فتركوهما نهياً لهزل الحياة مادام اهلوها من علويين وخوارج وزيرية لا يشتغلون بالامور الجدية التي تقض مضجع الخليفة في دمشق او تهدد سلامة الدولة .

وعجيب هذا التجاوب النفسي بين الوليد بن يزيد وبين هذه الطوائف من أهل الظرف والمجون في الكوفة . الا نرى انه قد ضاقت عليه البلاد الاسلامية بما رجبت ، فلم يجد بغيته من الندماء الا في مجان اهل الكوفة امثال مطيع بن اياس ويحيى بن زياد وحماد الراوية .

والظاهر ان القوم قد احسوا ان انقضاء ايام الامويين اذن لهم بمجال واسع ، يمارسون فيه الحياة العامة ، وقد كانوا محرومين من ذلك ، لان اغلبهم من الموالي ، ولكن ابا جعفر المنصور رماهم بخيبة الامل ، فرحلوا في ايامه عن بغداد طلباً للرزق فخرج يحيى بن زياد الى محمد بن العباس فمضى الى البصرة ، وخرج حماد عجرد اليها معه ، وعاد حماد الراوية الى الكوفة . ولم يقيم في بغداد منهم الا مطيع بن اياس لانه كان يهوى فيها جارية لبعض النخاسين يقال لها ريم . وفي ذلك يقول :

لولا مكانك في مدينتهم لظننت في صربي الألى ظعنوا
 اوطننت بغداداً بحبكم وبغيرها لولاكم الوطن^(١)

وقد كان ابو جعفر المنصور - كما اشرنا الى ذلك من قبل - يقطباً لما يحتمل ان يهدد دولته من الاخطار ، فلم يقرب اليه احداً من هذه الطائفة ، فانحاز بعضها الى الثائرين عليه ، فعل بشار بن برد الذي هجاء في القصيدة التي بعث بهما الى ابراهيم بن عبدالله بن الحسن • وقال فيها :

أبا جعفر^(٢) ما طول عيش بدائم ولا سالم عما قليل بسالم
 على الملك الجبار يقتحم الردى ويصرعه في المأزق المتلاحم
 كأنك لم تسمع بقتل متوج عظيم ولم تسمع بفتك الاعاجم
 الى ان يقول له :

فرم وزراً ينجيك يا ابن سلامة^(٣) فلسـت بنـاج من مـضيـم وضائم
 لحى الله قوماً رأسوك عليهم وما زلت مرؤوساً خبيث المطاعم
 ثم يقول في ابراهيم :

اقول لبسّام عليه جلاله غدا اريحياً عاشقاً للمكارم
 من الفاطميين الدعاة الى الهدى جهاراً ومن يهديك مثل ابن فاطم

 اذا بلغ الرأي المشورة فاستعن بحزم نصيح أو نصيحة حازم
 ولا تجعل الشورى عليك غضاضةً فريش الخوافي قوة للقوادم

(١) الاغاني ج ١٢ ص ٨٧ .

(٢) وقد غير هذه القصيدة بعد انتصار ابي جعفر على ابراهيم فجعلها
 في هجاء ابي مسلم الخراساني وجعل مكان « ابا جعفر » (البيت
 الأول « ابا مسلم الخ . وجعل مكان « يا ابن سلامة » وهي ام ابي جعفر
 « يا ابن وشيكة » وهي ام ابي مسلم . وحذف منها قوله « من لفاطميين » الخ .

ثم تنفس هؤلاء الصعداء بعد وفاة أبي جعفر المنصور ، ووجدوا في عهد المهدي بعض الحرية ، فأقبلوا وأقبل غيرهم على بغداد يمتدحون الخليفة وينالون صلاته ، ويتمتعون في بغداد بألوان الحياة الجديدة التي لم يتحرج المهدي ان يأخذ منها بنصيب وافر .

وقد كان من أمر هذه الطائفة من الشعراء ان اقلع بعضها عن المجون ، واتخذ لنفسه مسلماً آخر لا يحرمه رضا الخلفاء كأبي العتاهية ، وانزوى بعضهم فخلل ذكره كحماد عجرد . واقام بعضهم على مجونه وتهتكه وفحشه كبشار بن برد في غالب احواله .

وقد كان للمهدي مع بشار خطوب ، فقد نهاه عن الغزل والتعرض للنساء بعد ان اشتكى اليه جماعة من اهل الدين ما كان يفعله من لقاء النساء في بيته وحديثه عن بعض علاقاته بالنساء ، حديثاً ماجناً خليعاً لا حياء فيه ولا تدم ، ورووا له قصيدته الرائية التي يقول في اولها :

قد لامني في خليلتي عمر واللوم في غير كنهه ضجر
قال: أفق . قلت : لا ، فقال : بلى قد شاع في الناس منكما الخبر

ورائيته الاخرى التي اولها :

عجبت فطمة من نعتي لها أيجيد النعت مكفوف البصر
بنت عشر وثلاث قست بين غصن وكثيب وقمر

وهو يقص فيهما حوادث فيها اغراء للنساء ، وفيها تحريض على الخلاعة والمجون .

ثم بلغ المهدي انه زنديق ، وروي له من شعره في الزندقة ، فتعقبه ، وكان بشاراً قد ضاق بذلك من المهدي ، بينما كان يرى غيره من الشعراء كمروان بن أبي حفصة وأبي العتاهية يحظون عنده وينالون العطاء الجزيل ، فهجاه هجاءً مقنعاً نمي اليه . فمن ذلك قوله فيه :

بني أمية هبوا طال نومكم ان الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الناي والعود
ثم اتبع ذلك بهجاء فاحش قبيح نمسك عن روايته ، فيقال ان المهدي
قصد البصرة ليقتله فقتله .

اما ابو العتاهية فقد كان اول امره يتخث ويحمل زاملة المخشين ، ثم
تطور به الامر شيئاً فشيئاً حتى نسك واتبع سبيل الزهاد ، وصرى يقول
الشعر في الحكمة والزهد وتذكير الناس بالموت وما بعده .

ويظهر انه كان بارعاً يتقن فن الحياة ، ويلبس لكل حال لبوسها ، فاتخذ
لنفسه صنعة الزهد والنسك وتستر بها ، وترك ما كان عليه من التخث
والمجون ليحظى عند الخلفاء . ويدلنا على ذلك انه كان غنياً حريصاً على
المال ، بخيلاً شديد البخل مقتراً على عياله .

واما ابو نواس فكانت شخصيته ذات وجهين ، فهو قد كان يحيا حياته
الخاصة ماجناً خليعاً يتبتل للخمر ويتخث لها ، ويأتي من ضروب اللذة ما
يشاء . وكان في صلته بالخلفاء محافظاً يسلك سبيل المتقدمين من الشعراء
ولا يفارق طريقتهم المألوفة في الشعر ، ما خلا علاقته بالامين وامتزاجه به
امتزاج ود وصفاء ، وهو في جانب آخر من شعره نائر على القدماء ، يسخر
منهم ويستهزئ بهم ، ويدعو الى هجران طرائقهم واساليبهم في الشعر .
وقد كان ابو نواس خاتمة الفحول من هذه الطائفة - طائفة المجددين -
ويبدو ان الحياة العباسية لم تعد تتسع لظهور غيره . ولعل من اسباب
ذلك ما يأتي :

اولاً - ان الخلاف الذي دب في البيت العباسي بين الامين والمأمون
فانتهى بمقتل الامين قد خلع على الحياة مسحة من الجد والانتباض ، وان
الحرب التي قامت بين الاخوين وما صاحبها من اراقة للدماء وتخريب لمعالم

ال عمران في بغداد - قد ختمت عهد اللهو والمجون فيها الى حد بعيد او ضيقت من نطاقه تضيقاً كبيراً .

ثانياً - ان طبيعة المأمون كانت اميل الى جانب العلم منها الى الشعر واقرب الى طابع التفكير والمناظر والجدل منها الى اللهو والانس والعبث.

ثالثاً - ان الخلفاء شغلوا بعد ذلك بجد الامور في الغالب من المنازعات المستمرة على الخلافة بين الاب وابنه وبين الاخ واخيه ، والأخطار الخارجية التي كانت تتهدد ثغور البلاد الاسلامية .

رابعاً - ان الذين وزروا للخلفاء بعد المأمون كانوا من الاتراك الذين ليست لهم سابقة بالحضارة كالفرس ، ولم يقدر لهم ان ينالوا من ذوق المدينة على اختلاف مناحيها ذلك اللون البهيج المرح اللاهي الذي عهدناه في حياة بغداد .

وهكذا انطوت صفحة من حياة الشعر في بغداد كان فيها شيء كثير من الصدق والاصالة والتجديد ، وكان فيها تصوير للحياة الاجتماعية والعقلية والحضارية التي بدأت بالقرن الثاني الهجري وهو في واقع الحال بداية العصر العباسي (٤) .

ولقد كان لهذه الطائفة من الشعراء آثارها الخطيرة في الشعر وتراثها القيم في تاريخه ، وقد ألمنا بأهم خصائص مذهبها في اول هذا الفصل .

٢ - المتفننون

وكانت الطائفة الثانية من الشعراء هي الطائفة التي عنيت بفن الشعر عناية ملحوظة ، فلم يغلب المجون في نظرتها اليه ، ولم تحاول ان تغامر فيه

(٤) الدكتور طه حسين في ذكرى أبي العلاء والاستاذ احمد الشايب في العصور العباسية .

مغامرة الطائفة الاولى ، فتقطع ما بينه وبين القديم او تتحول به عن وظيفته القديمة في الحياة العربية وهي التعبير عن المشاعر والافكار في آن واحد .

وهذه الطائفة من الشعراء هي طائفة المتفنين الذين كانوا يعرفون للفن الشعري حقه ، فيعنون بالصورة التعبيرية والمعنى الجزئي ، مع المحافظة على المقاييس الفنية المألوفة في الشعر من جزالة العبارة ورصانة الاسلوب ومراعاة الوقار الفني للشعر .

وكانت هذه الطائفة من الشعراء استمراراً لقديم الشعر ومحافظة عليه ، وعناية به ، بل كانت في حقيقة امرها ثمرة لواقع البيئة البغدادية التي استندت في تجديد الشعر الى الثروة التي ورثتها من الرواية والميل الشديد الى مدارس القديم والعناية به ، واتخاذ ذلك الاساس الاول من الذي قامت عليه حياة الشعر في بغداد .

ولم تكن هذه الطائفة تسلك سبيلا غير ممهدة ولا مطروقة ، بل لقد مهد لها سبيل التقن في الاسلوب والزخرفة في التعبير من عرف في تاريخ الشعر العربي بساقة الشعراء ، وهم ابن هرمة وابن ميادة وبشار بن برد وهؤلاء ايضا احلاف في الصناعة لمن كانوا يعرفون في الجاهلية بعبيد الشعر كزهير بن ابي سلمى ومن اقتفى طريقته في الشعر .

ولقد كانت هذه الطريق معروفة عند القدماء يسلكونها عفواً بلا قصد ولا تعمد لأنهم كانوا يطلبون شرف المعنى وصحته وجزالة اللفظ واستقامته ، ولم يكونوا يحفلون بالابداع والاستعارة وما الى ذلك وانما كان يتأني لهم ذلك وانما يتأني لهم ذلك عفواً في خلال القصائد^(٥) .

اما اثر بغداد في هذا المذهب - ان صح أن يدعى مذهباً - فهو أئسر الحضارة بزخرفتها وزينتها وعنايتها بجمال المظهر وتناسقه .

(٥) يراجع في ذلك كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه لعبد العزيز الجرجاني ص ٣٧ والعمدة لابن رشيق ص ٨٣ .

وكما أثرت مدنيتهما وحضارتهما في الناس أو طائفة منهم ، فغيرت في مظاهرهم وفي أساليب حياتهم ، فقد أثرت في الشعر من هذه الناحية فحضرتة واخرجته من بداوته التي كان عليها ، واخضعته لمقاييس الحضارة التي عمادها الذوق السليم والاناقة والاتساق والانسجام .

وثمة امر آخر له خطورته وله شأنه في نشأة هذا المذهب وفي تمكنه من حياة الشعر كان لبغداد فيه الاثر الاكبر ، وهو ان الحياة العباسية لم تشأ ان تكون ثورة على الحياة العربية وانقلابا فيها لا يبغي ولا يذر ، يزلزل الماضي من قواعده ، ويحيله انقاضا واطلالا لا تصلح لشيء ، كما اراد الاعاجم ان تكون ، وانما كانت الحياة العباسية تحمل في ثناياها يقظة وتبها بالغين الى الحفاظ على جوهر الحياة العربية الاسلامية ، مع الاخذ بالتطور والتدرج في الانتقال والتحول . وكانت غلبة الاعاجم عليها غلبة موقوتة ، لم يلبث الخلفاء ان ادركوا خطرها قبل ان تؤذن بانقلاب يحيل الحياة العباسية حياة اعجمية كسروية .

وكان للنزعة العربية التي حمل لواءها امراء الجيش وقواده من العرب — كعمن بن زائدة الشيباني واسرته ، وابي دلف القاسم بن عيسى وحמיד ابن عبد الحميد الطوسي معنى اليقظة البالغة والهجوم المقابل — كما نقول اليوم — على النزعة الشعوبية العارمة في اول ايام الدولة العباسية . وقد نشأ في كنف هؤلاء جماعة من شعراء هذه الطائفة ، فكان مسلم بن الوليد وهو من اخطرهم شأنًا من المنقطعين الى يزيد بن مزيد الشيباني ، وكان ابوتام — وهو غاية ما بلغته هذه الطائفة — ذا علاقة وثيقة بأبي دلف وحמיד الطوسي .

ويمكن القول ان هذه الطائفة من الشعراء كانت ذات طابعين متقابلين في حياة الشعر وتاريخه ، طابع المحافظة على قديمه والاحتفاظ بأصوله ، وطابع التجديد بالقدر الذي تقتضيه الحضارة في هذا العصر وفي هذه البيئة .

ولعل من اليسير الواضح بعد ذلك ان يدرك الباحث ان هذه الوجهة في الشعر وهذه الطائفة من الشعراء هي التي وجدت من اسباب البقاء والاستمرار ما جعلها هي المتغلبة في اخر الامر ، وهي التي تحكمت في الشعر العربي الى يومنا هذا .

ولامراء في ان طبيعة الشعر العربي وماضيه الطويل وتقاليده العريقة ووظيفته في الحياة العربية منذ اقدم عصوره ، قد اعان على تغلب هذه الوجهة على الشعر وعلى غلبة هذه الطائفة واستئثارها بالبقاء والاستمرار .

وتلك حقيقة تاريخية تقفنا على ان الفن في جوهره وفي طبيعته يستطيع ان يقف لما يعصف به من القوى ، حتى اذا انحسرت عنه بقي محتفظا بجوهره وبمقوماته . ولقد ارادت الطائفة الاولى من الشعراء ان تجعل الشعر العربي شعر غناء ولهو وخمر وترف ، وان تخضعه لما ارادت من تحول في حياة ذلك العصر ، وان تنسيه قديمه الذي كان فيه جماع الفكر العربي ، فأبت طبيعة الشعر العربي ذلك وتمسكت بأصوله الاولى ، راضية ان يتأثر من الحضارة بالقدر الذي لا يخرجها عن مألوف سبيله ، فكان التجديد تجديدا في صور التعبير وفي ابتكار المعاني الجزئية وتقننا في الصياغة وابداعا فيها ، مع الاحتفاظ بالمعدن سليما في جوهره غير مزيف ولا مخلوط بشيء غريب عليه .

ولقد كان القصد الى التفنن ، وهو الذي عرف من بعد بالبديع ، ظاهرة من الظواهر التي عرفت عند المولدين ، كما ذكر بعض مؤرخي الشعر العربي ونقاده ، فهو من هذه الوجهة حضري النشأة او هو بعبارة ادق قد اصبح حاجة من حاج الحضارة الجديدة ولونا من الوان المدنية التي انتظمت الحياة العباسية في مظاهرها المختلفة ثم تغلب على الشعر وتمكن منه بعد ذلك .

ورأس المولدين الذين فتحوا للشعر باب البديع واكثروا منه في شعرهم ابن هرمة وبشار .

فكان ابن هرمة ربما غني باظهار براعته في النظم وقدرته في الصناعة
فجعل قصيدته كلها على الحروف المهملة كما في ابياته التي رواها صاحب
الآغاني (٦) واولها :

أرسم سودة أمسى دارس الطلل معطلا ردّه الاحوال كالحلل

واذا صحت نسبة هذه الايات اليه ، فان فيها دليلا على ان الشعراء قد اخذوا
في التصنع ومالوا عن الطبع والسجية الى التكلف والتعمل . وتلك سبب
من سيئات البديع كما نعرف في العصور الادبية المتأخرة .

والى جانب ابن هرمة كان بشار ، وهن ممن طلب البديع وتكلفه وصنع
الشعر وتعمله ، فجعل الصور البيانية قواما لشعره وضرورة من ضروراته .
ثم احتذى حذوهما في البديع كلثوم بن عمرو العتابي ، وهو في نظر
الجاحظ امام هذا المذهب ومقلده ومقتدى الشعراء فيه . يقول الجاحظ :
« ومن الخطباء الشعراء ممن كان يجمع الخطابة والشعر الجيد والرسائل
الفاخرة مع البيان الحسن كلثوم بن عمرو العتابي وكنيته ابو عمرو ، وعلى
الفاظه وحذوه ومثاله في البديع يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من شعراء
المولدين ، كنجو منصور النمري ومسلم بن الوليد الانصاري واشباههما » (٧)

وقد تقسم بشار بن برد ثلاث نزعات ، نزعة تجديد تأثر فيها ببيئته
وقد تقسم بشار بن برد ثلاث نزعات ، نزعة تجديد تأثر فيها ببيئته
بالبصرة فطرق الموضوعات الجديدة كالهجاء المقذع الساخر والغزل غير
العفيف ، وعبر في شعره عن معان كلامية وفلسفية كما سبق ان اشرنا الى
ذلك من قبل . ونزعة محافظة اقتضتها نشأته البدوية الاولى في حجب بني
عقيل وبين اشياخهم الفصحاء ، فكان يحسن الابتداء على طريقة الجاهليين
فيخاطب الطلل ويقف عند الآثار .

(٦) الآغاني ج ٤ ص ١٠٦ .

(٧) الآغاني ج ٣ ص ٢٥ .

ونزعة وسط كان يسلك فيها مسالك اهل الفن من الشعراء الذين يلتزمون اصول الشعر الاولى ويتأثرون بالحضارة في الزخرفة البيانية والعناية بالصورة وتجميلها بالاسلوب وتحسينه .

ومن اجل ذلك كان النقاد يعجبون بتصرفه في فنون الشعر جدها وهزلها . ولعلمهم كانوا يعنون بالهزل طريقة المجان السادرين من الشعراء ، وبالجد طريقة القدماء المحافظين منهم . وقد فضله الاصمعي على مروان بن ابي حفصة فسئل عن السبب فقال : « لان مروان سلك طريقا كثر من يسلكه فلم يلحق بمن تقدمه وشركه فيه من كان في عصره ، وبشار سلك طريقا لم يسلك واحسن فيه وتفرده به ، وهو اكثر تصرفا وفنون شعر واغزر واوسع بديعا ، ومروان لم يتجاوز مذهب الاوائل (٧) » .

ومن هنا كان بشار علما من اعلام الشعر العربي ، ومن هنا كانت قيمته في تاريخ هذا الشعر ، ذلك لانه - في ما يظهر - يصور المراحل التي قطعها الشعر في تطوره من البداوة الى الاندفاع في تيار الحضارة ، الى الاعتدال والقصد في التأثير بها .

فقد نشأ في حجور بني عقيل مواليه ، وهناك بدأ قول الشعر فكان مذهبه فيه اول الامر مذهب القدماء . ثم عاش في البصرة فتأثر بالبيئة واتصل بالمجان والزنادقة تارة ، وبالمتكلمين من المعتزلة وغيرهم تارة اخرى ، فكانت في شعره صورة تلك الحياة الصاخبة النشيطة ، فسلك مسلك المجددين الثائرين في شعره وقتا ما . ثم اتصل بالخلافة وسائر الاتجاه العام في البيئة البغدادية . فكان رأس المتفنين الذين يطلبون البديع طلبا ويقصدون اليه قصدا .

واحسب انه اتخذ هذه الوجهة - وجهة المتفنين في الشعر - آخر ما اتخذ من المسالك والمذاهب .

وقد اعانه على ان يسلك هذه المسالك كلها ، وان يذهب هذه المذاهب
فيرز فيها ، طبعه الفياض الذي تحدث عنه نقاده ومؤرخوه ، الذي كان
يسغه بفيض عجيب من الشعر ، حتى لم يستطع احد ان يجمعه وان يحيط به .
وقد اضطرب بشار في مذهبه الشعري اضطرابه في عقيدته ، وكما
خلط هناك وتخط ، فقد تنقل هنا بين الطرائق فلم يتخذ منها واحدة يبلغ
بها منزلته التي يستحقها بين الشعراء .

وكان العتابي مثل بشار من اهل الصناعتين : صناعة الشعر وصناعة
النثر ، وكان يجمع بين الخطابة والشعر الجيد والنثر المترسل . وقد مهد ل
ذلك طريق البديع كما مهد لبشار من قبله ، لان في البديع صناعة وروية ،
واعمال فكر وقصدا الى استخراج الصور الجميلة ، وله مدخل في التصنع
والتعمل من غير شك . وممارسة الكتابة والرسائل تعين على اعمال الفكر
والقصد الى استخراج المعاني اللطيفة التي يرمي بها الكاتب الى التأثير
في نفس قارئه . واحسب انه كان لهذه الصناعة اثرها في سلوك العتابي هذا
المسلك ، لان الروية واعمال الفكر تصبح عند الكاتب المترسل اشبه شيء
بالسليقة يستطيع ان يستخدمها متى شاء فتستجيب له وتطاوله .

وقد لاحظ فريق من القدماء في شعر العتابي التكلف (٨) ، وادركوا انه
يختلف فيه عن المطبوعين الذين ينطلقون على سجيته . لانه كان يطلب
الصورة الجميلة ويتعمد استخراجها في شعره ، فيأتي فيه بالجديد الذي لا
تخفى جدته على الناقد ، ولا يغيب عنه ما يذله فيه من جهد .

اما مسلم بن الوليد فقد كان قمة ما وصل اليه التفنن في الشعر . فقد
بلغ بالقرن الشعري ان جعله لا يكاد يخلو من صورة بيانية بديعة ، وجمع في
شعره بين مواتاة الطبع واحكام الصنعة حتى ليلتبس الامر على قارئ شعره
فلا يعرف فيه موطن الصناعة الا ان يرجع البصر فيه كرتين .

(٨) الاغاني ج ١٢ ص ٢ .

واحسب ان مسلما قد بلغ بالبديع قريبا من الكمال بذلك ، اذ ادخله بفنونه المختلفة في شعره ، ولم يصل به الى درجة التكلف الذي ظهر في بعض من شعر ابي تمام .

واما ابو تمام فقد اتخذ من البديع وسيلته الاولى في الشعر وطريقته المثلى في التعبير ، فكان يحشد في كل جزء من شعره ما شاء من الوانه المختلفة حتى كاد بعض شعره يستحيل الى شبيه ما يعرف في عصرنا بالمذهب الرمزي ، لشيوع المجاز والاستعارة والكناية فيه شيوعا طغى حتى بلغ مبلغ التعقيد . وفي ذلك ما فيه من اجهاد لذهن القارئ وخياله ، اجهادا به الى الغناء الشديد في تذوق الشعر وفي ادراك مواطن الجمال فيه .

لقد كان ابو تمام في شعره مرحلة جديدة من مراحل الفن الذي عرف بالبديع ، فقد انتقل به من القصد والتوسط الى الايغال والتعقد ، فأصبح من بعض الوجوه شيئا غريبا على اذواق النقاد ، ووجدوا فيه خروجا على طريقة الشعر المألوفة في التعبير وانحرافا عن عمود الشعر كما يقولون .

واقع الحال ان ليس في طريقة ابي تمام شيء من ذلك لو تعمقنا طريقته وتفهمناها على حقيقتها ، وانما هو اندفاع عبقرى وقدرة فائقة عجيبة على استخراج الصور التعبيرية واستبطائ المعاني الجديدة ، متتابعة متراكبة ، لا يسهل ادراكها او متابعتها الا على متذوق ماهر ، له من صناعة الشعر نصيب ، وله فيها ممارسة .

ودليل ذلك ان ابا تمام حين يخفف من غلوائه ، ويقصد في تركيب صوره وتعقيدها يصبح قريبا جدّ القرب من اذواق النقاد ، وبخاصة من يولع منهم بالقديم . وقد سمع عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير شعر ابي تمام فاستحسنه ، وعمارة بدوي يعيش بفكرة وذوقه وشعره في عصر غير عصر ابي تمام .

روى صاحب الاغانى بسنده عن عبيدالله بن عبدالله بن طاهر ، قال :

كان عمارة بن عقيل عندنا يوماً فسمع مؤدباً كان لولد أخيه يرويه
قصيدة أبي تمام :

الحق أبلج والسيوف عوار فحذار من أسد العرين حذار
فلما بلغ الى قوله :

سود اللباس كأنما نسجت لهم أيدي السموم مدارعاً من قار
بكروا واسروا في متون ضوامر قيدت لهم من مربط النجار
لا يرحون ومن رآهم خالهم أبداً على سفر من الاسفار

قال عمارة : « لله دره ما يعتمد معنى الا اصاب احسنه كأنه موقوف عليه » (٩) .
وهذا كلام شاعر يحس كيف يصيب الشاعر غرضه ، وكيف يعرض له
المعنى فيجاوله حتى يصيبه ، فاما ان يوفق الى اظهاره في احسن صورة او لا
يوفق ، وذلك مقياس البراعة والتجويد .

وقدم عمارة بن عقيل ببغداد فاجتمع الناس اليه فكتبوا شعره وشعر
ابيه ، وعرضوا عليه الاشعار ، فقال بعضهم : « ههنا شاعر يزعم انه اشعر
الناس طراً ، ويزعم غيره ضد ذلك » فقال : « انشدوني قوله » فأنشده :

غدت تستجير الدمع خوف نوى غد وعاد قتادا عندها كل مرقد
وأنتفذه من غمرة الموت أنه صدود فراق لا فراق تعمد
فاجرى لها الاشفاق دمعا مورداً من الدم يجري فوق خد مورداً
هي البدر يغنيها تودد وجهها الى كل من لاقت وان لم تودد

ثم قطع المنشد . فقال له عمارة : « زدنا من هذا » . فواصل نشيده :

ولكنني لم أحور وفراً مجمعاً فقزت به الا بشمل مبدد

(٩) الاغانى ج ١٥ ص ٩٨ . ورواها ايضا الصولي في اخبار أبي تمام
ص ٩٥ - ٩٦ .

ولم تعطني الايام نوماً مسكناً الذبه الا لنوم مشرد
فقال عمارة : « لله ذره ، لقد تقدم في معنى من سبقه اليه ، على كثرة
القول فيه حتى لقد جبب الاغتراب ، هيه » • فأنشده :

وطول مقام المرء في الحيّ مخلق لدياجتيه فاغترب تتجدد
فاني رأيت الشمس زيدت محبة الى الناس ان ليست عليهم بسرمد
فقال عمارة : « كمل والله •. لئن كان الشعر بجودة اللفظ ، وحسن
المعاني ، واطراد المراد ، واتساق الكلام ، فان صلحكم هذا اشعر الناس » (١٠) •

ويعني هنا من كلام عمارة ان ابا تمام مبتكر للمعاني حقاً ، او ملبس
للمطروق منها ثوباً جديداً يجعلها كالمبتكرة ، وهو يحسن تقسيم الكلام
واتقاء الالفاظ ، ويصيب مراده من المعنى • وليس في كلام عمارة ما يدل
على انه كان يحس في شعر أبي تمام هذا الذي زعمه النقاد من بعده خروجاً
على الطريقة المألوفة في الشعر وانحرافاً عن عموده



وجملة ما يقال في هذه الطائفة من الشعراء انهم لم يكونوا مجلدين
بالمعنى الواسع للتجديد ، وانما كانوا مجلدين في الأجزاء ، فهم لم يتعمدوا
نظام القصيدة بتحويل او تبديل ، كما فعلت الطائفة الأولى ، ولم يكثر
من النظم في الأوزان القصيرة ، ولا حاولوا في أسلوب الشعر طريقة غير
مألوفة فيه • وانما انصب اجتهادهم في ابتكار المعاني وتجويد الصور واخراج
تلك المعاني في حلل بيانية مزخرفة منمقة • وجروا على سنن الأقدمين فيما
سوى ذلك ، واحتفظوا للشعر بتقاليده التي لم يجد عنها محيصاً حتى
يومنا هذا •

(١٠) الأغاني ج ١٥ ص ٩٧ • واخبار أبي تمام للصولي ص ٥٩ - ٦١ •

٣ - المقلدون

أما الطائفة الثالثة فكانت طائفة المقلدين الذين جروا في مضمار الأقدمين من دون أن يتأثروا في قليل أو كثير ، فما حاولوا أن يبدعوا أو يتكروا ، ولا أضافوا الى الشعر شيئاً مما أضافته الطائفتان الأوليان . ولولا ما ذكروه في شعرهم من الأعلام العباسية لما أمكننا أن نستدل على عصرهم ، ولجاز أن يتوهم دارس شعرهم أنه قيل في العصر الأموي أو في العصر الجاهلي .

وهؤلاء ظهروا في شعر بغداد في أوائل مختلفين ، ظهر بعضهم في أوائل العصر العباسي فكان امتدادا لطبقة الفحول من شعراء العراق ، ومن أولئك مروان ابن أبي حفصة الذي كان من شعراء الأمويين ، وقد مدحهم واتصل بهم اتصالاً وثيقاً . ويبدو أنه عاش في العصر العباسي بجسمه ومصلحته ، لا بعقله ولا بعاطفته وشعوره .

وكان مروان يعتبر في نظر بعض النقاد ندأ لبشار ، يوازنون بينهما ، ومنهم من كان يفضل على بشار ويقدمه عليه « لأنه أشد استواء شعر منه » (١١) ، ولأن معيار التفضيل والتقديم في نظره أن يشبه الشاعر في مذهبه وفي طريقته مذاهب العرب « وكلام مروان ومذهبه أشبه بكلام العرب ومذاهبها » (١٢) .

وظهرت طائفة من هؤلاء المقلدين - وهم الذين يعنيها أن نقف عندهم - في وسط الحقبة التي نبحت فيها من العصر العباسي متأثرة بالنزعة العربية التي رعاها أمراء الجيوش من العرب ، مجارة للنقاد الذين واجهوا التجديد في الشعر بثورة وعنف ، واستجابة للحركة العلمية التي قامت على احياء القديم ومدارسه وروايته وتذوقه .

(١١) و (١٢) الأغاني ج ٣ ص ٢٨ .

وكانت هذه الحركة قد بلغت ذروتها في أوائل القرن الثالث فأخرجت كتب الجاحظ وابن قتيبة وكتاب الكامل لأبي العباس المبرد وأما علي ثعلب في مجالسه وغير ذلك من آثار العلماء في اللغة والنحو وعلوم الأدب .

وكان من هذه الطائفة اسحق بن ابراهيم الموصلي في بعض شعره ، فقد كان ينهج احيانا منهج الأعراب ويقول الشعر على طريقتهم فينسبه اليهم، وكان اسحق يتشبه بذئ الرمة ويقول على لسانه شعرا وينسبه اليه فلا يشك أحد في ذلك ولا يفتن الى حقيقة الأمر (١٣) .
فمن ذلك قوله :

ليجشمها زَميلة غير حازم	ومدرجة للريح تيهاء لم تكن
وتقطع أنفاس الرياح النواسم	يضل بها الساري وان كان هاديا
بعيدة ما بين القَرا والمناسم	تعسفت أفري جوزها بشملة
نجوم هوت أخرى الليالي العواتم	كأن شدار المرو من نبذا به

وكان اسحق يقول الرجز أيضا تشبهاً بالقدماء فمن ذلك ما أنشده الفضل بن الربيع لما دخل عليه حفيده عبدالله بن العباس بن الفضل وهو طفل مات أبوه :

مدّ لك الله الحياة مدّا	حتى يكون ابنك هذا جدّا
مؤزرا بمجده مردّي	ثم يفدّي مثلما تفدّي
أشبهه منك سنة وجدّا	وشيماً مرضية ومجدّا
كأنه أنت اذا تبدّي	شمالاً محموداً وقدّا

ولعل علم اسحق وروايته وما أخذه من علوم عصره هي التي جعلته شديد الإعجاب بالتقديم يسلك سبيله ليدل بذلك على براعة وقدرة فائقة وعلم غزير وحفظ واسع . وقد تحدث اسحق عن تحصيله العلم فقال :

« بقيت دهرًا أغلس كل يوم إلى هشيم فأسمع منه ، ثم أصير إلى الكسائي أو الفراء أو ابن غزالة فأقرأ عليه جزءًا من القرآن ، ثم آتي منصورًا زلزلاً فيضاربنني طرفين أو ثلاثة ، ثم آتي عاتكة بنت شهدة فأخذ منها صوتاً أو صوتين ، ثم آتي الأصمعي وأبا عبيدة فأناشدهما وأحدثهما فأستفيد منهما » (١٤) .

ولعل من أسباب ذلك أيضاً أن اسحق كان عربي النزعة عربي الولاء . وقد فخر بولائه هذا فقال :

إذا مضر الحمراء كانت ارومتي وقام بنصري خازم وابن خازم
عطست بأنف شامخ وتناولت يداي الثريا قاعداً غير قائم

وكان بعض المقلدين شعراء من البدو ، يقدمون بغداد لينشدوا الخلفاء مديحهم ويخطوا بجوائزهم كعمارة بن عقيل وأبي العميش . وكان عمارة يقدم على المأمون فينشده شعراً مليئاً بالغريب لا يكاد المأمون يفهمه . روى أبو الفرج عن النخعي قال :

« لما قدم عمارة بغداد قال « كلم لي المأمون ، وكان النخعي من ندماء المأمون ، قال : فما زلت اكلّمه حتى أوصلته إليه فأنشده هذه القصيدة :

حسام قلبك بالحسان موكل كلف بهنّ وهنّ عنه ذهّل

فلما فرغ قال لي : يانخعي ما أدري أكثر ما قال . وقد أمرت له لكلامك بعشرين ألفاً (١٥) .

وكان عمارة هذا يقيم ببادية البصرة ويزور الخلفاء في بغداد . وكان النحويون بالبصرة يأخذون عنه اللغة .

أما أبو العميش فقد ولد في البدو ونشأ في البادية ، وكان في بني القين

(١٤) الأغاني ج ٥ ص ٥٠ .

(١٥) الأغاني ج ٢ ص ١٨٦ .

ابن جسر • وكان المأمون يقدمه ويقول فيه «هو أشعر عندي من جرير»^(١٦) .
وقد أعان على بقاء القديم أمور يتصل بعضها بالحياة العلمية وبعضها
بالحياة الاجتماعية •

فأما ما يتصل بالحياة العلمية ، فما ألحنا اليه من مدارس القديم
وروايته ، وقد كان الرواة والنقاد ، يفضلون المقلدين في الأغلب وينصرونهم
على المجددين • فقد كان ابن الاعرابي يخم الشعراء بمروان بن أبي حفصة ،
ولم يدون لأحد بعده شعرا^(١٧) •

وكان أبو العباس المبرد يقول : « ختمت الفصاحة في المحدثين بعمارة
ابن عقيل »^(١٨) •

وأما ما يتصل بالحياة الاجتماعية فقد مر الكلام عليه في الفصول
السابقة ، وهو تلك النزعة التي كانت تظهر أحيانا عند الخلفاء من الحرص
على العروبة والاحتفاظ بطابعها في الحياة العباسية ، وما كان يبدو على امراء
الجيوش من العرب من محافظة على التراث العربي في التقاليد الاجتماعية
وفي الشعر ، فقربوا إليهم طائفة من الشعراء مدحهم برفعة الأنساب ،
وتحدثوا عن مجد أسرهم وقبائلهم ، وأحيوا بذلك بعض تقاليد المجتمع
الأموي والجاهلي • من هؤلاء الشعراء بكر بن النطاح الحنفي ومروان بن
أبي حفصة وعلي بن جبلة العكوك وغيرهم •



وبعد فهذا عرض للمذاهب التي كان عليها الشعر في بغداد ، ولطوائف
الشعراء فيها عرضا موجزا عما لم نشأ أن نتحدث فيه عما أحدثه كل مذهب وكل

(١٦) تاريخ بغداد لطيفور ص ٣٠٦ - ٣٠٧ •

(١٧) الأغاني ج ٩ ص ٤٣ •

(١٨) الأغاني ج ٢٠ ص ١٨٣ •

طائفة في الشعر وعما كان يتميز به اتجاهه فيه ، وانما عينا بأهم الخصائص العامة ، وبتقسيم الشعراء طوائف تتسم كل منها بالسمة التي غلبت عليها وانطبع شعرها بطابعها .

وليس يعني ذلك بطبيعة الحال أن التداخل بين هذه الطوائف غير قائم ولا كائن ، بل لقد كان هذا التداخل ملحوظا في وضوح عند بعض الشعراء أمثال بشار بن برد الذي كان يجمع في شعره بين الوجاهات الثلاث التي تحدثنا عنها ، وكأبي نواس الذي جمع بين التجديد والتقليد في شعره ، وكدعبل بن علي الخزاعي الذي تلمذ لمسلم بن الوليد فتأثر به أول الأمر ، ثم خرج عليه وعاد الى تقليد القدماء واتباع طريقهم .

أما تفصيل ما أحدثه في الشعر المحدثون في الموضوع وفي الأسلوب فهو موضوع ما سيأتي من البحث ان شاء الله .



الباب الخامس

مظاهر التجديد

تمهيد

كان القرن الثاني للهجرة قرن التجديد في الشعر بحق ، حتى كأن العوامل التي خلقت هذا التجديد قد اجتمعت وتضافرت من كل مكان لتحدث ذلك في الشعر العربي .

وكان بعض هذه العوامل مما يصح ان يوصف بأنه قسري لا مفر منه، وبعضها ضرورة من ضرورات التطور في الحياة الجديدة ، وانا اعني ان افرق بين هذين الضربين من العوامل . فأما الضرب الأول فهو الذي نزل عنده الشعر - مكرهاً - من عليائه . ولو تمثل شخصا يرضى ويغضب ، ويقبل ويرفض ، لغضب وما رضي ، ولرفض وما قبل . وذلك إثر غلبة الاعاجم على الحياة ، وما اقتضت ان يضحي الشعر من اصوله الفنية الاولى في سبيلهم ، فيغير في اسلوبه ويهجر بعض مجالاته ، ويعتدي على تقاليده الفنية الاولى اعتداء ابي نواس ونحو ذلك .

واما الذي احسب انه ضرورة من ضرورات التطور في الحياة ، فهو تأثره بالحضارة في اسلوبه وفي افكاره تأثراً افضى الى شيء من التجديد مريح مقبول معتدل ، لم يجنح الى الثورة على قديم هذا الفن ولم يتخذ منه اداة للهزل والمجون وينزل به عن سامي منزلته عند العرب ، الى التراشق الماجن البذيء والحديث المتهتك عن الشهوة الجنسية والخمر .

وقد بحثنا في عوامل التجدد ودواعيه فيما سلف ، فلا حاجة بنا الى اعادة القول فيها ، ونريد في هذا الباب ان نستعرض من مظاهر التجديد اهمها وادناها الى طبيعة هذا البحث المتسع المتشعب الاطراف . وسنقسم مظاهر التجديد في الشعر قسمين : الاول يتصل بالموضوع والفكرة ، والثاني يتعلق بالصورة والاسلوب .

على ان ذلك لا يعني ان الفصل بين هذين هو الطريقة السليمة في البحث الادبي ، وانما الصواب ان يدرك الباحث انهما اشبه واولى ان يعدا وحدة لا انفصال بين جزئيهما . ولكن طبيعة التقسيم المنهجي تقضي بذلك ولا مناص منها .

على ان الصلة بين الاسلوب والفكرة ستراعى كل المراعاة في هذا البحث ، وسنرى ان تأثر الاسلوب بأي مؤثر من الحياة الاجتماعية او العقلية او الحضارية انما يصحبه تأثر في الفكرة وفي المعنى ، كما سيأتي بيان ذلك في اثناء البحث .

وسيكون الكلام على الافكار والمعاني اعم من ان يتناول المعاني الجزئية فهي اخلق بدراسة شخصيات الشعراء او الفنون الشعرية . وستكون دراسة الافكار العامة في الشعر هي موضع العناية والبحث .

كما ان الكلام على الاسلوب سينصب على الصفات العامة ولن يكون من هم هذا البحث ان يتتبع الخصائص الجزئية فيه .



الفصل الاول

الجديد في الموضوع

لقد قضت عوامل التطور والتحول في حياة بغداد ان تجد في الشعر موضوعات لم تكن معروفة للشعر العربي من قبل ، وان تتطور فيه موضوعات اخرى كان الشعراء يتناولونها من قبل بطريقة مختلفة .

١ - الهجاء

فقد كان من قبل نقائص طويلة في الغالب ، يكون مدار الكلام فيها على النيل من شرف المهجو ، وتلمس مواطن الضعف فيه صدقا او تصنعا ، وثلب اسرته وعشيرته وذويه والاتقاص منهم .

وكانت المقاييس التي يستند اليها الشعراء في ذلك هي المقاييس الخلقية والاجتماعية المألوفة عند العرب ، كالكرم والشجاعة والذود عن الكرامة والعفة والايتار ، وغير ذلك مما هو معروف مشهور .

وفي نقائص الفحول جرير والفرزدق والاخلط والراعي وغيرهم صور واضحة لها دلالتها على ما نقول .

فما ان دخل القرن الثاني للهجرة ، واصبح المتهتكون من الموالي هم اولي التأثير الفعال في توجيه الشعر ، تحول الهجاء من هذه المعاني المألوفة الى الافحاش والاستهزاء وقذف الاعراض والامعان في البذاءة امعانا يصل

في بعض الاحيان الى حد يتخرج الباحث من روايته . وهبط ذلك بقيمة الشعر فأصبح وهو ليس من الفن في شيء ، وانما هو في بعض صورهِ ليس الا مجموعة من الفاظ السباب والبذاءة لفق بعضها الى بعض ، وليس فيها من صفات الشعر الا الوزن والقافية .

وكان فرسان هذه الحلبة وطليعتها أولئك الشعراء الذين كانوا يجتمعون في البصرة وفي الكوفة على الشراب ، ويتناشدون الشعر ويهجو بعضهم بعضا ويرمى كلهم بالزندقة . وابرز هؤلاء واشهرهم بشار بن برد وحماد عجرد وابو الشمقمق .

ولبشار في حماد وفي غيره اهاج مقذعة لا سبيل لهذا البحث الى روايتها . ويبدو انه كان يحمل على الاقذاع فيها كرها في بعض الاحيان . ومن اهاجيه التي تستجاد روايتها في مثل هذا البحث قوله في حماد حين اتخذه بعض الأمراء مؤدبا . فقال بشار يحذره من حماد :

قل للامير جزاك الله صالحا لا تجمع الدهر بين السخل والذئب
السخل غررٌ وهمٌ الذئب فرصته والذئب يعرف مافي السخل من طيب
وقوله فيه أيضا يخاطب ذلك الأمير :

يا ابا الفضل لا تتم وقع الذئب في الغنم
ان حماد عجرد ان رأى غفلة هجم
.....
..... السخ

وقال في حماد أيضا بعد أن مات يعزي به صاحباً له اسمه حريب وكان يدين مثله بمذهب الثنوية .

بكى حريب فوقعه بتعزية مات ابن نهبي وقد كانا شريكين
تفاوضا حين شابا في نسائهما
.....

أَمْسَى حَرِيبٌ بِمَا أَسْدَى لَهُ غَيْرَا كِرَاكِبٌ ائْتَيْنِ يَرْجُو قُوَّةَ ائْتَيْنِ
حَتَّى إِذَا أَخَذَا فِي غَيْرِ وَجْهِهِمَا تَفَرَّقَا وَهَوَى بَيْنَ الطَّرِيقَيْنِ

وهكذا أصبحنا نرى في الهجاء من يتناول العقائد ويتخذها من طرف
خفي ذريعة للإيقاع بالهجو لدى السلطان • قال بشار يهجو حمادا أيضا :

ابن نهبي رأسي علي ثقیل واحتمال الرؤوس خطب جلیل
ادع غيري الى عبادة الاثنی سن فإني بواحد مشغول

وقال يهجو عبد الكريم بن أبي العوجاء :

قلت عبد الكريم يا ابن ابي العو جاء بعث الاسلام بالكفر بوقا
لا تصلي ولا تصوم فإن صم ست فبعض النهار صوما رقيقا
لا تبالي اذا اصبت من الخم سر عتيقا ان لا تكون عتيقا

وكان حماد يفعل مثل ذلك بشار فيهجوه هجاء مرأ ، ويرميه بالزندقة
والفجور ويستعدي عليه السلطان من اجل ذلك • وينعته بالكلب والخنزير
فمن ذلك قوله :

قل لعيسى الامير عيسى بن عمرو ذي المساعي العظام في قحطان
والبناء العالي الذي طال حتى قصرت دونه يدا كل بان
يا ابن عمرو عمرو المكارم والتقف وى وعمرو الندى وعمرو الطعان
لك جار بالمصر لم يجعل الله (م) له منك حرمة الجيران
لا يصلي ولا يصوم ولا يقف رأ حرفا من محكم القرآن
انما معدن الزناة من السفلة في بيته ومأوى الزواني
وهو خدن الصبيان وهو ابن سبعين فماذا يهوى من الصبيان
طهر مصر منه يا ايها المو لى المسمى بالعدل والاحسان
وتقرب بذاك فيه الى الله تفز منه فوز أهل الجنان
يا ابن برد احسأ اليك فمثل ال كلب في الناس أنت ، لا الانسان

ولعمري لانت شر من الكلب واولى منه بكل هوان
وقد بلغ المجون والتبذل بالقوم الى مثل ما قال أبو الشمقمق في الهجاء :
الطريق الطريق جاءكم الا حمق رأس الأتان والقدرة
وابن عم الحمار في صورة الـ فيل وخال الجاموس والبقرة

ولو كان هذا اللون من الهجاء هو كل ما أعقبه المجددون الثائرون من
الشعراء لما صح أن نلتفت اليه أو نبحت فيه ، فهو كلام مبتذل ليس من الفن
الشعري في شيء . ولكن ذلك أعقب شيئاً آخر هو التجديد بحق .

فقد ظهر عند هؤلاء المجددين هجاء ليس من طراز الهجاء القديم ولا من
قبيل ما رويناه من الهجاء البذيء المسف ، ولكنه هجاء يعتمد على السخرية
من المهجو والاستهزاء به واضحاك الناس عليه ، وهو يصور لنا فوق ذلك -
جانبا من الحياة الشعبية ويكشف لنا عن عنصر الفكاهة والهزل في المجتمع .
ويدو أن أول من برز في هذا اللون من الهجاء وأجاد فيه حماد عجرد ،
وتبعه فيه غيره من الشعراء ممن سيأتي ذكرهم بعد .

وقد جرى هذا الهجاء الساخر عند هؤلاء الشعراء مجريين : أحدهما
مجرى السخرية المكشوفة الصريحة التي يتناول بها الشاعر شخص المهجو
فيخرجه في شعره على صورة تبعث في النفس الهزء والضحك ، ويعبث به
عبثاً واضحاً يشبه ما يعرف في أيامنا هذه بقن الكاريكاتور .

فمن هذا الطراز هجاء حماد لبشار بقبح الصورة وتشبيهه اياه بالقرد
أو أقبح من القرد :

ويا أقبح من قرد إذا ما عمي القرد

ومنه أيضا هجاء أبان بن عبد الحميد اللاخقي رجلا من ثقيف كان
جيرانه يقال له محمد بن خالد وكان عدوا لأبان ، فتزوج بنت عبد

الوهاب الثقفي وكانت موسرة ، فقال أبان يهجو ويحذرهما منه ويفرق بينهما وبينه :

لما رأيت البز والشارة	والفرش قد ضاقت به الحارة
واللوز والسكر يرمى به	من فوق ذي الدار وذو الدار
واحضروا الملهين لم يتركوا	طبلا ولا صاحب زمارة
قلت : لماذا ؟ قيل : اعجوبة !	محمد زوج عمّاره
لا عمر الله بها بيتيه	ولا رأته مدركاً ثاره
ماذا رأت فيه ؟ وماذا رجّت	وهي من النسوان مختاره ؟
اسود كالسفود ينسى لدى	التنور او محراك قبّاره
يجري على أولاده خمسة	ارغفة كالريش طيّاره
وأهله في الارض من خوضه	إن افراطوا في الاكل سيّاره
ويحك فري واعصبي ذاك بي	فهذه اختك فرّاره
إذا غفا بالليل فاستيقظي	ثم اظفري انك طفّاره

ومن الطريف في هذا الضرب من الهجاء أنه تأثر بالحياة العقلية واستخدمها استخداماً فيه طرافة وفيه ابداع ، فمن ذلك هجاء حماد عجرد أحد أصحابه وهو حفص بن ابي بردة بعيوب العروض والنحو • وذلك قوله فيه - وقد طعن على مرقش وعاب شعره في بعض مجالسهم :

لقد كان في عينيك يا حفص شاغل	وأنت كثيل العود عما تتبع
تتبع لحناً في كلام مرقش	ووجهك مبني على اللحن أجمع
فأذناك إقواء وأنت مكفأ	وعيناك إطاء فأنت المرقّع

وقد كان هذا الطراز من الهجاء مما شاع عند شعراء القرن الثاني ، ومن أخذ فيه من شعراء القرن الثالث دعل بن علي الخزاعي الذي اشتهر بالهجاء وعرف بتصرفه في ألوانه المختلفة •

فمن ذلك هجاؤه أبا عباد وهو من كتاب المأمون ، وقد صورته أخرج
 ذا لوثة ، كأن مجلسه ملحمة دامية أو ساحة حرب تعلو فيها الأصوات
 وتسيل فيها الدماء ، وكأنه مجنون أفلت من سجنه يجرر سلاسل قيده (١) .
 قال :

أولى الامور بضیعة وفساد	أمر " يدبره أبو عباد
خرق على جلسائه فكأنهم	حضرُوا للملحمة ويوم جلا
يسطو على كتابه بداوته	فمضمخ بدم ونضح مداد
وكانه من دير هرقل مفلت	حرد يجر سلاسل الاقياد
فاشدد امير المؤمنين وثاقه	فأصح منه بقية الحداد

وهجاء دعبل رجلا قبيح الوجه يقال له صالح بن عطية الأضجم ،
 فوصف وجهه لشدة قبحه بأن من يراه يقتل ويمرض . وكان المعتصم قد
 اصطنعه ، فقال دعبل يخاطبه في ذلك :

قل للامام امام آل محمد	قول امرئ حذب عليك محام
أنكرت ان تقتر عك صنیعة	في صالح بن عطية الحجام
ليس الصنائع عنده بصنائع	لكنهن طوائل الاسلام
اضرب به جيش العدو فوجهه	جيش من الطاعون والبرسام

وكان لابن الرومي في هذا اللون من الهجاء وجهة فنية جديدة ، فقد
 أعمل فيه قنه وقدرته على توليد المعاني واستقصائها ، واستخدم المبالغة
 والتهويل فيه حتى لقد أفرغ فيه سخطه على المجتمع وشذوذه في علاقاته
 بالناس .

فمن معانيه المبتكرة البديعة قوله :

(١) قبل للمأمون ان دعبلأ هجأك . فقال « هو يهجو أبا عباد لايهجوني »
 يريد بذلك ما ناله منه من السخرية والاستهزاء . طيفور ص ٢٩٧ .

وجاهل أعرضت عن جهله
 قد هام وجداً باكتراثي له
 إن من الشكوى بحيلولة
 أحضرت نجوى النفس تمثاله
 وقلت للشعر ألا أعدني
 فقال من خاصمت مستهلك
 لو كان لي في مثله موضع
 بكل بيت سائر عابر
 لكن من تهدي له شتمة
 حتى شكا كفي من الشكوى
 وقد أبت نفسي ما يهوى
 توهمني البلوى به بلوى
 مستحيماً من شاهد النجوى
 على طويل الغي مستهوى
 ليست على أمثاله عدوى
 غادرته أحدىثة تروى
 يسمع والوجه له يزوى
 تهدي إليه المن والسلوى

ومن أوصافه التي تبعث على الضحك والسخرية قوله المشهور في وصف
 أحذب :

قصرت أخادعه وطال قذاله
 وكأنما صفتت قفاه مرة
 فكأنه متربص أن يصفعا
 فأحسن ثانية لها فتجمعا

وقوله :

جاء سليمان بني طاهر
 كأن بغداد لدن ابصرت
 فاجتاح معتز بني المعتصم
 طلعت نائحة تلتدم
 وجه بخيل وقفا منهزم
 مستقبل منه ومستدبر

ولعل للطبعة الانطوية عند ابن الرومي فعلها في تخيل الصور
 المضحكة الساخرة لمن كان يهجوهم • فقد كان انطواؤه وانزاله عن الناس
 يعينه على التأمل والتدبر ، ويسعفه بما شاء من تلك التخيلات الشعرية •

والطراز الثاني من هذا الهجاء أدخل في الفن وأعلى فيه كعباً ، فهو
 في ظاهره جد وفي باطنه هزل • وقد سلك فيه الشعراء المذهب الذي عرف

في علم البديع بعد ذلك بحس التعليل . فكان الشاعر من هؤلاء اذا أراد هجاء أحد تفتن الى صفة من صفاته القبيحة فحللها وعلل أسبابها تعليلاً هو في ظاهرة دفاع عنها وثناء عليها ، وهو في حقيقته امعان في تقييحها وفي العبث بصاحبها . وذلك ادعى الى الهزل وأجلب للهزء بالمهجو والسخرية منه ، لأن ذلك يأتي على غير انتظار من سامع الشعر أو قارئه . ولأن الشاعر من هؤلاء يعتمد الى بعض الصفات التي لم يجر العزف الاجتماعي على مدحها والاعجاب بها والثناء عليها فيأخذ في مدح صاحبها بها ، وفي استخدام حسن التعليل في ذلك استخداماً فنياً جميلاً ، ولعنصر المفاجأة في ذلك وقعه في نفس السامع أو القارئ فمن ذلك قول حماد عجرد في حريث بن ابي الصلت الحنفي يهجوهُ :

حريث أبو الصلت ذو خبرة بما يصلح المعدة الفاسدة
تخوف تخمة أضيافه فعودهم أكلة واحدة
ومثل ذلك أيضاً قوله في محمد بن طلحة ، وقد نزل به فأبطأ عليه
بالطعام فقال فيه حماد :

زرت امرءاً في داره مرة له جاء وله خير
يكره أن يتخم أضيافه ان اذى التخمة محذور
ويشتهي أن يؤجروا عنده بالصوم والصالح مأجور

ومن أبرع ما قيل من هذا الطراز هجاء أبي نواس اسماعيل بن أبي سهل بن نوبخت ، وقد تفتن فيه فجعل مدار حديثه رغيغ اسماعيل الذي يرفى اذا انشق فلا يعرف فيه موضع الابرة ، وصنعتة الظرفية في مزج الماء العذب بماء البئر كي يزداد ضعفاً ، وهو مذهب في الرمز والايماء فيه ابداع وابتكار :

خبز اسماعيل كالوشى اذا ما انشق يرفى

عجبا من أثر الصنعة فيه كيف يخفى
 إن رفقاءك هذا أحذق الأمة كفا
 وإذا قابل بالنص ف من الجردق نصفا
 ألطف الصنعة حتى لا ترى مغرز أشفى .
 مثلما جاء من التنور ما غادر حرفا
 وله في الماء أيضا عمل أبدع ظرفا
 مزجه العذب بماء البئر كي يزداد ضعفا
 فهو لا يسقيك منه مثلما يشرب صرفا

ومن طريف هذا الضرب من الهجاء ما فعله دعبل بن علي الخزاعي
 بـابراهيم بن المهدي لما تولى الخلافة ببغداد في غياب المأمون . وقد اعمل
 فيه لسانه اللاذع بهجاء بلغ فيه من السخرية والاستهزاء كل مبلغ . وكان
 ابراهيم معروفا بالغناء فاتخذ دعبل من هذه الصفة موضوع هجائه لابراهيم
 وادار عليها سخريته به . فقال :

يا معشر الاجناد لا تقنطوا وارضوا بما كان ولا تسخطوا
 فسوف تعطون حنينية يلتذها الامرء والاشمط
 والمعبديات لقوادكم لا تدخل الكيس ولا تربط
 وهكذا يرزق قواده خليفة مصفحه البربط

ولعل اهم ما يلاحظ في هذا الفن الجديد من شعر الهجاء امور ثلاثة :

أولها - ان الهجاء استقل بمقطوعات او قصائد قصيرة ، ولم يعد
 يشارك غيره من موضوعات القصيدة العربية التقليدية حيث يجتمع اليه فيها
 النسيب الذي لا بد منه في مقدمات القصائد ثم الفخر احيانا والمدح احيانا
 اخرى ، ونحسب ان الهجاء كان ثاني الاغراض الشعرية التي استأثرت
 بالاستقلال ، فلم يجتمع اليها غيرها في القصيدة ، وكان اول تلك الاغراض

الغزل وقد استقل عند عمر بن ابي ربيعة ثم استمر على استقلاله عند شعراء
الغزل الحجازيين من عذريين وغيرهم •

الامر الثاني - ان الهجاء اصبح فنا شعبيا عاميا في معانيه وفي اسلوبه،
فلم يعد يحفل بالمقاييس الاجتماعية والخلقية الماثورة عن المجتمع العربي
الاول ، ولم يعد يجعلها هي التي يذم بمجانبتها الشخص المهجو ، وانما
اصبح بطبيعة المجتمع الحضري ، من حيث ان الفرد فيه هو الوحدة
الاجتماعية التي تقوم عليها الاعتبارات الاجتماعية المختلفة ، ولا شأن لاسرته
او لقبيلته او لقومه بما يستحق من لوم او تأنيب او عقوبة (ولا تزر وازرة
والمرح وينشد في الفنون - على اختلاف ضروبها وموضوعاتها - تسلية
ومتعة وترويحاً للنفس ، ولهذا حاول الشعراء ان يجعلوا من الهجاء فناً
تصويرياً قد يجوز لنا ان نشبهه بالنمط المسرحي الكوميدي الذي يستهوي
طبقات المجتمع ولا سيما الطبقة العامة •

الامر الثالث - انه على رغم الشعبية التي نلاحظها فيه ، قد افاد من
المعارف الجديدة ، وتأثر بالحياة العقلية فاستخدم المنطق والاستدلال
والاقناع والاحتجاج ، وتصرف فيها وألأنها لطبيعة هذا الفن ، ومن ذلك نتج
ما اشرنا اليه من استخدام حسن التعليل في الطراز الثاني من هذا الهجاء
ومنه ايضا ما رويناه لحمداء عجرد في الهجاء بعيوب العروض والنحو •

اما في الاسلوب فقد تحرى هذا الهجاء الجديد سهولته وبساطته ، بل
لقد جانب في كثير من الاحيان فصاحته وجزالته •

ولقد كان ذلك لازماً عليه ليشيع بين عامة الناس ، فينشدوه ويحفظوه
ويتداولوه ويتحقق بذلك غرض قائله منه • هذه ناحية ، وثمة ناحية اخرى
فرضت على الهجاء الجديد ان يكون كذلك ، تلك هي انه نشأ في الغالب

على ايدي شعراء لم يكونوا على جانب كبير من الفصاحة ، ولم يكن لهم
بالقديم صلات وثيقة ، بل كان جلهم من طبقة المجان الهازلين المتهتكين الذين
يحيون في الجانب الباسم المتحلل من المجتمع ، ويعيشون على ما تنفقه عليهم
الطبقة التي كانت تحذرهم وتخاف شواظ ألسنتهم ، تلك اللسان التي لم
تكن تتورع عن ان تقول اي شيء بالغما ما بلغ من الهجنة والابتذال .

أما تطوره من الناحية الفنية فقد بدأ سبابا مبتذلا لا قيمة له من الوجهة
الفنية ، ثم اصبح تصويرا فنيا يلتقط فيه الشاعر جانبا من جوانب الشخص
الذي يريد ان يهجو ويجعل ذلك مدار حديثه في الهجاء . وكان في هذه
الحالة هجاء صريحا وسخرية مكشوفة ، ثم صار في مرحلته الاخيرة ينهج
سبيل الرمز والايحاء فيمدح الشخص المهجو بالصفات التي هي مدعاة للذم
ومجلبة للاستهزاء والسخرية .

وهو بهذا يسجل تحولا خطيرا في فن الهجاء ، فبعد ان كان يقصد فيه
الى ايلام المهجو وايجاعه بأن تسلب منه دواعي الفخر ، وما يستحق ان يمدح
من اجله ، اصبح في صورته الاخيرة فنا هزليا فيه متعة وفيه تسلية وفيه
مرح ، وتلك بلا شك ادخل في اغراض الفن وغاياته مما كان يقصد اليه الهجاء
في صورته التقليدية التي عرفها الشعر العربي .

وذلك يدل ايضا على ان المجتمع قد تطور في غرائزه من البساطة
والسذاجة البدوية الى التسامي والاعلاء الذي تعين عليه الحضارة ، ذلك
أن الهجاء من بعض جوانبه تعبير عن غريزة الخصام والمقاتلة، فكلما كان غرضه
الايلام والايجاع ، كان ذلك دليلا على أن الغريزة لما تزل في حال من البدائية
والسذاجة . وكلما تحول الى الهزل واستخدام المرح والامتع كان ذلك
أمارا التسامي والاعلاء في الغريزة وتلك ظاهرة تنبئ بمكان المجتمع في
الحضارة وتدل على تطور المعايير الاجتماعية فيه .

٢ - الحكمة والزهد

ومما جد في الشعر من الأغراض والموضوعات شعر الزهد والحكمة وما هو بسبيلهما من المواعظ والنصائح . وكان علم هذا الطراز من الشعر ابو العتاهية اسماعيل بن القاسم بن سويد المكنى أبا اسحق .

ولم يكن الشعر العربي من قبل يخلو من خطرات في الحكمة وفي فلسفة الحياة ومآلها وفي النصيح والموعظة والارشاد ، بل لقد كانت هذه المعاني تشيع في ثنايا القصائد عند بعض الشعراء . وفي معلقة زهير بن أبي سلمى شيء كثير من هذا القبيل ، ولا سيما حديثه عن السلم وذم الحرب واسداء النصيحة لقومه بالكف عن الحرب وبذ الخصومة والتشاحن ، الى غير ذلك من التجارب الانسانية والموعظة الحسنة .

وبعد الاسلام لم نكد نشهد في الشعراء من تناول هذا الموضوع في شعره مثلما فعل زهير ، ولعل القرآن وأسانيه المعجزة وحديث الرسول وما فيه من روائع الحكم وجوامع الكلم هو الذي أقعد الشعراء عن أن يخوضوا في هذا الموضوع وأن يتركوا هذه المعاني . وكانت هذه الظاهرة بعض ما أعقبته الهزة الفنية التي أحدثها القرآن في الحياة الأدبية .

على أننا نعرف شاعراً من المخضرمين أدرك الجاهلية وعاش في الاسلام فلم يصنع اليه قلبه ، وكان على صلة بالأديان السماوية الأخرى ، فوقف شعره على الحكم والمواعظ والمعاني الدينية ، وذلك أمية بن أبي الصلت الثقفي .

وفي أواخر العصر الأموي شهدنا طائفة من الناس تنصرف الى وعظ الناس وارشادهم ، وتقص عليهم القصص التي ترمي من ورائها الى الحث على التمسك بالدين وبث الفضيلة ونشر مكارم الأخلاق ، وتلك هي طائفة الوعاظ والقصاص . وكان أبرز رجالها في البصرة عالمها ومرشدها الحسن البصري .

لذلك يحق لنا ان نعتد هذا المذهب في الشعر شيئاً جديداً الى حد بعيد ، أخرجته للناس أبو العتاهية فوقع منهم في أحسن موقع وأعجبوا من أجله بأبي العتاهية أيما إعجاب ، وقدمه معاصروه أو أغلبهم وفضلوه .

وكان أبو العتاهية يصدر في شعره هذا عن موردين : الأول ما أصابه في الفلسفة والحكمة من ثقافة وما حصله فيها من افكار . وقد مر بنا عند الكلام على العامل العقلي ما يدل على أن أبا العتاهية قد أخذ من الفلسفة بنصيب ، وأنه اطلع على طرف منها ، وكان له مذهب في العقيدة وفي الفلسفة يدين اليه . وأن أبياته التي مرت روايتها في رثاء صديقه علي بن ثابت وبخاصة قوله :

وكانت في حياتك لي عطات وانت اليوم أوعظ منك حيا

يقال انه قد استقاه من رثاء الفلاسفة لاسكندر .

ولعل ثقافة أبي العتاهية في الفلسفة هي التي دعتة الى ان يأخذ في مذهب جديد في الشعر ، وأن يكون هذا المذهب حكمة تسير على الألسن وتصادف في نفوس الناس قبولا وموافقة .

وكان أبا العتاهية عجز ان يقوم في الشعر المؤلف مقام الفحول ممن معاصريه ، فخرج على الناس بهذا الجديد الذي نهجت سبيله في نفوسهم فأكبروه واجلوه ، واحلوه من أجله مرتبة التقديم على اقرانه ومعاصريه من الشعراء .

وليس هذا محض افتراض او مجرد استنتاج ، بل ان في آراء بعض النقاد والشعراء في شعر ابي العتاهية ما يدل على انهم لم يكونوا يقوّمونه بشيء ، بل يرون فيه انحطاطا عن المقاييس الفنية في المعنى وفي الاسلوب بوجه خاص . وكان اسحق بن ابراهيم الموصلي ، مثلاً ، يعيبه ولا يراه شيئاً ، ويقدم عليه في الغزل — وهو ثاني الاغراض في شعره — العباس بن

الاحنف^(٢) . واسحق شاعر ناقد يذهب مذهب القدماء . كما ان لمسلم بن الوليد في ابي العتاهية رأياً لا يخلو من الاستخفاف به وبشعره ، ومسلم رأس المتقنين من الشعراء في عصره .

ولعل اطلاع ابي العتاهية على التراث اليوناني قد مكّنه من أن يتعرف طريقة شاعر من شعرائهم اشتهر في الشعر اليوناني بأنه مبتكر لما يسمونه بالشعر الخلقى التعليمي (Didactic Poetry)^(٣) وهو هزيود (Hesiod) فقلده أبو العتاهية واتبع سبيله ، وان يكن هذا الاحتمال غير مؤيد بما في شعره من معاني الحكمة والزهد والاخلاق ، خلا ما أشرنا اليه من اقتباسه كلام الفلاسفة في رثاء الاسكندر وهو لا يكفي دليلاً على أخذه عن شعراء اليونان .

أما المورد الثاني الذي كان أبو العتاهية يصدر عنه في زحمده وفي حكمته فهو القرآن . وكان هذا ظاهرة في ابي العتاهية تستحق التأمل والتفكير . فهو مرمي عند بعض مؤرخيه بأنه كان يعتنق الزندقة^(٤) ، واذن فليس موقعه من القرآن موقف المسلم المؤمن الصادق الايمان ، بل يبدو أنه كان موقفه المتحدي المكابر الذي يتنازله في ميدانه ويقلده ، ويزعم أنه يأتي بمثله أو بأحسن منه . روى صاحب الأغاني بسنده عن رجاء بن مسلمة انه قال : « سمعت أبا العتاهية يقول : قرأت البارحة « عم يتساءلون » ثم قلت قصيدة أحسن منها^(٥) » .

وهذا ان صح عنه يدل على انه كان يتطلع بشعره في الحكمة والاخلاق الى منزلة القرآن في نفوس المسلمين والمؤمنين . وهو في هذا ايضا خلف

(٢) الأغاني ج ٨ ص ٢٣ - ٢٤ .

(٣) See Encyclopaedia Britanica, Art. Greek Literature.

(٤) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٣٠٩ .

(٥) الأغاني ج ٣ ص ١٣٧ .

لامية بن ابي الصلت الذي كان يمتلىء حقدا على الرسول وعلى دينه
فيحاول ان يصرف الناس عن كتابه الكريم بما في شعره من المعاني الدينية •
ولعل هذا المسلك من ابي العتاهية كان حلقة في سلسلة من عمل اعداء
الاسلام لمناهضته ومحاربته ، والله بالاسرار عليم •

وقد كان ابو العتاهية يسطو بالفعل على بعض آي القرآن فينظمه شعرا
او يقتبسه بنصه في بعض الاحيان • مثال ذلك قوله :

ليت شعري فاتني لست ادري أي يوم يكون آخر عمري
وبأي البلاد يقبض روحي وبأي البلاد يخفر قبري

وليس هذان البيتان الا معنى قوله تعالى « وما تدري نفس ماذا تكسب غدا
وما تدري نفس بأي ارض تموت » •
وقوله في قصيدة اخرى :

وان لكل حادثة لوقتا وان لكل ذي عمل حسابا
وان لكل مطلع لحدّا وان لكل ذي اجل كتابا

والشطر الاخير يماثل قوله تعالى « لكل اجل كتاب » •

ومن ذلك ايضا قوله :

أشد الجهاد جهاد الهوى وما كرم المرء الا التقى
واخلاق ذي الفضل معروفة يبذل الجميل وكفّ الاذى

والشطر الاول مأخوذ من حديث مأثور عن الرسول صلى الله عليه وسلم بعد
ان رجع من الجهاد فقال : « رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر » ،
وسئل عن الجهاد الاكبر فقال : « جهاد النفس » • والشطر الثاني مأخوذ
من قوله تعالى « ان أكرمكم عند الله اتقاكم » •

أما المعاني التي حام حولها أبو العتاهية فهي لا تخرج عن الترغيب في العمل الصالح ، والحث على الزهد في الدنيا ، والتذكير بالموت ، والترهيب مما بعده ، والحض على طاعة الله والكلام على طبائع الناس ، وإنهم في الرخاء غيرهم في الشدائد ، وما إلى ذلك من المعاني المألوفة المعهودة التي لا جدة فيها ولا ابداع ولا ابتكار .

فمن شعره في الزهد قوله في ذم الدنيا :

يرى عاشق الدنيا يجهد بلاء	فلا تعشق أخي فأنما
وراحتها ممزوجة بعناء	حلاوتها ممزوجة بمرارة
فأنك من طين خلقت وماء	فلا تمش يوماً في ثياب مخيلة
ولله احسان وفضل عطاء	ولله نعماء عليك عظيمة

ومن شعره في ذكر الموت وهو من أجمل شعره وأخفه على النفس قوله :

أيها القلب الجموح	خانك الطرف الطموح
دنسو ونزوح	لدواعي الخير والشر (م)
توبة منه نصوح	هل لمطلوب بذنب
انما هن قروح	كيف اصلاح قلوب
الخطايا لا تفوح	أحسن الله بنا ان (م)
بين ثوييه فضوح	فاذا المستور منا
طويت عنه الكشوح	كم رأينا من عزيز
صائح الصدر الصدوح	صاح منه برجيل
جسداً ما فيه روح	موت بعض الناس في الارض على البعض فتوح
علم الموت يلوح	سيصير المرء يوماً
موت يغدو ويروح	بين عيني كل حي
	كلنا في غفلة والم

لبنى الدنيا من الدن يا غبوق وصبوح
 رحن في الوشي وأقبل ين عليهن المسوح
 كلّ نظّاح من الدهر رله يوماً نظّوح
 نح على نفسك يا مس كين ان كنت تنوح
 لست بالباقي وان عمّر (م) ت ما عمّر نوح

على انه يسف في شعره بعض الأحيان حتى يكون ترديداً لبديهيّات معروفة ، ليس فيها من الشعر معنى مبتكر ولا صورة جميلة ، ويسطو على الأمثال المأثورة وأقوال بعض الشعراء فينقلها وينتجّلها . فمن ذلك قوله :

وكل طريف له لذة وكل تليد سريع البلى
 ولا شيء الا له آفة ولا شيء الا له منتهى
 وليس الغنى نشب في يد ولكن غنى النفس كل الغنى

ومن اسفافه الشنيع قوله :

وان لكل تلخيص لوجها وان لكل مسألة جوابا
 وان لكل حادثة لوقتا وان لكل ذي عمل حسابا
 وكل سلامة تعد المنايا وكل عمارة تعد الخرابا

ولعلنا تتساءل بعد هذا : ما قيمة هذا الشعر من الناحية الفنية ؟ وأحسب أن ما أوردته من الشواهد يتحدث عن نفسه ويدل على مكاتته من الفن ، فهو ليس الا ترديدا لبعض المعاني الدينية والخلقية في كلام موزون مقفى . وما أحسب أنه يستحق أن يسمى شعرا الا من حيث انه كذلك في الشكل وفي الصورة الخارجية لو كان الشعر هو الكلام الموزون المقفى ليس غير ؛ ويبدو أنه كذلك في فخر أبي العتاهية بدليل أنه كان يقول : « لو شئت أن أجعل كلامي كله شعر لفعلت » .

أما مكانه من تاريخ الشعر العربي فأمر ذو شقين : الشق الأول يتصل بالأسلوب وموضع الكلام فيه يأتي بعد • والشق الثاني يتعلق باتجاه الشعراء الى موضوع الحكمة والتجارب الانسانية في الحياة ، وتلك ظاهرة كان لأبي العتاهية فضل احيائها ولفت الأنظار اليها ، وكان من ثمراتها - الى حد ما - الحكمة التي أخرجها أبو تمام في شعره ذلك المخرج الفني الجميل ، ثم حكمة المتنبي وفلسفة أبي العلاء المعري في الحياة •

٣ - الشعر التعليمي

وكان من آثار النشاط الذي عرفته الحياة العقلية في بغداد أن ظهر في الشعر طراز من النظم عرف بالشعر التعليمي •

وقد بدأت صورته الأولى عند الشعراء الذين تصدوا للرد على بشار مستخدمين في ذلك ما وصل اليه علمهم من المعرفة بالطبيعة وبالأرض وعناصرها ومكوناتها ونحو ذلك • وقد روينا طرفا من أقوالهم في موضع سابق من هذا البحث (٦)

وقد أشرنا فيما سبق الى أن أبان بن عبد الحميد اللاحقي قد نظم كتاب كيلة ودمنة شعرا للبرامكة وأنه صنع قصيدته المعروف بذات الحل ، وذكر فيها مبدأ الخلق وأمر الدنيا وضمنها شيئا من المنطق •

ويذكر المسعودي أن لأبي العباس عبدالله بن محمد الناشئ الكاتب الأنباري قصيدة نونية منصوبة فيها نحو أربعة آلاف بيت يذكر فيها أهل الآراء والنحل والمذاهب والملل (٧) •

ويذكر أوليري أن لابراهيم الفزاري الفلكي قصيدة في الفلك

(٦) راجع الفصل الرابع من الباب الثالث من هذا البحث •

(٧) مروج الذهب ج ٣ ص ٣٦١ •

والنجوم .^(٨) والظاهر أن الشعر التعليمي مرحلة من مراحل التطور في شعر الأخلاق والحكمة ، إذ أن هذا الشعر يكون في أول أمره نصحا وارشادا ومواعظ تقوم على أساس من التجارب الانسانية العامة ، حتى اذا بلغ الشعراء من العلم والمعرفة مبلغا حسنا أغراهم ذلك بأن يستخدموا معارفهم الجديدة في هذا الطراز من الشعر حبا بالتجديد وتديلا على مشاركتهم في الحياة العقلية .

وقد نشأ هذا الضرب من الشعر عند اصحاب الآراء والمذاهب الدينية من الشعراء ، فاستخدموه في تأييد مذاهبهم وفي التحدث عن فضائلها والحملة على خصومها .

ولعل أول من فعل ذلك من الشعراء السيد الحميري . فقد كان ينظم بعض القصص والمناقب التي تروى له عن علي وابنائهم شعرا . فقد سمع يوما محدثا يذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ساجدا فركب الحسن والحسين على ظهره فقال عمر رضي الله عنه : « نعم المطي مطيكما » فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ونعم الراكبان هما ^(٩) » . فانصرف السيد من فوره ، فقال في ذلك :

أتى حسن والحسين والنبي	وقد جلسا حجة يلعبان
فقداهما ثم حيّاهما	وكانا لديه بذاك المكان
فراحا وتحتهما عاتقاه	فنعم المطية والراكبان
وليذان أمهما برة	حصان مطهرة للحصان
وشخصهما ابن ابي طالب	فنعم الوليدان والولدان

(٨) O'Leary : How Greek Science Passed to the Arabs, P. 152.

(٩) الاغانى ج ٧ ص ١٥ .

وممن سلك هذا السبيل من شعراء الفرق أبو سهل بشر بن المعتمر .
 فقد روى له الجاحظ قصيدتين طويلتين أحدهما في ذم الاباضية والرافضة
 والحشوية ، وقد ذكر فيها أصنافاً من الحيوان وتحدث عن أعاجيبها
 وطبائعها وما تقتات به مستدلاً بذلك على قدرة الخالق . وقد بدأها بالحكمة
 فقال :

الناس دأباً في طلاب الغنى	وكلهم من شأنه الختر
كأذؤب تنهشها أذؤب	لها عواء ولها زفر
تراهم فوضى وأيدي سبا	كل له في نفسه سحر
تبارك الله وسبحانه	بين يديه النفع والضر
من خلقه في رزقه كلهم	الذيخ والتيتل والعفر

ثم يعدد أصنافاً من الحيوان وكيف تعيش وبماذا تقتات حتى ينتهي
 من ذلك الى قوله :

اني وان كنت ضعيف القوي	فالله يقضي وله الامر
لست اباضياً غيباً ولا	كرافضي غرّه الجفر
كما يفر الآل في سبب	سفراً فأودى عنده السفر
كلاهما وسّع في جهل ما	فعاله عندهما كفر
لسنا من الحشو الجفاة الألى	عابوا الذي عابوا ولم يدروا
..... الخ (١٠)

والقصيدة الثانية تتحدث عن العالم وما فيه من المخلوقات والاجناس ،
 وعدد فيها ما شاء من الحيوانات واوصافها مستدلاً بذلك على حكمة الله
 ومستخلصاً من ذلك كله أن لا رائد الا العقل وأن بعض الناس يضل
 فيخاصمه ويحتكم الى التقليد :

اما ترى العالم ذا حشوة يقصر عنها عدد القطر

أوانيد الوحش واجناسها وكل سبع وافر الظفير
ويذكر أجناساً من الحيوان عديدة ثم يقول :

فكم ترى في الخلق من آية خفية الجسمان في قعير
ابرزها الفكر على فكرة يحار فيها وضح الفجر
لله در العقل من رائد وصاحب في العسر واليسر
وحاكم يقضي على غائب قضية الشاهد للامر

ثم يعود الى تعداد الحيوان وذكر طبائعه ، وأنه سواء في طلب
العيش ، يقلد بعضه بعضاً ، وأن بني آدم مثلهم في السعي الى الكسب الا
انهم في الدين مختلفون وفي الرأي والقدر متفاوتون وأن التقليد قد استولى
عليهم وتحكم فيهم :

وكل شيء فعلى قدره يحجم او يقدم او يجري
والكيس في المكسب شبل لهم والعنديل الفرخ كالنسر
والخلد كالذئب على خبثه والفيل والاعلم كالوبر
والعبد كالحر وان ساءه والابغث الاشر كالصقر
لكنهم في الدين ايدي سبا تفارقوا في الرأي والقدر
قد غمر التقليد احلامهم فناصروا القياس ذا الشر
فافهم كلامي واصطر ساعة فانما النجاح مع الصبر (١١)

ويبدو أن هذا الطراز من الشعر قد أخذ يتطور في غايته شيئاً فشيئاً ،
فصار يستخدم لحشد المفردات العلمية فيه بقصد الاستدلال والاحتجاج بها ،
ثم تطور به الأمر فتمحض لسرد المفردات واتخذ وسيلة من وسائل التعليم
ومن أجل ذلك سمي بالشعر العلمي •

ويبدو أن الشعراء ، والعلماء منهم على وجه الخصوص ، كانوا يفعلون
ذلك تسهيلاً على المتعلمين وتيسيراً لحفظ العلوم عليهم ، وقد استمرت هذه

الطريقة في التعليم عمهـداً طويلا ، واتخذت وسيلة لحفظ المتون في العلوم المختلفة في الفقه وفي علم العقائد وفي النحو والعروض وغير ذلك . وهي اسلوب في التعليم بقي متبعاً الى عهد قريب جدا .

ويبدو أن القوم قد مالوا من أول الأمر الى بحر الرجز المصرع لانه أخف . وقعاً وأسهل حفظاً كما نلاحظ عند أبان بن عبد الحميد اللاحقـي الذي جعل ظمه لكتاب كـلية ودمنة على هذا الوزن . وقد قال في أوله :

هذا كتاب ادب ومحـنه وهو الذي يدعى كـليـله ودمـنه
فيه احتمالات وفيه رشد وهو كتاب وضعته الهند

وأحسب أن من البـداهة والوضوح بمكان ، القول بأن هذه الظاهرة ليست على شيء من الناحية الفنية ، وأن هذا الطراز من الكلام انما سمي شعراً لأنه كلام موزون مقفى لا اكثر ، وهو ليس من الشعر في حقيقة أمره ، لأن مقومات الشعر من تعبير عن العاطفة بالأسلوب الذي يقصد فيه الى جانب الجمال لا وجود لها فيه أو في اكثره على أية حال (١٢) .

وحسبنا في هذا المقام أن نسجل ظهور هذه الطريقة في نظم العلوم واستخدامها في التعليم . وان نلاحظ ان القوم قد التفتوا الى ان الشعر بموسيقاه وإيقاعه ، أيسر انطبـاعا في الذاكرة وأخف على السمع وقعا والطف في النفس مدخلا ، حتى ولو خلا من مقوماته الاصلية وهي العاطفة والاسلوب الفني .

٤ - وصف الخمر

ومن ظواهر التجديد في موضوعات الشعر الاكثار من وصف الخمر اكثاراً يبعث على الدهشة والعجب ، والتعمق في معانيه الى درجة لم تعرف في الشعر

(١٢) من النوادر في هذا الباب ارجوزة البيتوشي في معاني الحروف وهو من المتأخرين وقد بلغ فيها من اللطف وخفة الوقع مبلغاً عظيماً .

العربي من قبل • ولعل مبعث الدهشة في ذلك دعوى العباسيين أنهم أرادوا أن يعود الدين الى سلطانه في الدولة والمجتمع بعد أن تقلص ظله أيام الأمويين • وقد كان اكثر الخلفاء يشرب النبيذ وقيم الشراب والغناء ويحتال لذلك بأقوال بعض الفقهاء ليستحل الشراب • وقد أدى ذلك بأهل اللهو الى مثل ما جاء في قول ابن الرومي :

أحل العراقي^(١٣) النبيذ وشربه وقال الحرامان المدامة والسكر
وقال الحجازي^(١٤) الشرابان واحد فحلت لنا بين اختلافهما الخمر
سأخذ من قوليهما طرفيهما واشربهما لا فارق الوزرَ الوزر

ولا ننسى أن بغداد قد ورثت من بقايا المجتمع الكوفي والبصري الاقبال على الشراب ، ولا سيما ورثته من المجتمع الكوفي من ولوع بالشراب انحدر الى أهله أو الى بعضهم من تراث الحيرة وما كان فيها من حوانيت الخمر والشراب •

وقد كان ممن ورثتهم بغداد من أهل اللهو والمجون والشراب مطيع ابن اياس وسواه ممن نادم الوليد بن يزيد من ظرفاء أهل الكوفة وحظي عنده • وقد جمع هؤلاء فنونا من اللهو من البيئة التي نشأوا فيها ، وبما أحدثه الوليد بن يزيد في الشام ، حتى اذا وردوا بغداد وجدوا فيها لونا آخر من ألوان التمتع بالشراب في أديرة الرهبان التي كانت تحيط ببغداد كدير الروم ودير حنة وغيرها ، وفي القرى القريبة من بغداد حيث كان يقيم بقايا الساميين الذين أقاموا على ديانتهم القديمة وهي المسيحية • وكانت قراهم على دجلة بين البساتين مقصداً للشعراء ، وكانوا يرتادون تلك المواضع للشراب ولغير الشراب ، ويطعمون فيها أياماً وليالي ، يشربون فيها ويلهون •

(١٣) يعني بذلك الامام ابا حنيفة النعمان بن ثابت فقيه أهل العراق .
(١٤) الحجازي هو الامام مالك بن أنس فقيه المدينة .

وكان للرخاء الذي عم بغداد في هذا العصر ولا استقرار الأحوال فيها الأثر البالغ في أن يأخذ الناس بالحظ الوافر من اللهو والشراب • وكان الشعراء على وجه الخصوص يحظون من الخلفاء ورجال الدولة بما يهيئ لهم أسباب العيش المترف الرغد ، لذلك وجدوا في الحياة متسعاً يعكفون فيه على اللذائذ ، وينصرفون فيه الى المتع الذاتية ويقولون في ذلك شعراً صادق التعبير عن نفوسهم وعما كان يجري في حياتهم الخاصة • وقد كانت هذه الظاهرة - ظاهرة فراغ الشعراء لانفسهم - أمانة من امارات التحول الكبرى في الشعر ، فقد عكف الشعراء على مشاعرهم وانصرفوا الى عواطفهم في مناح عديدة من مناحي الحياة ولم يكونوا من قبل يفرغون الا الى الحب وحده •

واذا جرى الحديث عن شعر الخمر فلا بد ان تنصرف الاذهان فيه الى ابي نواس ، فقد كان شعره في الخمر فريداً في كمّ وفي كيفه ، ولعله بحق اغزر الشعراء شعراً في الخمر واكثرهم ابداعاً في وصفها وفي وصف مجالسها وسقاتها وندمائها حتى لا يكاد الشعر العربي يعرف له في ذلك مثيلاً •

واذا لم يكن من طبيعة هذا البحث ان يتتبع معاني الشعراء في وصف الخمر وما اضافه اليها شعراء بغداد فان لزاماً عليه ان يقف على المعالم العامة للتجديد في وصفها • ولعل من اهم تلك المعالم انها استقلت بالقصيدة فلم تعد غرضاً يمر به الشاعر عرضاً ثم ينتقل منه الى غيره كما نعرف في شعر طرفة والاعشى والاخلط ، وانما حلت في بعض القصائد محل النسيب الذي ألفوا ان يفتتحوا به قصائدهم ، فأصبح وصفها عند بعض الشعراء هو المقدمة التي يمهّد بهما لغرضه •

ولعل اهم من ذلك كله ان ابا نواس لم يعد يكفيه منها وصفها الظاهري ، فصار ينفذها في قرارة نفسه ويتخذها صفة روحه ، وفني في حبها ، فتحدث

عنها حديث الوثني عن الوثن ، واثني عليها ثناء المتعبد ، واتخذها أما ترضعه
 درها ، واجب من اجلها مواطنها والمواضع التي يلقاها فيها .
 ها هو ذا يقول فيها :

قطربل مربعي ولي بقري الـ	كرخ مصيف وأمي العنب
ترضعني درّها وتلحفني	بظلمها والهجير يلتهب
إذا ثنته الغصون جلتني	فينان ما في أديمه جرب
تبيت في مأتم حمائم	كما تراءى الفواقد السلب
يهب شوقي وشوقهن معاً	كأنما يستخفنا طرب
فقت أحبو الى الرضاع كما	تحامل الطفل مسه السغب
حتى تخيرت بنت دسكرة	قد ناجمتها السنون والحب

وابو نواس يستخدم معرفته بالكلام والفلسفة في وصف الخمر ، فيثني
 عليها بالآثاء ويسميها بأحسن اسمائها ، وينزهها تنزيه العابد لمعبوده ، ويفرق
 في ذلك اغراقاً عجيباً . فمن ذلك قوله :

اثن على الخمر بالآثاء	وسمّها أحسن اسمائها
لا تجعل الماء لها قاهراً	ولا تسلطها على مائها
كرخية قد عتقت حقة	حتى مضى أكثر اجزائها
فلم يكد يدرك خمارها	منها سوى آخر جوبائها

وقد بلغ من شغف ابي نواس بها ان جعل ذكرها فاتحة بعض قصائده
 في المدح وغيره من الاغراض مستبدلاً وصفها بوصف الديار والوقوف على
 الاطلال ، فمن ذلك قوله في اول قصيدة مدح بها العباس بن عبيد الله بن ابي
 جعفر المنصور :

غرد الديك الصدوح	فاسقني طاب الصبح
واسقني حتى تراني	حسناً عندي القبيح

قهوة تذكر نوحاً حين شاد الفلك نوح
نحن نخفيها ويأبى طيب ريح فتوح
فكان القوم نهى بينهم مسك ذيح

الى ان يقول في المدح :

أنا في دنيا من العبا (م) من اغسدو واروح
هاشمي عبدلي" عنده يغلو المديح
.....
..... الخ

وقد فاض حب ابي نواس الخمر على كل ما يتعلق بها من المواضع التي يلقاها فيها ، واحب من اجلها اهلها فمدحهم كالعاشق المتيم بهم بمعشوقه ويجب من اجله اهله ودياره .

وقد وصف ابو نواس الاديرة التي كان يغشاها لينال فيها حظه من الخمر ، ومدح رهبانها واثنى عليهم اجمل الثناء فقال في دير حنة :

يا دير حنة من ذات الاكراح من يصح عنك فاني لست بالصاحي
رأيت فيك طباء لا قرون لها يلعبن منا بألباب وارواح
دع التشاغل بالذات يا صاح من العكوف على الريحان والراح
واعدل الى فتية ذابت نفوسهم من العبادة نحف الجسم اطلاق
لم يبق فيهم لرائيهم اذا حصلوا خلاف ما خوفوه غير أشباح
تلقى بهم كل محفو مفارقه من الزهاد عليه سحق أمساح
لا يدلفون الى ماء بآنية الا اغترافا من الغدران بالراح

ومما تميز به أبو نواس في خمرياته انه تصرف فيها واستقصى معانيها ، فمن وصف للخمر وصفاً دقيقاً يحيط بظاهرها وباطنها ، الى حديث عنها حديث العطوف الوامق العاشق ، الى تصوير لمجالسها تصويراً فيه دقة وفيه رونق ورواء . وربما جمع أبو نواس في القصيدة الواحدة هذه المعاني كلها فأخرجها

مسلسلة يتصل بعضها ببعض كأحسن ما يكون الاتصال • فمن ذلك همزية المشهورة التي وصف فيها مجلس الشرب ووصف فيها الشراب ، وعرج بعد ذلك على وصف النديم حتى تكتمل للسامع او القارئ صورة اللذة الممتعة التي يريد ان ينقلها اليه ابو نواس قال :

<p>والليل محتبس في ثوب ظلماء تعشى^(١٥) عيون نداماها بلالاء ديباج غانية او رقم وشاء من خمر علنة او من خمر سوراء رجع الزامير او ترجيع فأفاء همّت عيونهم منها باغفاء فقال قصر عن هذاك إحصائي من ذخر آدم أو من ذخر حواء حتى أتتني وكانت ذخر موتائي ريح البنفسج لا ريح الخزاماء يستأثر العين في مستدرج الرائي كأن في راحتيه وسم حناء فوق الجبين ورد الصدغ بالقاء وربما تقعت في صولة الداء صرفا واشرب أخرى مع ندامائي</p>	<p>يا رب مجلس فتیان سموت له لشرب صافية من صدر خاية كأن منظرها والماء يقرعها تستنّ من مرح في كف مصطح كأن قرقرة الابريق بينهم حتى اذا درجت في القوم وانتشرت سألت تاجرها كم ذا اعاصرها أنبتت ان ابا جدي تخيرها ما زال يطل من ينتاب حاتها ونحن بين ساتين فتنفحنا يسعى بها خث في خلقه دمث مقرط وافر^(١٦) الاردا في ذو غنج قد كسر الشعر واوات ونضده عيناه تقسم داء في محاجرها اني لاشرب من عينيه صافية</p>
---	--



(١٥) في الديوان طبعة اسكندر آصاف « تعشى » ولعل « تعشى » اولى

بمعنى البيت .

(١٦) في الديوان طبعة اسكندر آصاف « وافي » ولا يستقيم بها الوزن ولعل

« وافر » اولى وان كان الوصف بها غريبا في هذا الموضع .

وكان اشتهار أبي نواس بوصف الخمر وما يتصل بها وتجويده في ذلك قد جعل الناس ينسبون أكثر ما قيل في الخمر اليه وينحلونه اياه ، حتى لم يكده يشتهر بذلك أحد من شعراء عصره شهرته به ، ولم يذكر لأحد منهم مثل ما ذكر له ، أو قريب منه ، من المعاني الطريفة الجديدة في الخمر .

وقد كان من أنداده في هذا الباب الشاعر الملقب بالخليع وهو الحسين ابن الضحاك الباهلي . ويذكر صاحب الاغانى أن أبا نواس كان يأخذ معانيه في الخمر فيغير عليها ، وإذا شاع له شعر نادر في هذا المعنى نسبته الناس الى أبي نواس . وله معان في صنعتها أبدع فيها وسبق اليها فاستعارها أبو نواس (١٧) . والظاهر أن أبا نواس كان يرى أن وصف الخمر والتجويد في معانيها وقف عليه لا حق لغيره فيه ، فكان اذا سمع في ذلك شعراً نادر المعنى لا يلبث أن يسطو عليه فيسترقه ، فاما أن ينسبه الى نفسه ويعرف له بين الناس واما أن يتصرف في صياغته فيدخله في شعره . فمن ذلك ما رواه ابو الفرج بسنده عن المغيرة بن محمد المهلبى قال :

« حدثنا الحسين بن الضحاك قال : أنشدت ابا نواس لما جججت قصيدي التي قلتها في للخمر وهي :

بدلت من تفحات الورد باللاء ومن صبوحك دار الابل والشاء
فلما انتهيت منها الى قولى :

حتى اذا اسندت في البيت واحتضرت عند الصبوح يسامين اكفاء
نضت خواتيمها في نعت واصفها عن مثل رقاقة في جفن مرهاء
قال فصعق — يعني ابا نواس — صعقة افزعتنى وقال : أحسنت
والله يا أشقر (١٨) .

(١٧) الاغانى ج ٦ ص ١٦٥ .

(١٨) كان الحسين بن الضحاك يلقب بالاشقر .

فقلت : ويحك يا حسن انك افزعتني والله • فقال : بلي والله افزعتني وروعتني هذا معنى من المعاني التي كان فكري لا بد ان ينتهي اليها او اغوص عليها واقولها ، فسبقتني اليه واختلسته مني ، وستعلم لمن يروى الي أم لك • فكان والله كما سمعت من لا يعلم يرويها له (١٩) •

وقد يكون مثل هذا من آثار الشعوية التي كان ينزع اليها ابو نواس في بعض احواله وفي بعض شعره ، ولم يكن الحسين بن الضحاك من هذه النزعة في شيء فأرادت الشعوية ان تنسب فضل ابن الضحاك الى ابي نواس •

وكان ابو نواس ربما اقتبس معنى من معاني غيره من الشعراء فزاد فيه وعبر عنه تعبيراً جديداً ، كما فعل بشعر الحسين بن الضحاك اذ يقول في وصف الخمر وكأسها :

تخالها نصب كأسه قمرا يكرع في بعض انجم الفلك

فأخذ ابو نواس الصورة الجميلة فأضاف اليها وغير فيها بعض التغيير فقال :
اذا عبّ فيها شارب القوم خلته يقبل في داج من الليل كوكبا

* * *

وللحسين بن الضحاك شعر جيد في وصف الخمر ووصف الساقى • وله على وصف مجالس الشراب قدرة عجيبة ، ولعله يفوق في ذلك ابا نواس ويعلو عليه • فمن ذلك قوله يصف ليلة قضاها في مجلس شراب عند الواثق :

حيث صبوحى فكاهة اللاهية	وطاب يومي بقرب اشباهي
فاستر اللهو من مكانه	من قبل يوم منقّص لاه
بابنة كرم من كفّ متطق	مؤزر بالمجون تيّاه

يسقيك من طرفه ومن يده سقي لطيف مجرّب داه (٢٠)
كأساً فكأساً كأنّ شاربها حيران بين الذّكّور والساهي

والحسين بن الضحّاك لا يعنى بالخمّر لذاتها عناية ابي نواس بها ، ولا يعاطفها مثله ولا يغلو في وصفها غلوه ، ولا يمجدها ويتبتل اليها كما كان ابو نواس يفعل ، وانما تنصرف عنايته في الغالب الى ما حولها من مجلس يحوي أصنافاً من اللذائذ والمتع ، من الدعابة الحلوة الى التخلع في غير فاحشة ، الى الغناء الجميل ، الى الساقى الذي يسيبه دله وجماله . ولعل السبب في ذلك ان الحسين كان يقول اكثر شعره في هذا الموضوع استجابة لرغبة الخلفاء الذين كان ينادمهم ويعاشرهم ويشاركهم متعة تلك المجالس ، في حين كان ابو نواس يقول شعره في الخمر ارضاء لذاته وتعبيراً عن شعوره هو غير متأثر برغبة احد غيره ولا مستجيب الا لمشاعره الذاتية . ومن اجل ذلك يكاد ابو نواس يغني في الخمر ، ولا يكاد يحسن في شعره بما سواها .

أما الحسين بن الضحّاك فهو يدلنا في شعره على التحول الذي اصاب وظيفة الشعر ومكانه في المجتمع فبعد ان كانت وظيفته الشعر في نظر الخلفاء ومن اليهم من اهل السلطان مدحاً لهم وتأييداً لسياستهم وهجاء لخصومهم ، اصبح الان حاجة حضارية الى درجة كبيرة تدخل الانس على الخلفاء وتستكمل بها المتعة بوصف مجالس الانس وصفاً يتناول اجزاءها ويبرز جمالها .

فمن قول الحسين يصف حانة الشط وهي مكان كان الواثق يتخذه للشراب واللهو :

يا حانة الشط قد اكرمت مشوانا عودي بيوم سرور كالذي كانا

(٢٠) لعله نظر في ذلك الى قول ابي نواس :
تسقيك ن طرفها كأساً ومن يدها كأساً فما لك من سكرين من بد

لا تفقدينا دعابات الامام ولا
 ولا تخالطنا في غير فاحشة
 وهاج زمر زنام بين ذاك لنا
 وسلسل الرطل عمرو ثم عمّ به الـ
 سقيا لشكلك من شكل خصصت به
 خفّت رياضك جنّات مجاورة
 لا زلت آهلة الاوطان عامرة

طيب البطالة اسراراً واعلانا
 اذا يطرّبنا الطنبور احيانا
 شجواً فأهدى لنا روحاً وريحاناً
 سقيا فألحق اولانا بأخرانا
 دون الدساكر من لذات دنيانا
 في كل مخترق نهرأ وبستانا
 بأكرم الخلق اعراقا واغصانا (٢١)

وهكذا أصبحت الخمر ومجالسها مصدر الهام للشعراء ، فكان شعورهم فيها مظهراً من مظاهر التجديد القيمة الاصلية ، وظاهرة من ظواهر التحول في من حيث اتجاهه الى الذاتية واتخاذه طريقاً للتعبير عن مشاعر الشعراء انفسهم ، ومن حيث انه اصبح حاجة حضارية تستكمل بها اسباب المتعة بعد ان كان ألصق بالجد الرزين الذي يعني بالامور العامة اكثر من عنايته بالمشاعر الذاتية وبلاستجابة للحضارة الجديدة •

وقد أعان شعر الخمر على ظهور فنون جديدة في الشعر العربي ، فقد ادى وصف مجالس الخمر الى وصف النديم والتغزل به ، فكان الغزل بالمذكر ووصف المجلس وما يحيط به من مناظر جميلة ادى الى اقبال الشعراء على وصف الطبيعة والتمتع بألوان الجمال فيها •

والذي يعيننا ويهنا من ذلك ايضا هذا التجديد كان يستمد معينه من عناصر بغدادية أو عراقية أصيلة ، فقد بعث فيه الحياة وأمدّه بالقوة ما كان حول بغداد من القرى التي كان يسكنها العربان وسواهم من قدماء أهل بغداد ، تلك القرى التي كانت تجمع بين جمال الطبيعة واعتدال الهواء وبين توفر اللهو من الشراب وما يتصل به ، واصبحت بذلك موطن اغراء للشعراء

(٢١) يعني به الخليفة الوائق •

وسواهم من أهل اللهو والمتعة فكانوا يغشونها كثيراً ويتحدثون في أشعارهم حديثاً شغلهم بعض الشيء عن أن يعنوا بذكر المواضع التقليدية التي ورث الشعراء ذكرها عن الجاهليين ، وأغراهم بالحضارة وترفها ، وصرفهم عن البداوة التي لم يكونوا يشعرون بها .

٥ - الغزل بالمذكر

ومن أخطر ظواهر التجديد في الشعر ما أصاب الغزل من أثر الحياة الجديدة في بغداد ، حيث فتحت للناس آفاق المتاع واللذة وهيات لهم أسبابها ويسرت لهم سبيل الحصول عليها . ومن هذه أنها جعلت من المرأة متاعاً موفوراً يناله الرجل بالمال ، ويستطيع أن يتمتع به ألواناً من المتعة عديدة مختلفة .

فقد كثرت الجواري والاماء والقيان كثرة عجيبة ، وأصبحن حاجة من الحاجات التي لا يستغني عنها البيت المترف الذي يعنى أهله بجوانب الحياة اللاهية المرحية . وكانت أسواق النخاسين تعج بالجواري على اختلاف الأجناس والألوان ، من روميات وفارسيات وغير ذلك . وكان هؤلاء يعلمونهن الغناء ويروونهن الشعر ويقفونهن على جوانب من العلوم التي كانت شائعة في ذلك العصر ليغلوا في أثمانهن وليحظين بذلك عند أربابهن .

وكانت بيوت الخلفاء وغيرهم مليئة بالجواري والمحظيات اللواتي ولدن لبعض الخلفاء أبناءهم ، فكانت أم الرشيد أم ولد ، وكذلك كانت أم المأمون . وكان من نتائج ذلك أن ابتذلت المرأة وانحطت قيمتها ، وأصبحت متاعاً ينال بالمال ، وادى ذلك الى أن صارت العلاقة بينها وبين الرجل علاقة لذة وتمتع عابر لا يستقر ولا يثبت ، فلم نعد نرى حباً كالذي كنا نعهده في المجتمع العربي من قبل ، لأن الحب يقتضي أن يكون بين المتحابين تناسب في المكانة الاجتماعية ، وجهد يبذله المحب في الحصول على محبوبه .

اما اثر ذلك في الشعر فقد كان واضحاً كل الوضوح ، اذ اصبح الغزل في الغالب غزلاً مكشوفاً فيه مجون وفيه خلاعة وتهتك ، ولم يعد قارئه او سامعه يجد فيه حرارة العاشق الوفي ولهفة المحب المقيم على حبه ، وصار على الاكثر تعبيراً عن الشهوة سطحياً لا يغوص في قرارة النفس ولا يمس شغاف القلب ، ذلك لان تلك العاطفة لا تقوم الا في ظل من الحرمان من المحبوب او الجهد في نيل وصاله والتمتع بقربه ، ولا تتحقق الا اذا اجتمع لها العفة والاحترام والتقدير .

وكان اغلب النساء اللواتي يعجب بهن الشعراء إماءً اوقياناً يستطيع كل واحد ان ينال منهن ما يشتهي اذا شاء ، وكان الحصول عليهن ايسر بلا شك من معشوقات اسلافهم من الشعراء . يضاف الى ذلك ان دواعي العفة قد ضوّلت في هذا العصر او ضعفت ، وبخاصة عند الشعراء ، اذ كان فريق كبير منهم يرمى بالزندقة والمروق من الدين ولا يدين الا بمذهب اللذة كبشار ومطيع بن اياس وابي نواس ومن على شاكلتهم .

ولم يعرف العصر العباسي شاعراً عاشقاً غنياً غير العباس بن الاحنف . ولقد ادى ذلك كله الى ان ينحرف بعض الناس - ولا سيما طلاب اللذة من الشعراء - عن الحس الجنسي نحو المرأة لانها كانت شيئاً مبدولاً ينالونه بلا مشقة ولا عناء ، فشاع في المجتمع العباسي حب الجنس او ما يسمى عند علماء النفس Homosexuality.

وتلك ظاهرة جنسية شاذة من غير شك ، نتجت من هذا الذي اشرنا اليه آنفاً ومن الاخلاط التي دخلت في المجتمع العباسي من الاقوام والاجناس المختلفة . يضاف الى ذلك مجالس الشراب التي كانت تحفل بالسقاة من الغلمان المخشّين الذين كانوا يتشبهون بالنساء في تصفيف الشعر وفي المظهر وفي اللباس والحركات ، وكان للنشوة التي تستولي على الندماء اثرها في اذكاء ميلهم الى هؤلاء الغلمان والاتجاه بالحس الجنسي نحوهم .

وقد تحدث ابو نواس عن هؤلاء ووصف بعضهم في الهزمية التي مر ذكرها فقال في ساقى الخمر :

يسعى بها خنث في خلقه دمث يستأثر العين في مستدرج الرائي
مقرط وافر الارداف ذو غنج كأن في راحته وسم حناء
قد كسر الشعر واوات ونضده فوق الجبين ورد الصدغ بالفاء

ووصف الحسين بن الضحاك الساقى بأنه مؤزر بالمجون تياه على الندماء فائن ساحر ، يسقيك من طرفه كأساً ومن يده اخرى ، حتى يدعك من النشوة حيران .

وقد بلغ هذا الاتجاه عند الشعراء مبلغاً عجيباً ، فلم يعد يكفيه ان يتغزلوا بالغللمان غزلاً صريحاً لا يخلو من استهتار وفحش ، بل لقد وصفوا المرأة احياناً بأوصاف الغلام ، كأن المرأة لم يعجبهم فيها الانوثة والرقية والخفر ، بل انحرفت اذواقهم فصاروا يعجبون فيهما بسمات الغلام في التقاطيع البارزة والقدر المعتدل والتبذل في الحركات والحديث .

وقد وصف ابو نواس ساقية بأنها مذكرة مرة ، وانها اثى في زي الذكر في شعر لا تحسن بنا روايته .

ووصف الحسين بن الضحاك المرأة التي فتنته بأنها شبيهة بالغلام في تقاطيعها وفي قدها فقال :

رمتك غداة السبت شمس من الخلد بسهم الهوى عمداً وموتك في العمد
مؤزرة السربال مهضومة الحشا غلامية التقطيع شاطرة القد

ومن المهم ان نلاحظ ان التغزل بالغللمان شيء جديد على الشعر العربي لا عهد له به قبل المائة الثانية للهجرة . وكل ما نعرفه من وصف الفتيان بالجمال انما كان يجيء عند الشعراء في ثنايا المدح كقول الحماسي :

شكوت الي ما بي عيلة فاشتكى
غلام رماه الله بالحسن يافعا
كأن الثريا علقت في جبينه
الى حاله حالي أسرّ كما جهر
له سيمياء لا تشق على البصر
وفي انفه الشعرى وفي خده القمر

ويبدو ان الغزل بالمدح قد ظهر في وقت مبكر من هذا العصر ، اعني في
اوائل القرن الثاني • فمن ذلك قول حماد عجرد في غلام يقال له بشر :

أخي كفّ عن لومي فانك لا تدري
أخي أنت تلحاني وقلبك فارغ
أخي إن دائي ليس عندي دواؤه
دوائي ودائي عند من لو رأيته
فأقسم لو اصبحت في لوعة الهوى
ولكن بلائي منك انك فاصح
وله فيه ايضا :

خليلي لا يفي أبدا
وبعد غد وبعد غد
له جمر على كبدي
يميني غداً فغدا
كذا لا ينقضي أبدا
إذا حرّكته اتقدا

ولأبان بن عبد الحميد اللاحقي في هذا اللون من الشعر قوله :

ليتني والجاهل المغ
قلت ممن لا اسمي
قبلةً تنعش ميتاً
رور من غرّ بليت
وهو جاري بيت بيت
انتي حيّ كميت

ولوالبة بن الحباب غزل في ابي نواس اشهره الميمية التي تنسب لأبي نواس
خطأ (٢٢) وأولها :

يا شقيق النفس من حكم نمت عن ليلي ولم أنم
فاسقني البكر التي اعتجرت بخمار الشيب في الرحم

ولأبي نواس في خمرياته كثير من وصف السقاة والتغزل بهم ، وقد
اتينا على طرف مما نستطيع ان نرويه من شعره في هذا الباب .

وثمة شاعر آخر من اصحاب ابي نواس من ارباب الخلاعة والمجون
هو يوسف بن الحجاج الثقفي ، وله في الغزل بالمذكر شعر لا تليق بهذا
المقام روايته (٢٣) .

ويبدو ان هذا الطراز من الشعر قد بدأ بداية ساذجة فلم يكن يختلف
عن الغزل المألوف الا بالتغزل فيه ، اما الصور والمعاني فقد نقلت كما
هي لم تتغير .

ثم اخذ هذا اللون الجديد من الغزل يستقل عن الغزل القديم في معانيه
وفي صورته شيئاً فشيئاً . واول من نلاحظ عنده هذا التطور من الشعراء
الشاعر المكنى بأبي العبر الهاشمي . فان له في هذا الضرب من الشعر
اياتاً فيها معان مبتكرة طريفة وفيها عاطفة تشبه ان تكون جديدة ، فيها
شيء من الصدق والحرارة :

أيها الامرد المولع بالهج سر أفق ما كذا سبيل الرشاد
فكأنني بحسن وجهك قد أل بس في عارضيك ثوب حداد
وكأنني بعاشقك وقد بدلت فيهم من خبطة بيعاد
حين تنبو العيون عنك كما ين قبض السمع عن حديث معاد
فاغتمم قبل ان تصير الى كا ن وتضحى في جملة الاضداد

وهذه الأبيات تدل على ان الفن الجديد في الغزل قد استقر واتخذ

مكانه بين الفنون الشعرية ، وأصبح الشعراء يتصرفون في معانيه فيجيدون ويتكرون وينتزعون صورهم من الحياة الحضرية اللاحية .

ومن ذلك أيضاً قول أبي العبر :

دء دفين وهوى باد	أظلم فجازيك بمرصاد
يا واحد الامة في حسنه	أشمت بي صدك حسادي
قد كدت مما نال مني الهوى	اخفى على اعين عوادي



على أن شاعراً آخر قد برز في هذا الفن الجديد ففاق من سواه من الشعراء ، وشهد له أبو نواس أنه أشعر أهل زمانه فيه ، ذلك هو الحسين بن الضحاك .

وقد بلغ الغزل بالمذكر عند الحسين بن الضحاك فأصبح يوازي به الغزل القديم ويتصرف في معانيه ، فحكى قصصه مع الغلام الذي كان يتغزل به كما كان عمر بن أبي ربيعة يحكي أحاديثه وحوادثه مع النساء . مثال ذلك قوله :

وابأبي مقحم لعزته	قلت له إذ خلوت مكتتما
تعب بالله من يخصك بال	ودّ فما قال لا ولا نعماً
ثم تولى بمقلتي خجل	أراد رجع الجواب فاحتشما
فكنت كالمبتغي بجلته	برءاً من السقم فابتدا سقما

وقد بلغ الحسين بن الضحاك من تمكنه من هذا الفن وتصرفه فيه أن صار يحسن التعبير به على لسان غيره من العشاق . يروى أنه كان مرة عند صالح بن الرشيد وكان هذا يهوى غلاماً له فغاضبه في ذلك المجلس ، فطلب

الى الحسين أن يصف مجلسهم ، وما هو عليه (١٤) فقال الحسين :

وصف البدر حسن وجهك حتى خلت أني وما اراه اراكا
وإذا ما تنفّس النرجس الفض توهّمته نسيم شذاكا
خدع للمنى تقلبني فيك بأشراق ذا وبهجة ذاكا
لأدومن يا حبيبي على العهد سد لهذا وذاك إذ حياكا

ويلاحظ أن هذا الضرب من الشعر قد بلغ أشده عند الحسين بن الضحاك ، فأصبح يعبر عن عاطفة يجد حرارتها قارئ شعره ، عاطفة تشبه الى حد ما عاطفة العذريين وما فيها من الرضا بعذاب الحب والرغبة في الاقامة عليه تلذذا به وحرصا عليه ، والقلب الذي امتلأ بالحب حتى لم يعد فيه لغير الحب موضع ، في لهجة عفة لامجون فيها ولا افحاش .

مثال ذلك قوله :

لا وحييك لا أصا فح بالدمع مدمعا
من بكى شجوه استرا ح وإن كان موجعا
كبدي من هواك أسقم من ان تقطعا
لم تدع سورة الضنى في للسقم موضعا

بل لقد فلسف الحسين بن الضحاك حبه ، فنسبه الى المشاكلة بينه وبين محبوبه ، وأنه هو وياه روحان يمتزجان ، وتتوافق منهما الحركات والأفعال . وهو ينحو في هذه المعاني مثل منحى الصوفية من بعده في اتحاد المحب بذات محبوبه وفنائته فيه ، فهو لا يصدر إلا عن إرادته ولا يعمل إلا على وفاقه :

إن من لا أرى وليس يراني نصب عيني ممثل بالاماني

(٢٤) تراجع تاريخ بغداد لطيفور ص ٣٢٥ . والاغاني ج ٦ ص ١٧٦ .

أبدأ بالمغيب ينتحيان	بأبي من ضميره وضميري
ن إذا ما اختبرت يمتزجان	نحن شخصان إن ظرت وروحا
بشيء بدأته وبداني	فاذا ما هممت بالامر او
فكأنني حكيمه وحكائي	كان وفقاً ما كان منه ومني
وسواء تحرك الأبدان	خطرات الجفون منا سواء

ولعل لهذا المنحى الذي شهدنا الحسين بن الضحاك ينحوه في غزله بالمذكر علاقته بفلسفة الحب التي شاعت في ثقافة هذا العصر ، وتأثر فيها القوم بالأفكار اليونانية . ولعل له اثره في تسامي هذه العلاقة القائمة على اتحاد الجنس ، حتى بلغت من العفة والسمو مبلغها العجيب عند محمد بن داود الظاهري صاحب كتاب الزهرة^(٢٥) ، ثم اسلمت من بعد ذلك الى العلاقة المثلى او الحب الالهي عند الصوفية .

ومن اوضح ما يدل على ذلك ما نلاحظه في بعض اشعار الحلاج من تأثر بمعاني الحسين بن الضحاك حتى كأنه اقتبسها منه .
مثال ذلك قول الحلاج :

مثل جرف الدموع من اجفاني	انت بين الشغاف والقلب تجري
كحلول الارواح في الابدان	وتحل الضمير جوف فؤادي

وقوله في ابياته المشهورة :

نحن روحان حللنا بدنا	أنا من أهوى ومن أهوى أنا
وإذا أبصرتني أبصرتنا	فإذا أبصرته أبصرتني

ولعل اتحاد الجنس في هذا اللون من الغزل هو الذي جعله مرحلة وسطاً بين الحب الجنسي الالهي ، ولا سيما اذا لاحظنا أن افلاطون يجعل حب

(٢٥) لعل من المفيد ان اشير الى الكتاب الثاني من البحث الذي وضعته عن الحب العذري ، نشأته وتطوره ، وقد غني ببحث هذا الامر بقدر ما تيسر .

الرجال للرجال مرتبة أسمى وأعلى من حب الرجال للنساء ، ويراها أليق
برجال الفكر والفلاسفة (٢٦) .

والحق ان عاطفة الحب من السعة بحيث تصدر عنها كل ألوان الحب ،
وتشع من النفس الى كل ما يؤلف لديها ويؤثر عندها . ونفوس المحبين من
الارهاق بحيث تألف وتحب ، حتى لا تكاد تكره شيئاً ، وقلوبهم من الصفاء
بحيث تقبل كل صورة - كما يقول ابن عربي - . وليس حب الصوفية الا
المرتبة العليا من مراتب هذه العاطفة حيث يصبح المحبوب ممثلاً في كل شيء .
وهكذا يبدو أن الصوفية قد استعاروا من هذه الطائفة من شعراء الغزل
طريقتهم في التعبير ، لانه لم يكن يحسن بهم ان يعبروا عن المحبوب الاول
بلفظ التأنيث ، فكان أسلوب الغزل بالذكر أدنى الى طبيعة المعاني التي
قالوا شعرهم فيها .

٦ - ثورة أبي نواس

ومن أهم ظواهر التجديد التي شهدتها الشعر في بغداد ظاهرة تختلف
عما سبق أن تحدثنا فيه مما يصح أن نسميه تجديداً تطورياً أو تجديداً سعى
الى الشعر أو سعى اليه الشعر مدفوعاً بما أصاب الحياة العباسية من تحول
في السياسة وفي الحياة الاجتماعية والفكرية والحضارية . هذه الظاهرة
الجديدة كانت دعوة الى الثورة على القديم في الشعر والى التحلل من قيوده
وتقاليده ، وأن يستوحي الشعراء أصولهم الفنية من الحياة التي كانوا
يحيونها ويحسونها ويشعرون بها .

وكان داعية هذه الثورة أبو نواس الشاعر الذي عاش في عصره بحق،
واقفتم بالحياة الحضرية الجديدة افتتانه ملك عليه مقاليد نفسه ، فنعى على
الشعراء تمسكهم بما ورث الشعر من تقاليد الجاهلية كالوقوف على الأطلال

(٦) يراجع :

Plato : Symposium

والبكاء على الآثار ومساءلة الدمن ووصف الصحراء والناقة التي تقطعها •
ودعا الشعراء الى واقع حياتهم التي كانت تزخر بألوان من الجمال ، تشير
العواطف وتذكي المشاعر وتستحق منهم ان يجعلوها ذأبهم في الشعر فيكونوا
فيه اصيلين صادقين لا مقلدين متكلفين •

وكان ابو نواس يأخذ على الشعراء ذكر الغابرين من البدو والاعراب
وتمجيدهم اياهم واعجابهم بهم وبحياتهم ، وكان يصفها بالجذب دالجفاء •
وقد كان يفعل ذلك اكثر ما يفعله في خمرياته ، فيذم حياة الاعراب ما شاء ،
وينهى عن ذكرها الشعراء ، ثم يدعوهم الى العكوف على الخمر والتغني
بمحاسنها والاقبال على مجالس شربها ووصف تلك المجالس والتمتع بها •
وذلك في شعره كثير ، منه قوله :

دع الاطلال تسفيها الجنوب	وتبلي عهد جدتها الخطوب
وخلّ لراكب الوجناء ارضاً	تحت بها النجبية والنجيب
ولا تأخذ عن الاعراب لهواً	ولا عيشاً فعيشهم جديب
ذر الالبان يشربها اناس	رقيق العيش عندهم غريب
بأرض نبتها عثر وطلح	واكثر صيدها ضبع وذيب
اذا راب الحليب قبل عليه	ولا تحرج فما في ذاك حوب
فأطيب منه صافية شمول	يطوف بكأسها ساق اريب

وكان يصرّح أحياناً بأسماء القبائل التي يسخر منها ويهزأ
بحياتها فيقول :

عاج الشقي على رسم يسائله	وعجت أسأل عن خماره البلد
يبكي على طلل الماضين من اسد	لا درّ درك قل لي من بنو اسد
ومنّ تميم ومنّ قيس ولقهما	ليس الاعارب عند الله من احد

ثم يوازن بين وصف الديار والاحجار والوقوف على الاطلال والآثار

وبين وصف الخمر في دساكرها فيقول :

كم بين ناعت خمر في دساكرها وبين باك على نؤي ومنتضد
دع ذا عدمتك واشربها معتقة صفراء تفرق بين الروح والجسد
من كف مضطر الزنار معتدل كأنه غصن بان غير ذي اود

وقد وازن في قصيدة اخرى بين الرسوم الدائرة والديار المعطلة والاثافي
والوتد وبين مجالس الخمر الممهدة بين الحقائق ، قد صفقت نمارقها في ظل
الكرم المعرّش الغض ، تلحفها الغصون الندية ويحيط بهما الحسن من
كل جانب . قال :

لا تبك رسماً بجانب السند ولا تجرد بالدموع للجرد
ولا تعرج على معطلة ولا أثاف خلت ولا وتد
وملّ الى مجلس على شرف بالكرخ بين الحديق معتمد
ممهّد صفقت نمارقه في ظل كرم معرّش خضد
قد لحفتك الغصون أردية فيومك الغضّ بالنعيم ندي
ثم اصطحب من اميرة حجت عن كل عين بالصون والرصد

ومن عجب ان ابا نواس لا يتذكر هذه المعاني او انها لا ترد في خاطره
إلا إذا اخذ في وصف الخمر ومجالسها ، اذن يحمل لواء الثورة الجامعة التي
تريد أن يستلهم الشعر من واقع الحياة الحضرية وما فيها من ألوان الجمال
والحسن . وهو لا يلبث ان ينسى تلك الثورة ويعرض عنها إذا مدح او هجا
او افتخر في الاغلب الاعم ، ولا يكاد يتقيد بهذه الدعوة التي حمل
رايتها إلا قليلا .

وقد افتتح بعض قصائده في المديح بوصف الخمر كما فعل في مدح العباس
ابن عبيد الله بن ابي جعفر في قصيدته التي مرّ ذكرها وأولها :

غرّد الديك الصدوح فاسقني طاب الصبوح

وكان المنتظر أن يقلع هو عما نعى على الشعراء الاقامة عليه وهليلد
الأقدمين فيه ، ولعله كان يحسب لقوة القديم حسابها ، فيراعي أذواق
الخلفاء ويعمل على ارضائهم واكتساب اعجابهم بشعره ، ولعله من جانب
آخر لم يستطع أن يغالب قوة القديم في تكوينه الشعري ، وفي ذوق عصره
أيضاً •

بل لعل ثورته هذه لم تكن على حظ من الجدد ، بل انها كانت نزوة
من نزوات النشوة التي تهتز بها نفسه في مجلس الخمر فيكفر بما سواها
ويثور عليه ويدعو الى نبذه والاعراض عنه •

ولم تمر هذه الثورة بالشعر والشعراء من دون أن تغف آثارها على
أي حال • فقد ترددت أصدااء تلك الثورة التي لم تخلف آثارها عند أبي
نواس في شعر شاعرين آخرين ، ولا نقول في كل شعرهما وانما ظهر التأثير
بالحياة الجديدة واضحا في بعض القصائد •

وبينما كان أبو نواس يدعو الى هجر التقاليد البدوية في الشعر ثم
لا يتقيد بذلك في مدائحه وما يجري مجراها ، كان مسلم بن الوليد قد
ابتكر للوصول الى ممدوحه آلة حضرية أخرى ، وهجر الناقة سفينة
الصحراء وركب اليه سفينة تمخر عباب الماء ، وقد وصفها ووصف النهر
الذي مخر بها عبابه وصفاً جميلاً وصوره تصويراً رائعاً •

أما الشاعر الآخر فهو الحسين بن الضحاك وقد وصف السفينة التي
حملته في دجلة من بغداد الى سامراء حيث مقر الخليفة المعتصم الذي مدحه
بتلك القصيدة •

وقد استنفد وصف السفينة ووصف النهر قصيدة مسلم أجمعها إلا
بيتين أوجز فيها مدحته ايجازاً •
وقد افتح قصيدته افتتاحاً خمرياً ولكن على طريقة غير طريقة أبي

نواس فقال :

أديرى علي الراح ساقية الخمر ولا تسأليني وأسألي الكأس عن امري
كأنك بي قد اظهرت مضر الحشا لك الكأس حتى اطلعتك على سري
هجرت الندامى خشية السكر إنما يضيع الفتى اسراره حالة السكر
ولكنني اعطيت مقودي الصبا فقاد بناتِ اللهو مخلوعة العذر
إذا شئت غاداني صبح من الهوى وان شئت ماساني غبوق من الخمر
ثم يأخذ من بعد ذلك في وصف النهر المنتظم الأمواج وما يفعله الموج
بالسفن الجاريات فيه ، فلا ينسى الصحراء وصورها بل يقول :

إذا اعتنقت فيه الجنوب تكفأت جواريه او قامت مع الريح لا تجري
كأن مدب الموج في جنباتها مدب الصبا بين الرعاث من العفر
ثم يأتي بعد ذلك على وصف السفينة التي مخرت به عباب هذا النهر
الى مددوحيه وصفا يحشد فيه على عادته كثيراً من الصور والتشاييه
والاستعارات ، فيشبه السفينة بجارية يقودها النوتي مشفقا عليها ، كأنما
يسير بها في جبل وعر :

كشفت أهوايل الدجى عن مهوله بجارية محمولة حامل بكر
لطمت بخديها الحجاب فأصبحت موقفة الدايات مرموقة النحر
إذا أقبلت راعت بقنة قرهب وان أدبرت رامت بقادمتي نسر
تجافى بها النوتي حتى كأنما يسير من الاشفاق في جبل وعر
تخلج عن وجه الحجاب كما اثنت مخبأة من كرّ ستر الى ستر
أطلت بمجذافين يعتورانها وقومها كبج اللجام من الدبر
فحات قليلاً ثم مرّت كأنها عقاب تدلت من هواء على وكر

ثم يصور ملاحها القوي المتين الذي يعاصيها ويطاوعها ، وكيف
يسوسها اذا عصت حتى يتمكن منها ، ثم يصورها وهي تواجه نسيم الصبا
وتتهادى في سيرها مشي العروس الى الخدر :

أناف بهاديهها ومدّ زمامها شديد علاج الظهر معتمل الظهر

إذا ما عصت أرخى الحرير برأسها فملكها عصيانها وهي لا تدري
كأن الصبا تحكي بها حين واجهت نسيم الصبا مشي العروس الى الخدر
ثم ينتهي بعد ذلك الى المدح فيوجزه بهذين البيتين :

تؤم محل الراغبين وحيث لا تراد اذا حلت بها ارحل السفر
ركبنا اليه البحر في مؤخراته فأوفت بنا من بعد بحر الى بحر
أما الحسين بن الضحاك فقد وصف السفينة التي حملته من بغداد الى
سامراء وصفا يبدو أنه عقب به على المديح على خلاف ما فعل مسلم بن الوليد.
فقد اتبع هذا اسلوب القدماء في وصف الراحلة التي يركبونها الى الممدوح
تمهيداً للخوض في المديح .

وليس في ما يرويه صاحب الأغاني من قصيدة الحسين بن الضحاك من
المدح الا بيت واحد هو البيت الاول الذي يتخلص منه الى وصف السفينة
حيث يقول :

الى خازن الله في خلقه	سراج النهار وبدر الظلم
رحلنا غرايب زغافة	بدجلة في موجها الملتطم
اذا ما قصدنا لقا طولها	ودهم قراقيرها تصطدم
سكنّا الى خير مسكونة	تيممها راغب من امم
مباركة شاد بانيها	بخير المواطن خير الامم
كأن بها نشر كافورة	لبرد نداها وطيب النسم
كظهر الاديم اذا ما السحا	ب صاب على متنها وانسجم
مبرأة من وحول الشتاء	اذا ما طمى وحله وارتكم
فما ان يزل بها راجل	يمر الهوينا ولا يلتطم
ويمشي على رسله آمناً	سليم الشراك نقي القدم

وللنور والضرب في بطنها مراتع مسكونة والنعم
غدوت على الوحش مفترية روائع في نورها المنتظم
ورحت عليها وأسراها تحوم بأكنافها تبسم

على ان هذه الظاهرة لم يقيض لها الاستمرار ، ولم تجد من الشعراء من ينساب في هذا التيار الذي انساب فيه مسلم بن الوليد ، فلم يحاول الشعراء بعد ذلك ان يجاروه في هذا التجديد ويستمروا فيه ، وكأن تقاليد الشعر القديم كانت أقوى من أن تزلزلها ثورة أبي نواس ودعوته الى التحرر منها والاعراض عنها والاقبال على مظاهر الحياة الجديدة ، ولعل من أسباب ذلك أن القديم كان يستمد القوة من السلطان كما أسلفنا وكان يستند في بقاءه الى الحركة العلمية التي قامت على مدارس القديم وتدوينه وتذوقه .

وثمة أمر جدير بالاهتمام خليق بالتنبؤ ، وهو ان الثورة التي حمل لواءها بعض الشعراء لم تكن على جانب من القوة بحيث تفرض نفسها على التقاليد القديمة متمثلة في السلطان أحيانا ، وفي حركة أحياء القديم أحيانا أخرى . ولعل من أسباب ذلك ان دعاة تلك الثورة لم يتمسكوا بهما ولم يجدوا فيها ولم يكونوا من المنزلة الاجتماعية بحيث يستجيب لهم المجتمع في توجيه حياته الادبية والاجتماعية . وليس من شك في ان تقاليد الشعر القديمة كانت مرتبطة ببعض التقاليد الاجتماعية بحيث يحمي بعضها بعضا اذا تهدده خطر او نزلت به نازلة .

وليس يعني ذلك بحال من الاحوال ان الجديد قد خدمت جذوته وخبا شعاعه ، فان ذلك يخالف طبيعة الاشياء ويصادم طبيعة التطور في الفنون وفي مظاهر النشاط الانساني على وجه العموم . وانما نعني بانتصار القديم عودة الشعر العربي الى اصوله الاولى ، تلك الاصول التي لو انه فارقها وخرج عنها لما عاد شعراً عربياً . اراد له بعض الثائرين من شعراء القرن الثاني ان يصير الى ذلك من حيث يشعرون او لا يشعرون .

بقي علينا ان نتساءل : ماذا كان مصير الفنون الجديدة ، وماذا
اصابها من التطور والتحول ؟ وهل قضي على تلك المراحل التي قطعها الشعر
في التطور ان تنكمش او تدرس •

وفي الجواب على ذلك نقول : إن الفنون الجديدة التي استحدثت
بعضها شعراء القرن الثاني ، وتحولوا ببعضها عن سبيله الاولى قد صارت
الى احد مذهبين : الاول انتقالها الى فن آخر من فنون التعبير هو اخلق بها ،
وادنى الى طبيعتها ، وتلك هي الموضوعات المتعلقة بالفلسفة والحكمة والجدل
المذهبي وما يجري مجراها • وقامت بها رسائل المتكلمين ومناظراتهم وكتبهم •
والثاني انها تسربت خلاصتها وزبدتها الى الشعر معاني طوعها الشعر
لطبيعته العاطفية والفنية ، فخرجت منها حكمة ابي تمام والمتنبي وابي العلاء
المعري (في سقط الزند) •

اما ما سوى ذلك فقد كان التجديد فيه استجابة لظروف مؤقتة ، حتى
اذا زالت تلك الظروف انكمش ظل تلك الموضوعات الجديدة وانحصر
وتوارى ، مثال ذلك ، تلك الموضوعات التي خلقتها حياة الترف والدعة
والاستقرار كالاغراق في وصف الخمر ووصف حياة المجون التي كان
يحياها المجتمع البغدادي قبل النزاع على الخلافة بين الامين والمأمون •



الفصل الثاني

الجديد في الصورة والاسلوب

كانت دواعي التجديد في هذه الحقبة التي نبث فيها من القوة بحيث لم يكفها ان يجدد الشعراء في الافكار والموضوعات ، فحملتهم قوّة الجديد احيانا على التجديد في صورة الشعر وفي مظهره وفي اسلوبه .

وكانت بواعث التجديد في صورة الشعر واسلوبه على ضربين : احدهما ذاتي اندفع اليه الشعراء رغبة في الجديد وسعيا وراءه ، كتجديد الشعراء في الاوزان وابتكارهم فيها ابتكارا اعانت عليه الحياة الفنية ، وما اشاعته الموسيقى من صقل لاذواق الشعراء وامدادهم بالجديد من الانعام .

والثاني موضوعي فرضته على الشعراء بعض مظاهر التطور والتقدم في الحياة الفكرية والحياة الحضارية . فمن ذلك ما نلاحظه عند فريق من شعراء القرن الثاني وبعض شعراء القرن الثالث من جنوحهم الى السهولة في الاسلوب سهولة بلغت عند بعضهم مبلغ العامية . ومن ذلك ايضا ما نشهده عند طائفة اخرى من الشعراء تأثرت بالحضارة في صور التعبير ، فعمدت الى التجميل والتزييق واستخدمت في التعبير الصور البيانية المختلفة من تشبيه واستعارة وكناية وما الى ذلك . وظهرت عندها العناية بالصناعة اللفظية من مجانسة بين الالفاظ ومطابقة وتورية ونحو ذلك .

ومما تجدر ملاحظته في هذا الباب ان شعراء القرن الثاني كانوا في الغالب مفتونين بالتجديد مقبلين على الحياة الجديدة مندفعين في التأثر بها

الى مدى بعيد ، في حين ان شعراء القرن الثالث او اغلبهم كانوا اقل حماسة للتجديد واحرص على التزام الطرق الفنية التي ألفها الشعر العربي من اقدم عصوره ، وبخاصة في الاسلوب وفي طريقة التعبير •

ولعل لما أشرنا اليه من العكوف على احياء القديم بالرواية في أواسط القرن الثاني وأواخره واشتداد النشاط العلمي الذي يقوم على ذلك وظهور النقاد الذين كانوا لا يرون التقديم إلا للقدماء ، أقول لعل لذلك كله أثره في العودة الى التقليد واتباع القديم ، بعد ذلك الاقبال العنيف على التجديد •

وكان أعلام المجددين في الموضوع وفي الاسلوب معا ممن عاشوا في القرن الثاني كبشار وأبي نواس وأبان وأبي العتاهية ومن اليهم • وكان المحافظون الذين عادوا بالشعر الى صورته الاولى من رجال القرن الثالث على وجه العموم وعلى رأسهم أبو تمام والبحتري •

ونحن لا نكاد نشهد في القرن الثالث من المجددين الذين ورثوا ذلك الاندفاع الى الجديد إلا واحداً من الشعراء ، كان فيما يبدو رد فعل للمحافظة وهو ابن الرومي ، ولعله كان كذلك لطبيعته الانطوائية التي جعلته بعيداً عن الاتصال بالحياة العامة وما أثرت في عودة الشعر الى قديمه - كما أسلفنا - ؛ يضاف الى ذلك أنه كان أعجمي النزعة تياهاً بأصله غير العربي، مما دعاه الى متابعة أسلافه من شعراء القرن الثاني •

وسنعرض في هذا الجزء من البحث لأهم مظاهر التجديد العامة في الصورة وفي الأسلوب ويمكن أن نحصرها فيما يأتي :

أولاً - محاولة التجديد في الأوزان ، وقد كان أول من حاول ذلك من الشعراء في ما نعلم أبو العتاهية وتبعه في ذلك شاعر آخر من شعراء القرن الثالث هو رزين العروضي •

ثانياً - سهولة الأسلوب ، وقد كانت ظاهرة واضحة في طائفة من شعراء القرن الثاني دعاهم اليها التجديد في الموضوع ، والاتصال الوثيق بالحياة العلمية ، والرغبة الخفية في التحرر من قيود القديم ، وعجز الأسلوب الشعري المألوف عن الوفاء بالتعبير عن المعاني الجديدة التي تأثروا فيها بالثقافة الجديدة .

ثالثاً - البديع ، وقد كان تجديداً من وجه وتقليداً من وجه آخر ، فهو في الحقيقة ليس إلا إكثاراً من فنون في التعبير عرفها الشعر العربي قديماً ، وهو من ناحية أخرى تجميل في الأسلوب تأثر فيه الشعراء بمظاهر الحضارة كما سبق بيانه .

وقد صحبه عند هؤلاء المتفنين من الشعراء عودة الى نظام القصيدة الأول والى موضوعاتها المألوفة ، وكأن هؤلاء قد شغلوا بالتجديد الجزئي في المعاني وفي الصورة والأسلوب عن التجديد العام الذي عرفناه عند الطائفة الأخرى من الشعراء .

١ - الاوزان الجديدة

وقد كان مبدأ التجديد في الأوزان أن الشعراء أخذوا يميلون الى الأعاريص القصيرة التي تلائم الغناء وتناسب أغراض الشعر الجديدة . وكانوا يقصدون في ذلك الى الخفة والاطراب ، إذ إن البحور الطويلة لا تصلح في الغالب إلا للانشاد في المحافل والتأثير في السامعين إثارة للحماسة واستدرااراً للعجاب . وقد جد في الشعر ما أخرجه عن هذه الدائرة منذ أن أصبح الشعر حاجة غنائية وحضارية ، ومنذ أن غادر ، الى حد كبير ، محافله المشهورة كعكاظ والمربد ، وصار فاكهة في المجالس يتملح بها ، أو غناء يؤديه المغنون والقيان .

وقد سبق الى التأثير بذلك شعر الحجاز، فأكثر الشعراء الحجازيون من

الأوزان القصار حتى أنهم لم يقتصروا فيها على موضوعات وأغراض بعينها، بل صاروا يستخدمونها في الأغراض على اختلافها ، مثل عبدالله بن قيس الرقيات الذي رثى مصعب بن الزبير بقصيدة من مجزوء الكامل يقول فيها :

ان الرزية يوم مسكن والمصيبة والفجيعة
بابن الحواري الذي لم يعد له أهل الوقعة

وكان الوليد بن يزيد ومن عاصره واتصل به من شعراء الكوفة ينهجون هذه السبيل ، فيكثرون في أشعارهم من استخدام الأوزان الملائمة للغناء ، المناسبة في رقتها وخفتها لحياة اللهو والانس التي كانوا يحيونها ، والمعاني التي كانوا يقولون شعرهم فيها .

ولكن الذي يبدو للباحث واضحاً محققاً في هذا الامر أنه لم يحاول أحد من الشعراء التجديد في العروض وابتكار بحور جديدة لم يحط بها عروض الخليل بن أحمد خبراً . وأن أول من حاول ذلك من الشعراء أبو العتاهية . وقد كان أبو العتاهية مطبوعاً في قول الشعر ، أو بعبارة أدقّ كان مطبوعاً في وزن الكلام وتقنيته ، وتلك من غير شك موهبة فنية خطيرة . وكان أبو العتاهية لموهبته هذه قديراً على أن يقول الشعر في أوزان لم يعرفها العروض . وقد كان هو يشعر بذلك ويتيه به فخراً ، حتى إن سئل مرة : « هل تعرف العروض ؟ » فأجاب جواب المعتد بنفسه المثلّ بموهبته الفنية في وزن الكلام : « انا اكبر من العروض » (١) .

ويروي ابن قتيبة أن أبا العتاهية قعد يوماً عند قصار ، فسمع صوت المدقة ، فحكى ذلك في ألفاظ شعره فقال :

للمنون دائرا ت يـدـرن صرفها
هن يتقننا واحداً فواحداً (٢)

(١) الاغاني ج ٣ ص ١٢٧ .

(٢) الشعر والشعراء ص ٣٠٩ .

وهذا يدل على أذن حساسة مرهفة الحس تنصيد الأنغام وتتلققها من كل مكان وفي كل حين .

ومن أوزانه الجديدة أيضاً هذه الأبيات :

عتب ما للخيال	خبريني ومالي
لا اراه أثنائي	زائراً مذ ليالي
لو رأني صديقي	رق لي او رثى لي
أو يراني عدوي	لان من سوء حالي

وذكر المسعودي أن لأبي العتاهية أشعاراً خرج فيها عن العروض مثل قوله :

همّ القاضي بيت يطرب	قال القاضي لما عوتب
ما في الدنيا الا مذنب	هذا عذر القاضي واقلب ^(٣)

وكان من شعراء القرن الثالث شاعر يقال له رزين العروضي ، وهو معروف عند مؤرخي الشعر بأنه كان يجيد الصناعة اللفظية ويعنى بها في شعره ويأتي من ذلك بالغريب النادر كأن يجعل قصيدته كلها على الحروف المهملة فلا يكون في كلماتها حرف معجم الى غير ذلك من مظاهر البراعة في نظم الكلام^(٤) .

ولرزين هذا قصيدة مدح بها الحسن بن سهل ومات قبل ان ينشده اياها . وقد اشتهرت وشاعت وصارت مثلاً بين الناس^(٥) . وأول هذه القصيدة نسيب على طريقة القدماء يقول فيه :

(٣) مروج الذهب ج ٣ ص ٣٦٠ .

(٤) الأغاني ج ٤ ص ١٠٦ وقد مرت الإشارة الى ذلك في الكلام على قصيدة ابن هرمة التي نظمها على الحروف المهملة .

(٥) معجم الادباء لياقوت الحموي ج ١٥ ص ٢٦٥ .

قربوا جمالهم للرحيل غدوة أحبتك الاقربوك
خلقوك ثم مضوا مدحجين منفرداً بهمك ما ودعوك

ومنها في المدح قوله :

من مبلغ الامير أخي المكرمات مدحة مجبرة في ألوك
تزدهي كواسطة في النظام فوق نحر جارية تستيك
يا ابن سادة زهر كالنجوم أفلح الذين هم أنجبوك
اذ نعشت مدحهم بالفعل محياً سيادة ما أولوك^(٦)
ذو الرياستين^(٧) أخوك النجيب فيه كل مكرمة وفيك
لم تزالاً حياً للبلاد والعباد ما لكما من شريك
أتما إن أقحط العالمون منتهى الغياث ومأوى الضربك
يا ابن سهل الحسن المستغاث وفي الوغى إذا اضطرب الفكيك
ما لمن ألح عليه الزمان مفزع لغيرك يا ابن الملوك
لا ولا وراءك الراغبين مطلب سواءك^(٨) حاشا أخيك

قال ياقوت : والقصيدة غريبة العروض^(٩) . وهي كذلك في الواقع
ثم إنها مليئة بالزحاف كما في قوله :

ذو الرياستين أخوك النجيب فيه كل مكرمة وفيك
وفي قوله :

يا ابن سهل الحسن المستغاث وفي الوغى إذا اضطرب الفكيك

-
- (٦) ضبطها ناشر المعجم هكذا (أولوك) بتسكين الواو ولا يستقيم الوزن
ولعل الصحيح تشديدها من (أول) .
(٧) ذو الرياستين هو أخوه الفضل بن سهل وزير المأمون وصهره .
(٨) في معجم الادباء « سواك » ولا يستقيم الا بالهمز .
(٩) معجم الادباء ج ١٥ ص ٢٦٦ .

ومما يجدر بنا أن محاولات التجديد في الأوزان لم تكن على جانب كبير من الجِدِّ ، ولا كان لها من أثر في جاء بعد من الشعراء .

وتلك ظاهرة تدل على أن القوم لم يكونوا يشعرون بالحاجة الملحة إلى ذلك التجديد ، فكانت محاولاتهم فيه ضرباً من التفككة ، أو أن عروض الخليل قد استنفد كل ما يمكن من الصور الموسيقية حتى لم يستطع أحد من الشعراء أن يضيف من بعده شيئاً . وأحسب أن الأمر الثاني قوي الاحتمال ، لأن هذه الأوزان التي يذكر مؤرخو الشعر أن أبا العتاهية ورزينا العروضي قد أبدعها ليست في الواقع خارجة عن دوائر العروض التي وضعها الخليل .

فالوزن الذي وضعه أبو العتاهية على غرار صوت المدقة ونظم فيه قوله:

للمنون دائراً ت يدن صرفها

ليس إلا ضرباً من مجزوء الرملى .

وكذلك قوله :

عتب ما للخيال خبريني وما لي

إن هو إلا ضرب من مجزوء الخفيف .

أما البيتان اللذان ذكر المسعودي أن أبا العتاهية خرج فيهما عن العروض وهما :

هم القاضي بيت يطرب الخ

فانهما من البحر السادس عشر الذي عرف بالمتدارك ، تداركه على الخليل تلميذه الاخفش .

أما قصيدة رزين العروضي فهي من المتقارب محذوفا منه سببان في

اوله احدهما خفيف والثاني ثقیل • فالبحر المتقارب وزنه هكذا :

فعولن فعولن فعولن • في الشطرين •

وبحذف السبين الاولین يخرج وزن قصيدة رزین ، واذن فليس فيها جديد •

ونحن إذا استثنينا ميل بعض الشعراء في الحجاز والشام والعراق الى البحور القصيرة الملائمة للغناء لا نكاد نحس للتجديد في اوزان الشعر اثرًا ذا قيمة ، تمليه على الشعراء طبيعة الموضوعات التي جرت في تطور الشعر من فن إنشاد في محافل ومجامع الى فن غناء في مجالس الانس ، او يدفعهم اليه التأثير بالحضارة التي تصقل الازواق ، وتلفظ من بحور الشعر ما تستخف الاذن موسيقاه ولا تأنس الى وقعه •

ونعود مرة اخرى فنقول ان دراسة الاعاريض من حيث ارتباطها بموضوعات الشعر وعلاقتها بفنونه تستحق جهداً يستقل بها ، فيكشف عن هذا الجانب الفني في الشعر ويقف الباحثين فيه على معالمة للعامة في الاقل •

٢ - سهولة الاسلوب

وكانت طبيعة التجديد في الموضوعات - مما لم يكن يألفه الشعر العربي في سابق عهوده - تدعو الى تجديد مماثل في الاسلوب ، يضاف الى ذلك بعض الظروف الاجتماعية التي قضت على الشعر ان يسايرها وان يخضع لها • كذلك كانت الحياة العقلية وما حدث فيها من تطور سريع يشبه ان يكون وثبة • فقد قضت على الشعر - باعتباره مظهرًا من مظاهر الحياة النفسية والعقلية - ان يلاحقها وان يحاربها في معانيه وفي اسلوبه •

وهكذا شهد القرن الثاني ما يستطيع الباحث ان يدعوه انقلاباً في اسلوب الشعر وتجديداً خطيراً فيه • وذلك يتمثل في شيوع السهولة وإيثار

البساطة ، والتحلل من قيود الصنعة الفنية في اسلوب الشعر •

وظهر بين الشعراء من يهمل الناس بسرعته في قول الشعر وقدرته العجيبة على وزن الكلام ، واهتزت مقاييس النقد - نقد الشعر - لهذه الظاهرة الجديدة ، فتأثرت بها تأثراً زاد في غرابته عليها ، فأصبحت سهولة الشعر وقرب مأخذه محل الاعجاب عند طائفة من النقاد وموضع الانتقاد عند آخرين •

وليست السهولة في اسلوب الشعر بالامر الغريب الذي لم يعهده الشعر العربي من قبل ، بل إن له في ماضي هذا الشعر سابقة تشابهت في بعض ظروفها بما حدث في هذه الحقبة التي نحن بصدد الكلام عليها •

فقد كان عمر بن ابي ربيعة - وهو الذي سلك في غزله طريق القصص وحكاية احاديث النساء - اول من فكك اسلوب الشعر وقصم جزالته وطعن في موضع القلب • وقد حملة على ذلك صدقه في نقل احاديث النساء او اتقانه التشبه بهن وقدرته على ان يتلبس طبيعة المرأة في احاديثها ، فكان لزاماً عليه ان يحول عن التعبير القوي والاسلوب الجزل المتين الى اسلوب رخو لين الاعطاف تتمشى انوثة المرأة في ثنياه ، وتجافيه طبيعة التفنن والتأمل التي لا توافق نقل الحديث العابر وحكاية الاحاديث الهازلة البعيدة عن الجد •

وقد ظهر في القرن الثاني شبيه لابن ابي ربيعة في التخث والتخث والقرب من طبائع النساء ومجافاة الرجولة ، فكان لا بد ان يظهر اثر ذلك في شعره واضحاً • على انه لم يبلغ في غزله مبلغ ابن ابي ربيعة في الاجادة والاطراف • ذلك هو ابو العتاهية الشاعر الذي كان في اول امره يتخث ويحمل زاملة المخنثين ، ثم تعلق بعتبة جارية الخيزران هاهنا بهما هياماً شديداً ، فصار يثثها في شعره وجده وهيامه ، ويستعطف المهدي والرشيدي ان يجعلا

بينه وبينها فكانت هي تتأبى وترجو مولاهما ان لا يفعل ذلك بها ، فكان ذلك
يزيده بها شغفا ولها استعطافاً .

ولابي العتاهية في عتبة شعر لين الاسلوب سهل العبارة يكاد يبلغ في
سهولته وفي لينه مبلغ العامية ، ويخرج عن المألوف في اساليب الشعراء . فمن
قوله فيها - وهو عند بعض مؤرخيه من مختار شعره (١٠) :

بالله يا حلوة العينين زوريني	قبل الممات وإلا فاسترييني
هذان أمران فاختاري أحهما	إليك او لا فداعي الموت يدعوني
إن شئت موتاً فأنت الدهر مالكة	روحي وإن شئت أن أحيا فأحييني
يا عتب ما انت إلا بدعة خلقت	من غير طين وخلق الناس من طين
إني لأعجب من حب يقربني	ممن يباعدني عنه ويقصيني
يا أهل ودي إني قد لظفت بكم	في الحب جهدي ولكن لا تبالوني
الحمد لله قد كنا ظنكم	من ارحم الناس طراً بالمساكين
أما الكثير فلا أرجوه منك ولو	اطمعتني في قليل كان يكفيني

وقد كان ابو العتاهية يسف في غزله أحياناً حتى يهبط بأسلوبه وتراكيبه
الى العامية المبتذلة ، ويرسل القول على عواهنه فلا يبالى كيف يخرج شعره ،
ويجاري طبعه القريب من طبائع النساء فلا يعارضه ولا يستبعد مما يأتيه
في ذلك شيئاً . مثال ذلك قوله في عتبة أيضاً :

يا عتب سيدتي أما لك دين	حتى متى قلبي لديك رهين
وأنا الذلول لكل ما حملتني	وأنا الشقي البائس المسكين
وأنا الغداة لكل باك مسعد	ولكل صب صاحب وخدين
لا بأس إن لذاك عندي راحة	للصب أن يلقي الحزين حزين
يا عتب اين افرّ منك أميرتي	وعليّ حصن من هواك حصين

وهكذا كان يخرج غزله مبتذل المعاني في أسلوب لين رخو لا يخلو من الفضول ولا يتبين فيه لفن التعبير من أثر •

ولعل من الأسباب التي حملته على ذلك أنه كان يتغزل بجارية ، وكان يظن أن هذا الطراز من القول هو الذي يؤثر عندها ويخالط قلبها ويعطف عليه مودتها •

لقد كان أبو العتاهية في هذه الطريقة لاحقاً مقلداً أو مواطناً مشبهاً لعمر بن أبي ربيعة الى حد بعيد •

ولكن ثمة مظهراً آخر من مظاهر السهولة في الأسلوب كان أبو العتاهية فيه مجدداً لم يسبقه الى التجديد أحد ، وكان يشركه في ذلك جماعة من معاصريه من الشعراء نهجوا سبيله واتبعوا مذهبه •

فقد تأثر الشعراء في هذا القرن بالحياة العقلية وشاركوا فيها ، وظهرت آثار ذلك في شعرهم واضحة جلية ، وجدت في هذا العصر معارف وافكار بعضها أجنبي دخيل وبعضها أصيل مستمد من تطور الحياة العقلية ، فخلبت تلك المعارف والأفكار ألباب الشعراء وحاولوا أن يدخلوها في أشعارهم ليدلوا بذلك على مشاركتهم فيما كان يجري من النشاط العقلي الواسع العنيف •

ولم يكن الشعر بأسلوبه القديم ليتحمل التعبير عن تلك الأفكار ، فكان لزاماً على الشعراء أو على بعضهم أن يخضعوا أسلوبه لذلك وأن يسلكوا في ذلك مسلكاً لم يخل من تحيف على فن الشعر وانحراف به عن طبيعته ولا سيما في محاولاتهم الأولى • فتجروأوا على أسلوب الشعر وأرادوا أن يذللوه للمعاني العقلية والأفكار الفلسفية التي لا يصلح الشعر لها إلا بعد أن يتمثلها تمثلاً يجعلها تسائر طبيعته العاطفية وتجاريها •

وكان أول من جرؤ من الشعراء على ذلك أبو العتاهية فقد جعل

موضوع شعره الأول الحكمة والزهد في الدنيا والدعوة الى التنسك
والاعراض عن ملذات الحياة والتذكير بما بعد الموت •

ومعلوم أن فلسفة الحياة والموت والزهد والحكمة وما يتصل بذلك
موضوعات ومعان هي أخلق بالنثر منها بالشعر ، ولا سيما بعد ان تطرق اليها
القرآن وأفاض في التعبير عنها • وبعد أن ظهر النثر في قصص القصاص
والوعاظ وجدل المتكلمين ، فألفت فيه الرسائل وكتبت الكتب ، فكان على
الشعراء الذين أرادوا أن يسهم شعرهم بنصيبه في هذه الحركة الفكرية أن
يجعلوه - في أسلوبه - مرتبة وسطاً بين الشعر والنثر ، بل هو الى النثر
أقرب منه الى الشعر •

وهكذا كان أبو العتاهية في شعره مرحلة بين الشعر في أسلوبه الفني
المألوف ، الذي يتحرى الجمال في طريقة التعبير ، وبين النثر المنطلق من
القيود الفنية القادر على التعبير عن الأفكار بكل حرية •

ومن عجب أن أبا العتاهية كان يحس أنه يسلك هذه السبيل في شعره
مجدداً يسن فيها طريقة تقرضها طبيعة موضوعه ، وتدعو اليها طبيعة الحياة
الاجتماعية التي جعلت من الشعر متاعاً بين الطبقات المختلفة ، وهو يصرح
بأنه إنما يفعل ذلك إرضاء لاذواق العامة من الناس واكتساباً لعجابهم ، لأن
هؤلاء لا يعجبون إلا بما يفهمون ، ولا بد له من اجل ذلك ان يهبط بأسلوب
شعره الى مداركهم وافهامهم واذواقهم •

تحدث ابن ابي الايض فقال : اتيت ابا العتاهية فقلت له : إني رجل
أقول الشعر في الزهد ولي فيه اشعار كثيرة ، وهو مذهب استحسنة لاني
ارجو ان لا آثم فيه ، وسمعت شعرك في هذا المعنى فأحببت ان استزيد منه
فأحب ان تنشدني من جيد ما قلت • فقال : اعلم ان ما قلته رديء • قلت :
وكيف ؟ قال : لان الشعر ينبغي ان يكون مثل اشعار الفحول المتقدمين او

مثل شعر بشار وابن هرمة ، فإن لم يكن كذلك فالصواب لقائله ان تكون الفاظه مما لا تخفى على جمهور الناس مثل شعري ، ولا سيما الاشعار التي في الزهد فإن الزهد ليس من مذاهب الملوك ولا من مذاهب رواة الشعر ولا طلاب الغريب ، وهو مذهب أشغف الناس به الزهاد واصحاب الحديث والفقهاء واصحاب الرياء والعامه . واعجب الاشياء اليهم ما فهموه (١١) .

ويشعرنا كلام ابي العتاهية انه اتخذ هذه الطريقة في الشعر لانه اراد ان يتقدم بين معاصريه من الشعراء وان يشتهر بينهم ، وما كان له ان يشتهر في طريقة الفحول المتقدمين ولا في طريقة بشار وابن هرمة ، فهو على ما يظهر من سيرته ومن شعره قليل الحظ من الرواية ، واهن الصلة بالقديم . ولولا انه كان كذلك لجمع بين السهولة في الاسلوب والفنية فيه ، كما اجتمع ذلك لابن الرومي من بعده .

وكان ابو العتاهية من اجل ذلك يذهب في الشعر مذهباً غريباً ويرى فيه رأياً ينحط به عن منزلته الفنية المعروفة ، فهو يزعم ان الشعر هو الكلام الموزون المقفى ليس غير . وكان يقول : اكثر الناس يتكلمون بالشعر وهم لا يعلمون ولو احسنوا تأليفه كانوا شعراء كلهم . وسمع رجلاً يقول لآخر عليه مسح : « يا صاحب المسح تبيع المسحا » فقال ابو العتاهية : هذا من ذلك (١٢) . ويروى عنه انه كان يقول : لو شئت ان اجعل كلامي كله شعراً لفعلت (١٣) . .

ولذلك كان ابو العتاهية يكثر من الشعر إكثاراً ادهش معاصريه وحملهم على الاعجاب به ، حتى قدمه كثير من شعراء عصره على انفسهم .

وكان ابن الاعرابي وهو معروف بشدته في التعصب للقديم يقول فيه :

(١١) الاغانى ج ٣ ص ١٥٥ .

(١٢) الاغانى ج ٣ ص ١٤٠ .

(١٣) نفسه ص ١٢٧ .

« والله ما رأيت شاعراً قط اطيع ولا اقدر على بيت منه ، وما احسب مذهبه
إلا ضرباً من السحر (١٤) » .

وسئل ابو العتاهية مرة : كيف تقول الشعر ؟ فقال : ما اردته قط الا
مُثَلَّ لي فأقول ما اريد واترك ما لا اريد (١٥) .

وانقسم معاصروه في تقويم شعره ومذهبه فيه طائفتين ، فبعضهم كان
يعجب به ويقدمه ويسلك سبيله في سهولة الاسلوب كسلم الخاسر تلميذ
بشار بن برد ، وبعضهم كان يعرف لشعره مكانه من العثانة ومجافاة الطريقة
الفنية كابن منذر ومسلم بن الوليد .

وأعجب ما في هذا الأمر أن فريقاً من كبار الشعراء في عصره ، ممن
كانوا يخالفونه في طريقته ومذهبه ، كانوا يعجبون به ويقدمونه على أنفسهم
مبهورين بسهولة الشعر عليه ومواتاة طبعه له وإسراعه اليه . وكان من
هؤلاء بشار بن برد فقد كان يقول فيه : « أشعر أهل زماننا مخنث أهل
بغداد (١٦) » ، وابو نواس إذ قيل له مرة : « أنت أشعر الناس » فقال : « أما
والشيخ (يعني أبا العتاهية) حي فلا (١٧) » . وغير هذين كثير .

أما سلم الخاسر وهو تلميذ بشار وخرّيجه فقد كان يقدم أبا العتاهية
عليه ويقول فيه انه أشعر الجن والانس .

وسلم أشبه في مذهبه بأبي العتاهية ، فقد كان يجنح في شعره الى
سهولة الأسلوب وسلاسته وبساطته ، ويميل فيه الى التخفيف من قيود الفن
عند أستاذه بشار وقد اخذ بيت بشار الذي يقول فيه :

(١٤) نفسه ص ١٢٧ .

(١٥) نفسه ص ١٢٧ .

(١٦) الاغانى ج ٣ ص ١٥٦ .

(١٧) نفسه ص ١٢٨ .

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفلتاك اللهج
فجعله هكذا :

من راقب الناس مات غماً وفاز باللذة الجسور
وهذا يدل على مذهبه في السهولة وقرب المنال ، ولذلك سار بيته وخمل
بيت بشار .

ومما يدل على إثارة مذهب السهولة قوله يمدح عاصم بن عتبة
الفساني :

لعاصم سماء	عارضها تهتان
أمطارها اللجين	والدر والعقيان
وناره تنادي	إذ خبت النيران
الجود في قحطان	ما بقيت غسان
أسلم ولا أبالي	ما فعل الاخوان

هذه الأبيات السلسلة السهلة التي لا صنعة فيها ولا تنميق هي أشبه
في أسلوبها بمذهب أبي العتاهية منها بمذهب بشار ، وقد كان يزيد بن مزيد
الشباني يحسد عاصم بن عتبة عليها ويتمناها لنفسه ، لأنها كانت تسير في
الناس أسرع مما تسير قصائد مسلم بن الوليد وأمثاله فيه وفي أسرته .

وممن كان يذهب بمذهب السهولة في الأسلوب أبان بن عبد الحميد
اللاحقي . ولندكر أن أبان بن عبد الحميد هذا هو الذي نظم كليلة ودمنة
شعراً للبرامكة وذلك لا يتأتى إلا لمن يسلك في أسلوبه مسلك أبي العتاهية
في زهده وفي حكمته من حيث السلاسة والسهولة ومواتاة الطبع واتشال
التعبير والتراكيب وإسراع القوافي اليه في يسر عجيب .

ولأبان هذا أبيات سبق أن رويتا طائفة منها في موضع آخر من هذا

البحث ، وهي تدل على أنه كان شبيهاً في أسلوبه بأبي العتاهية في السهولة والبساطة . ولا بأس أن نذكر منها هنا طائفة أخرى لغرض غير ذلك الغرض . تلك الأبيات التي توسل بها الى بعض بني هاشم ليوصله الى البرامكة . قال :

يا عزيز الندى ويا جوهر الجو	هر من آل هاشم بالبطاح
إن ظني وليس يخلف ظني	بك في حاجتي سبيل النجاح
إن من دونها لمصمت باب	أنت من دون قفله مفتاحي
تاقت النفس يا خليل السماح	نحو بحر الندى مجاري الرياح
ثم فكرت كيف لي واستخرت	الله عند الامساء والاصباح
وامتدحت الامير أصلحه الله	بشعر مشهر الاوضح

الى أن قال يصف نفسه وما يحسن من الصناعات :

أنا من بغية الامير وكنز	من كنوز الامير ذو ارباح
كاتب حاسب خطيب أديب	ناصر زائد على النصاح
شاعر مفلق اخف من الريب	شعة مما يكون تحت الجناح
..... الخ

وهذه الأبيات وإن كانت تختلف في أسلوبها عن أسلوب أبي العتاهية اختلافاً يسيراً من حيث استخدام التشايب والاستعارات إلا أن تشايبها سهلة قريبة المنال تشبه أن تكون عامية في بساطتها ، كتشبيه نفسه في الخفة بالريشة مما يكون تحت الجناح وكقوله في حاجته :

إن من دونها لمصمت باب	أنت من دون قفله مفتاحي
-----------------------	------------------------

* * *

ومما هو جدير بالتنويه في هذا الجديد الطارئ على الأسلوب أن الذين ذهبوا هذا المذهب واتبعوا هذه الطريقة في أشعارهم جماعة من الشعراء

كانوا على اتصال بالثقافات الأجنبية الجديدة ولم يكن لهم بالتقديم صلة وثيقة في الغالب .

كذلك كان أبو العتاهية وسلم وأبان ، وهذا أمر يدل على أن هذه الظاهرة قد نتجت - الى مدى بعيد - من تأثير الثقافة الجديدة في الشعراء وتولدت من تزاخم الأفكار وتكاثرها على أشعارهم حتى التمت لها أسلوباً يصلح للتعبير عنها ، وهو هذا الاسلوب الشبيه بالنثر من حيث تحرره من الصنعة ومن الفن الشعري في التعبير .

وثمة جانب آخر لا يصلح أن تغفل عنه في تفسير هذه الظاهرة وهو غلبة الاعاجم في حياة المجتمع العباسي غلبة جعلت لاذواقهم وأفهامهم وزناً وتقديراً في نظر الشعراء . وكان هؤلاء بحكم الضرورة أكثر تذوقاً للسهل البسيط السلس من الأساليب وأكثر فهماً له .

يضاف الى ذلك ان الحياة العباسية قد غمرتها الحضارة حتى لم تكن تدع لبقايا البداوة في الشعر وفي غيره مكاناً فسيحاً ، فتجافت الاذواق عن الاساليب القديمة في الشعر ، وأقبلت تلتبس الجديد السهل الذي هو اشبه بحياة الحضارة الرخية الناعمة وما يشيع فيها من ترف ولين ، حتى ان إبا نواس - وهو احد الحفظة على تراث الشعر القديم في الاسلوب ، قد اضطر ان يعتذر الى محمد الامين ويلتمس عفوّه عنه بهذه الابيات السهلة التي كادت تهبط الى دركة العامية في سهولتها . وذلك قوله :

بك استجير من الردى	وأعوذ من سطوات باسك
وحياة راسك لا اعو	د لمثلها وحياة راسك
فاذا قتلت أبا نوا	سك من يكون ابا نواسك

وحتى ان المأمون ، وهو الخليفة العالم الاديب ، لم يكن يفقه كثيراً مما يقول عمارة بن عقيل من الشعر في مدحـه لان عمارة بدوي يذهب مذهب القدماء .

ومهما يكن من شيء ، فإن الحياة الادبية في هذا العصر لم تقف من هذا الانقلاب في فن الشعر وفي اسلوبه موقف المستسلم الخاضع ، بل لقد كان لها في بعض الاحيان مواقف مقاومة ومقارعة له ، تتمثل في تصدي طائفة من الشعراء المقلدين منهم والمتقنين لتسخيف هذا المذهب والسخرية منه وتزييفه والنعي عليه . فكان مسلم بن الوليد ، وهو رأس المتقنين في عصره ، يسخر من شعر ابي العتاهية ، ويرى ان إكثاره من الشعر إكثار في غير طائل ، وانه لو شاء ان يقول مثل شعره لجاء بالكثير ولكنه يسمو بفنه الشعري ويربأ به عن ان يورده مورد الاساليب العامة المتبدلة لا صنعة فيها ولا تفنن .

وكان محمد بن منذر وهو من المقلدين ينعى على ابي العتاهية طريقته في الشعر كذلك .

يروى عن ابي حاتم السجستاني أنه قال : لقي ابن منذر أبا العتاهية فقال له ابو العتاهية : « كم تقول في اليوم ؟ » قال : ربما قلت العشرين واكثر وربما اقول خمسة او ستة » فقال له ابو العتاهية : « لكنني لو اشاء ان اقول الف بيت لقلت » فقال ابن منذر لابي العتاهية : « انا اقول مثل قولتي :

هل شيء قد فات من مردود أو حي مؤمل من خلود

حتى أنشد القصيدة . وأنت تقول :

ألا يا عتبة الساعة أموت الساعة الساعة

وتقول :

إن الدنيا قد عرتنا واستقلتنا واستلتهنا
لسنا ندري ما فرطنا فيها إلا ما قدمنا

ولو رضيت أن أقول مثل هذا لا كثرت . » (١٨)

(١٨) الموشح للمرزباني ص ٢٥٦ - ٢٥٧ .

وكذلك كان رأي اسحق بن ابراهيم الموصلي في أبي العتاهية • فقد
كان يفضل عليه العباس بن الاحنف في الغزل ولم يكن يراه شيئاً ، حتى انه لما
امتنحه الرشيد في المفاضلة بينهما واستثده أحسن ما يروى من غزل أبي
العتاهية تعمد أن ينشده قوله في عتبة :

كأن عتابة من حسنها دمية قسّ فتنت قسّها
يا رب لو انسيتهما بما في جنة الفردوس لم أنسها

فلم يجد الرشيد - وكان يفضل أبا العتاهية - الا أن ينشد اسحق
قوله في عتبة ايضا :

أحمد قال لي ولم يدر ما بي أحب الغداة عتبة حقا
فتنفست ثم قلت نعم جأ جرى في العروق عرقاً فعرقا

وهذا وإن خلا من سخف ما في ذاك فهو أيضاً دون شعر ابن الاحنف وأمثاله
من شعراء الغزل •

وصفوة القول ان الحياة الادبية وحياة الشعر على وجه الخصوص لم
تصف لهذا الانقلاب في اسلوب الشعر ، بل لقد اسلمت الى ضرب من
المنافسة والمناضلة بين هذا الفريق من المجددين وبين المتقنين الذين كانوا
يعدون فنيّة الاسلوب والتأني في الصناعة والتنسيق أهم ما في الشعر ، إذا
فارقه لم يعد من الشعر في شيء •

ويبدو أن طبيعة الفنون من السماحة بحيث تحضن المذاهب المتنافرة
المختلفة ، ثم تستخلص من كل واحد منها شيئاً قلّ أو كثر ، ثم تمزج بين هذا
وذاك حتى يخرج مزاجها عسيراً على التعليل العقلي والتفسير المنطقي في
بعض الاحيان • ولعل السر في ذلك أن المذاهب - في الفن وفي غيره - يقتبس
بعضها من بعض وهي في حالة من التنازع والخصام من دون أن تشعر بذلك
الاقتباس ، ويتأثر بعضها ببعض تأثراً لا شعورياً - كما يقال - فتكون

النتيجة تقارباً قسرياً لا ترضى عنه الاطراف المتخصصة ، لو كان الحكم في ذلك الى ارادتها ومشيتها •

ولقد حدث مثل ذلك في الشعر ، فاتتهم مذهب السهولة في الاسلوب الى ما عرفه تاريخ الشعر في أسلوب ابن الرومي الذي كان يجمع بين السهولة والانطلاق من قيود التفتن ولا يشفّ في سهولته الى العامية المتبذلة ، وقد اعانتة سهولة اسلوبه على أمرين اولهما الاطناب ، وثانيهما الاستقصاء في المعاني والالاحاح عليها حتى يستوعبها استيعاباً عجيباً • وكان اسلوبه غريباً بعض الشيء على أسلوب الشعر ، بل هو أقرب الى النثر الفني الذي لا يخلو من غناية بالتهذيب واسقاط الفضول ، وترفّع عن الاسفاف الى العامية والحشو • ومما يصور لنا طريقته في الشعر ومذهبه في الاسلوب قوله :

أحمد الله مُبدئاً ومعيداً	حمد من لم يزل اليه منيباً
أنا في خطتي وأهلي ومالي	وكأنني أمسيت فرداً غريباً
من وعيد نسي الي من القا	ضي فما يستقر قلبي وجيباً
أوحشتني مخافتيه فأصبح	ت حريباً من كل أنس سلباً
مع امني من ان يقارف جوراً	في قضاء معاقباً أو مُثيباً
ولعمري لئن أمنت أميناً	ان في الحق أن أهاب مهيباً
أنا في غمة من الامر غماً	ءَ أطيل التصعيدَ والتصويباً
ما دعا ذاك خيفتي جنف القا	ضي ولا انني غدوت مريباً
غير أنني يسوؤني أن قرناً	شبّ في صدره علي لهيباً

على أن ابن الرومي لا يمكن ان يعد ظاهرة طبيعية في تاريخ الشعر العربي ، وانما هو بقية من بقايا القرن الثاني - وان عاش في أواخر القرن الثالث - في ميله الاعجمي وفي ايثاره طريقة المجددين من الشعراء في الاسلوب وفي بعض اغراض الشعر •

وصفوة القول إن الصراع بين الجديد والقديم في الأسلوب لم ينته الى نهاية حاسمة ، فلم ينتصر القديم على الجديد ولا اكتسح الجديد القديم ، وانما أثمرت المنافسة بينهما مذهباً فيه من القديم أصوله وأسسهِ وفيه من الجديد مسائره للحياة الجديدة ومطالبها ، وكان هذا المذهب الوسط هو مذهب من عرفناهم بالمتفنين أو من يعرفون في تاريخ الشعر العربي بأهل البديع والصناعة .

٣ - البديع

وقد عرف الشعر العربي الصناعة والتأني والصقل منذ عهد قديم ، فكان زهير ابن أبي سلمى صاحب الحوليّات ومن تابعه ممن سلك سبيله من الشعراء كالحطيئة ، يسمّون عند النقاد عبيد الشعر لانهم كانوا يصنعونه صناعة ويبدلون فيه جهداً فنياً .

وكان الى جانب هؤلاء من عرفوا عند الشعر ومؤرخي الادب بالمطبوعين الذين كانوا لا يتقيدون بالصناعة وبالجهد الفني كثيراً . وكان من الطبيعي أن يصبح الشعر عند المولدين صناعة فيها كد وفيها جهد ، ولا سيما بعد أن شارك في الشعر الموالي الذين اكتسبوا العربية وذوقها اكتساباً ودأبوا على تحصيله دأباً .

وبقيت طائفة من الشعراء مطبوعة ، تأخذ الشعر عفواً ولا تصقل فيه ولا تحكك ، فعل أهل الصناعة ؛ وكان من هؤلاء بل كان من ابرزهم السيد الحميري ، وهو يقرن عند بعض النقاد بأبي العتاهية لسهولة الشعر عليه ومواتاة طبعه اياه مواتاة عجيبة . على انه لم يكن قد فارق الاسلوب المألوف في الشعر كما فعل أبو العتاهية .

وكان أمر بشار عجباً من هذه الناحية ، فهو يعدّ من المطبوعين في نظر النقاد وهو أيضاً من أول من أعادوا الى الصناعة مكانها في الشعر ، وهو

بعد ذلك من المجددين الذين أحدثوا في الشعر أحداثاً جديدة وغيّروا في أسلوبه تبعاً لتغييرهم في الأغراض والمعاني • وهو يجمع في شعره بين القديم الذي أورثته آياه نشأته الاولى والجديد الذي أملاه عليه تبدل ألوان الحياة في عصره (القرن الثاني) •

ولم تكن الصنعة في الشعر أو ما سمي فيما بعد بالبديع شيئاً غير معروف في الشعر العربي من قبل ، بل لقد كان معروفاً في شعر القدماء عفواً بلا تعمد ولا تكلف كما يقول النقاد والمؤرخون • « وإنما كان يقول الشاعر من هذا الفن البيت أو البيتين في القصيدة » وأنه لم يطلبه ويقصد اليه إلا المولدون •

وهذه مسألة لا نستطيع أن نسلم بها تسليماً مطلقاً ، بعد أن عرفنا أن بعض الشعراء كانوا يصولون شعرهم ويصنعونه صناعة ويعمدون الى إخراجهم مخرجاً فنياً ، على أن الذي نستطيع أن نسلم به هو أن البديع لم يكن مطلباً أساسياً في الشعر ، ولم يكن الشعراء الاقدمون يحسبون وجوده فيه ضرورة فنية كما سنرى عند المولدين ، بل كان الاقدمون « يطلبون شرف المعنى وصحته وجزالة اللفظ واستقامته » ولم يكونوا يحفلون بالابداع والاستعارة إذا حصل لهم عمود الشعر ونظام القريض^(١) وكانوا يستطرفون من الصنعة ان يقع في القصيدة نحو البيت او البيتين ، ويعمدون ذلك دليلاً على جودة الشعر وصفاء القريحة^(٢) •

وظهرت في القرن الثاني طائفة من شعراء المولدين تتعمد البديع وتقصد اليه ، حتى انطبع به شعرها وعرفت به أساليبها • وكان أبرز هؤلاء من يعرفون عند مؤرخي الادب بساقية الشعراء وهم بشار بن برد وابراهيم بن هرمة والرماح بن ميادة وهم آخر من يستشهد بشعره •

(١٩) الوساطة للجرجاني ص ٣٧ . العمدة لابن رشيق ص ٨٤ .

(٢٠) العمدة ص ٨٤ .

أما ابن هرمة فكان يستخدم الصور في التعبير عن معانيه ، وكان يتحراها ويبحث عنها حتى يجدها . روى أبو الفرج عن اسماعيل بن جعفر عن أبيه : « مررت بابن هرمة جالسا على دكان في بني زريق فقلت : ما أقعدك ههنا يا أبا اسحق ؟ فقال : قلت :

فانك واطراحك وصل سعدى لأحرى في مودتها نكوب

ثم قطع بي فلم أستطع أن أجوزه ، فمرّت بي وصيفة للحي قد ثقت أذنيها وفيها خيوط عنون ، وقد قاحت فذرت عليهما آسا . فقلت : ما لك ، ويحك يا فلانة . فقالت : ثقت أذني لعرس بني فلان فأصابني ما ترى . فقلت : أفلك شنوف ؟ قالت : لا ولكني استعرتة . قال فقلت :

كثاقبة لحي مستعار بأذنيها فشانها الثقوب
فأدّت حلي جارتها اليها وقد بقيت بأذنيها ندوب (٢١)

وهذه الصور التي يحاول بها ابن هرمة أن يقرب المعاني من أفهام سامعيه ، أو يوضحها أو يزينا كثيرا في شعره ، منها قوله :

وإني وتركني ندى الاكرمين وقدحي بكفي زناداً شحاحا
كتاركة بيضها بالعرا ء وملبسة بيض أخرى جناحا

ولابن هرمة قدرة على تصوير المعاني وادراك العلاقة بين الصور المتشابهة والمتجاورة ، فهو يصف تألق البرق في الليل الحالك فيشبهه بأعناق نساء الهند المشوبة بالوضح فيقول :

ألم تأرق لضوء البرق في أسحج لمّاح
كأعناق نساء الهند قد شبيت بأوضح

وهذا هو الذي سماه علماء البلاغة فيما بعد تشبيه التمثيل الذي تشبه فيه صورة بصورة أو حالة بحالة • وهو تركيب للتشبيه فيه تفنن ، وفيه قدرة على وصل الاشياء والصور بعضها ببعض ، والاستفادة من علاقات المشابهة والمجاورة الذهنية بين المعقول والمحسوس •

ويبدو أن ابن هرمة لم يقف عند الولوع بالصور البيانية ، بل كان له بالصناعة اللفظية هم وغرض • يروي له صاحب الأغاني قصيدة ، نحو من أربعين بيتا في رواية ، واثنى عشر في رواية أخرى ، ليس فيها حرف يعجم وإنما ألفاظها كلها على الحروف المهملة • وهي :

أرسم سودة محل دارس الظل	معطل رده الاحوال كالحلل
لما رأى أهلها سدوا مطالعها	رام الصدود وعاد الودّ كالمهل
وعاد ودّك داء لا دواء له	ولو دعاك طوال الدهر للرحل
ما وصل سودة الا وصل صارمة	أحلتها الدهر داراً مأكّل الوعل
وعاد أمواها سدماً وطاولها	سهم دعا أهلها للصرم والملل
صدّوا وصدّ وساء المرء صدّهم	وحام للورد ردها حومة اللل (٢٢)
وحلّووه رداها مأوها غسل	ما ماء رده لعمر الله كالغسل
دعا الحمام حماماً سدّ مسمعه	لما دعاه ودهر طامح الامل
طموح سارحة حوم ملمعة	وممرح السر سهل ماكد السهل
وحاولوا رد أمر لا مرد له	والصرم داء لأهل اللوعة الوصل
أحلك الله أعلى كل مكرمة	والله أعطاك أعلى صالح العمل
سهل مواردته سمح مواعنده	مسودّ لكرام سادة حمل (٢٣)

ومثل هذا الشعر يدل على أن التكلف والتصنع والتلاعب بالالفاظ قد أخذ يغزو الشعر ويفتن به الشعراء اظهارا للبراعة ودلالة على القدرة في

(٢٢) حومة الماء كثرته وغمرته والعلل الشراب الثاني والرده مستنقع الماء •

(٢٣) الاغاني ج ٤ ص ١٠٦ •

سلوك مثل هذا المسلك الوعر في الشعر ، وهو من غير شك مسلك يفضي بالشعراء الى أن ينشغلوا بهذه الظواهر البراقة ، فيجعلوها أكبر همهم منه وينصرفوا اليها عن جوهر فن الشعر وحقيقته .

بشار

وأما بشار فقد كان في رأي النقاد والمؤرخين أصوب المولدين بديعاً (٢٤) وأقدرهم عليه ، ولقد أدهشهم منه أنه جمع بين جزالة البداوة وسماحة الطبع وبن آثار الحضارة التي تجلت في طلبه البديع وشيوعه في شعره . على أنه لم يكن يخضع طبعه للبديع ولا يدع البديع يحيف عليه .

ويتميز البديع عند بشار بشيء جديد قد يصح أن يعتبر خروجاً على المألوف في الشعر ، وهو ضرب من الاستقصاء في التصوير وميل الى التفصيل في التشابيه . وكأن بشاراً كان يسيء الظن بالسامع ، فيعمل جهده لايضاح الصورة البيانية ما استطاع . ولعل ذلك آت من انه كان مكفوف البصر لا يكاد يتخيل تلك الصور الا بجهد ويشعر أن الرمز والايماء والايجاز لا يقفه هو نفسه على المعنى الذي يقصد اليه ، فكان يفصل في التصوير ويوضح ويطنب .

وأمثلة ذلك في شعره كثيرة ، منها قوله ليعقوب بن داود وزير المهدي:

يعقوب قد ورد العفاة عشية متعرضين لسيبك الشاب
فسقيتهم وحسبتي كمونة نبتت لزراعها بغير شراب
مهلاً اليك فأنني ريحانة فاشمم بأنفك واسقني بذناب

وهكذا نراه لا يكتفي أن يشبه نفسه في نظر يعقوب بالكمونة حتى يشرح وجه الشبه بينهما شرحاً مفصلاً بقوله « نبتت لزراعها بغير شراب » ،

(٢٤) الجاحظ (البيان والتبيين ج ١ ص ٥٩ .

ويشبه نفسه في ظره هو بالريحانة ولا يقف عند اجمال التشبيه ، بل يفصل فيه يقول إن الريحانة تشم وتضم بالانف ايضاً وتسقى بذناب غزيراً •
ومثل ذلك ايضاً قوله في أبياته المشهورة التي أولها :

يا ليلتي تزداد نكرا من حب من احبت بكرا
.....

وكان رجع حديثها قطع الرياض كسين زهرا

فان التشبيه يكتمل بقوله : وكان رجع حديثها قطع الرياض ، ولكننا نراه يصر قلى ان يذيله بقوله « كسين زهرا » • ولعل السر في ذلك انه لم ير الروض فلم يدرك جانب الحسن فيه ولم يحسّه ، وانما كان يستطيع أن يشمّ زهره فيحس طيب شذاه ، ومن اجل ذلك كان حتما عليه ان لا يقف الا عند المنطقة التي يبلغها حسه من مناطق الجمال في الرياض ، وهذا هو الذي دعاه الى ان يقول في تشبيه آخر :

وكان ما جمعت علي له ثيابها ذهباً وعطرا

ولا علاقة بين الذهب والعطر الا في نفس بشار وفي حسه ، لأنه لم يكن يبصر الذهب وانما هو يقلد غيره في الاعجاب بجماله ، ومن أجل ذلك أضاف اليه شيئاً يحسه بحق وهو العطر فعطفه عليه ، فهو في التشبيه بالذهب مقلد ، وفي التشبيه بالعطر أصيل •

وأحسب أن حالة بشاركان لها الفضل الكبير في إقباله على تصوير المعاني والتماس الوسائل التي يدل بها على مراده ، وذلك لأن مثله يحتاج الى التصور الذاتي لادراك بعض المحسوسات ، وهذا التصور إنما يحصل بادراك بين ماخزته في ذهنه وفي شعوره من صور المحسوسات التي سبق له أن اختبرها وبين الأشياء الجديدة ، أو هو في الحق توصل بشيء معروف مألوف الى شيء جديد غير مألوف ، وهذا هو الذي يسميه أهل الاصطلاح

التشبيه او الاستعارة • ومن هنا كان للتصوير في شعر بشار طابع متميز يغلب فيه
التصور الذاتي الذي قد يخالف الموضوعية في بعض الأحيان ، ومن هنا أيضا
كان الخصب في تصوير بشار لأن هذا التصور الذاتي مدد لا ينقطع من
الصور الطريفة الجديدة •

وكانت صور الحضارة الجديدة قد غزت ذهن بشار فامتلاّت بها
نفسه وفاض بها شعوره ، فأفاد منها طبعه الشعري واستغلّها استغلالا كبيرا •
ومن أجل ذلك نرجح أنه أقبل على البديع بعد أن هجر البداوة ، واملأ نفسه
من لين الحضارة وترفها وما فيها من الجديد الطريف •

وكما كانت حالة بشار الخاصة سبباً من أسباب ولوعه بالتصوير
والتشبيه كانت أيضاً موطن ضعف في تصويره بعض الأحيان • هاهي ذي
آياته التي أعجب بها النقاد في القديم ولا تزال محل إعجابهم حتى الآن:

إذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس او قطرت دما
إنه يجمع فيه بين صورتين مختلفتين جمعا ليس من الدقة في شيء فهو يعطف
جملتي الشرط الثاني بأو ، وهي عند النحاة لارادة أحد الشيئين تخييراً أو
إباحة ، وليس لها في هذا التركيب موضع إذ العطف بأو وبغيرها المشاكلة ،
إلا إذا أريد بها الاضراب وما نحسب أنه يريد هنا قطعاً • والا اذا أراد بما
بعد أو أن يكون غاية لما بعدك وذلك لايجيء في هذا الموضع • ثم ان فاعل
الجملة الثانية هو المضاف اليه في الجملة الأولى وإذن فمعنى « أو » يخرج
في البيت أشبه بمن يعرض عليك صورتين تكمل احدهما الأخرى ، ثم
يخيرك بينهما أو يبيح لك اتخاذهما معا مع الفصل بينهما • ولعل موطن الغرابة
في هذا التصوير هو الذاتية التي تجعل لمثل بشار عالمه الخاص في التصور
والتخيل وقد يخرج هذا التصور أحيانا غريباً على الواقع غير موافق له •
وهذا موطن الضعف في الذاتية التي تصيب ما في نفوس النقاد مرة وتخطئه
مرة أخرى •

ولقد أحدث بشار في الشعر ما يعرف عندنا اليوم
بالتشخيص personification أو توسّع فيه • والتشخيص هو
إخراج المعاني في صورة الأشخاص وربما كان بشار أسبق شعراء العربية
إليه • ومثال ذلك في شعره قوله في الأبيات التي خاطب بها يعقوب بن داود •
طال الثواء على تنظر حاجة شمطت لديك فمن لها بخضاب

فهو يستعير لحاجته المقيمة طويلا عند يعقوب بن داود المرأة العجوز
الشمطاء التي طال بها الزمن في حاجة الى الخضاب تستر به شيها •
ويقول في قطعة أخرى غزلية :

عندها الصبر عن لقائي وعندي زفرات يأكلن قلب الحديد
فجعل الزفرات مما يأكل وذلك أيضا ضرب من التشخيص •
ويقول أيضا في الغزل :

وبيضاء يضحك ماء الشبا ب في وجهها لك إذ تبسم
فجعل للشباب ماء ، ثم أضفى عليه صفة الاحياء وجعله يضحك ، وذلك في
الحق شيء طريف جديد على الشعر •

وحسبنا هذا من بشار ، وإنما فصلنا فيه لانه مؤسس لهذا المذهب في
الشعر ، قلده من جاء بعده من الشعراء وأخذوا عنه وتوسعوا في مذهبه •

العتابي

وقد حذا بشار في البديع ابو عمرو كلثوم بن عمرو العتابي^(١) • وكان
هذا بدويا من أهل الجزيرة من بني تغلب بن وائل ، وهذا مكان الغرابة في
اتخاذ البديع مذهبا له في الشعر ، وكان خليقا به أن يلتزم طريقة القدماء

(٢٥) البيان والتبيين ج ١ ص ٥٩ •

وأساليهم ، ولكنه يبدو أنه بحكم إتقانه لصناعة الادب وجمعه بين قول
الجيد والخطابة وكتابة الرسائل الفاخرة مع البيان الحسن (٢) هو الذي قاده
الى هذا المذهب وألزمه إياه . إذ ان مذهب القدماء خليق بمن يقول الشعر
عفو السليقة ولا يتخذ منه صنعة وفنا ، ولم يكن العتابي كذلك .

وأبرز ما نلاحظ في شعر العتابي شيوع التشخيص فيه وكثرته . وهو
يبلغ فيه من الاجادة كل مبلغ ويخرج صورته فيه أقرب ما تكون الى الطبع
الفني البعيد عن التكلف والتصنع . مثال ذلك قوله يمدح جعفر بن
يحيى البرمكي ، وكان قد استعطف له الرشيد فعطف عليه بعد غضب :

ما زلت في غمرات الموت مطّرحا قد ضاق عني فسيح الارض من حيلي
ولم تزل دائماً تسعى بلطفك لي حتى اختلست حياتي من يدي أجلي

وكان التشخيص كان يرد على العتابي عفو الخاطر ويأتيه طائعا مختارا
من دون اعتساف أو تعمّل فمن ذلك قوله :

فلو كان للشكر شخص يبين اذا ما تأمله الناظر
لمثلته لك حتى تراه لتعلم أنني امرؤ شاكر
وقوله :

رسل الضمير اليك تترى بالشوق ظالعة وحسرى
مترجيات ما ينين على الرجا من بعد مسرى

وللعتابي في الصناعة اللفظية مدخل لطيف قريب الى النفس بعيد عن
التعمل والتصنع ، وهو يمزجه بالصناعة البيانية مزج الصناع الماهر فيخرجه
مخرجاً كريماً . قال يستعطف الرشيد وكان عليه غاضبا :

أرخصب المكان الغمر ان كان غربي سنأ خلب أو زلت القدمان

أتركني جـدب المعيشة مقترأ وكفّاك من ماء الندى تكفان
وتجعلني سهم المطامح بعدما بللت يميني بالندى ولساني
وهكذا اجتمع للعتابي طبع في الشعر موات وقريحة فياضة الى جانب
الصناعة الحسنة والتفنن المليح •

وكان العتابي على ما يظهر متأثراً ببشار ، ينظر في بعض صوره
البيانية ويقتبسها في شعره ، يدل على ذلك مثل قوله في قصيدته التي
قالها يستعطف بها الرشيد أيضاً :

في ناظرِّي انقباض عن جفونها وفي الجفون عن الآفاق تقصير
وهذا المعنى بصورته لبشار اذ يقول :

جفت عيني عن التغميض حتى كأن جفونها عنها قصار
وذلك يؤيد قول المؤرخين والنقاد أنه كان في البديع تلميذا لبشار •
ونحن نلاحظ في فن العتابي بواكير ظاهرة أدبية جديدة تلك هي المنافسة
بين الشعر والنثر في فنون البديع ، ومقدار الاثر الذي أعقبه أهل البديع
من الكتاب في أهل البديع من الشعراء • وتلك ظاهرة لم تتضح في تاريخ
الادب العربي الا في القرن الرابع الهجري وما بعده •

مسلم بن الوليد

ولم يكن هؤلاء جميعاً قد اتخذوا من البديع مذهباً ي نهجونه في شعرهم،
وانما كانوا يؤثرونه ويعمدون اليه • أما الذي اتخذه مذهباً يقابل به مذاهب
المجددين الذين سلكوا سبيلاً أخرى في الشعر كمسلم بن الوليد •
وكان مسلم أول من تكلف البديع من المولدين وجعله طريقته في الشعر،
وهو في نظر النقاد زهير المولدين^(٢٧) وقد كان يصنع شعره صناعة بل يصوغه

(٢٧) معجم الشعراء للمرزباني ص ٣٧٢ والعمدة ص ٨٥ ج ١ •

صياغة ، ويتجرى مظاهر الجمال في اسلوبه ويلاحقها ملاحقة حتى يخرج شعره مخرجاً فنياً .

واولع مسلم بالصور البيانية يركبها بعضها إثر بعض ، حتى يكاد بعض شعره لا يخلو من المجاز والاستعارة :

فلما انتضى الليل الصباح وصلنه بحاشية من فجره المتورد
وكان ينحو احياناً نحو بشار في ابراز التفاصيل والافاضة في صورته البيانية :
يغشى الوغي وشهاب الموت في يده يرمي الفوارس والابطال بالشعل
وهو كالعنابي يمزج بين الصناعة اللفظية والصور البيانية مزجاً موفقاً ذهب
بعضه مذهب الامثال في الاجادة والابداع مثل قوله :

موف على مهج واليوم ذو رهج كأنه أجل يسعى الى أمل
وبلغ في عنايته بتقسيم الكلام والتفنن بالمناسبة بين اجزائه مبلغاً أحسب
انه جديد على الشعر العربي حقاً . مثال ذلك قوله في قصيدته التي مدح بها
يزيد بن يزيد الشيباني :

أجرت جبل خليع في الصبا غزل وشمرت هم العذال بالعذل
هاج البكاء على العين الطموح هوى مفرق بين توديع ومحتمل
كيف السلو لقلب راح مختبلا يهذي بصاحب قلب غير مختبل
عاصى العزاء غداة البين منهمل من الدموع جرى في إثر منهمل

حتى كأنه ينظم عباراته نظاماً في وسط نظام . ويوائم بين اجزائها مواءمة
تخرج به الى سجع مرة والى جناس مرة اخرى :

موف على مهج واليوم ذو رهج كأنه أجل يسعى الى أمل
وقد فتح مسلم بن الوليد في البديع باباً جديداً زاد به على ما ورثه من اسلافه

وهو ابتكار المعاني الدقيقة والغوص على الطريف الجديد فيها فمن ذلك قوله يهجو دعبلاً :

أما الهجاء فـدقّ عرضك دونه والمدح عنك كما علمتَ جليل
فاذهب فأنت طليق عرضك إله عرض عزّزتَ به وانت ذليل

وهكذا نلاحظ ان مسلم بن الوليد يتميّز عمّن قبله باستخدام البديع في توليد المعاني وإخراجها في صور تبهر وتدهش ، ويعنى بتقسيم الكلام وتنسيق اجزائه ، ولكنه بالرغم من ذلك لم يكن يظهر في شعره أثر للتكلف والتصنع ، لانه كان يعرف كيف يوائم بين الطبع والصنعة وكان يتخذ من البديع وسيلة فنية لا تطفئ عليه ولا تستعبده .

ولعل مسلم بن الوليد كان في فنه هذا اشبه برد الفعل لاسلوب ابي العتاهية ومن جرى على سنته من الشعراء ، أعني أن فنه كان ضرباً من استلهام القديم وإحلاله محله الاول في نظام القصيدة وفي الاسلوب وطريقة التعبير ، إلا ان حضارة بغداد وما بلغته من الازدهار وما ملأت به قوس الناس ومشاعرهم قد املت عليه كما املت على غيره ان تنعكس صورتها في شعره ، فيعمد الى التجميل والتزيين حتى تلوح على شعره مخايل حسن الحضارة المجلوب .

وكان ظهور مسلم في الشعر ايذاً بالغلبة لهذا المذهب الفني وكانت غلبة هذا المذهب الفني على الشعر انتصاراً للقديم واعراضاً عن الذي أحدثه المجددون الثائرون في الشعر الى حد بعيد وعودة به الى مجاله الاول بعد ان تشعبت به الطرق في ألوان الحياة الجديدة .

أبو تمام

ثم كان أبو تمام حبيب بن أوس الطائي فبلغ به القمة ، وجرى في شعره كله على هذا المذهب حتى لم يكـد يخلو من البديع فيه بيت . وقد كان في

اكثره من البديع يصيب ويخطيء ، فاذا أسف هبط في اسفاهه •

وقد لاحظ النقاد والمؤرخون عليه ذلك فقال فيه صاحب الاغاني :
« وله مذهب في المطابق هو كالسابق اليه جميع الشعراء وان كانوا قد
فتحوه قبله وقالوا القليل منه ، فان له فضل الا كثار فيه والسلوك في جميع
طرقه • والسليم من شعره النادر شيء لا يتعلق به احد • وله اشياء
متوسطة وردية رذلة جدا » • (٢٨)

ولقد جعل أبا تمام الشعر صناعة يتكلف لها ويجهد فيها ، بل جعله
تصنعاً وتعملاً في بعض الاحيان ، وأحال معانيه في شعره رموزاً يجتهد السامع
أو القارئ في كشفها وفي ادراكها وتذوقها • وقد أثار ذلك تائراً للنقاد
عليه وجعلهم ينقسمون في آرائهم فريقين • فريقاً حكماً له بالاحسان والاجادة
وفضله على من عاصره ومن سبقه من الشعراء ، وفريقاً حكماً عليه بالتكلف
ووجد في أسلوبه خروجاً على عمود الشعر ، وفضل عليه طائفة من معاصريه
كالبحتري وهو تلميذه وربيه وثمره مذهب الفني (٢٩) •

وقد ذكرت آنفاً أن أبا تمام قد أمعن في اصطناع البديع وأسرف فيه
حتى أحال بعض شعره الى ما يشبه الرمز ، فهو لا يكاد يصرح بحقيقة ،
وانما يكثر في شعره من المجاز والاستعارة ، ومن أجل هذا يرى بعض النقاد
المعاصرين أنه بلغ بالشعر مرتبة من الفن لم يبلغها به أحد من الشعراء لأنه
جعله فناً للخاصة يحتاج تذوقه الى الجهد الفني (٣٠) •

وهذا رأي في فن الشعر يقابله رأي آخر هو رأي المحافظين من النقاد،
الذين يرون في التزام عمود الشعر المثل الفني الاعلى •

ونحسب أن الكلام في فن أبي تمام ضرب من الحديث المعاد ، فقد

(٢٨) الدكتور طه حسين : حديث الشعر والنثر •

(٢٩) و (٣٠) الدكتور طه حسين : حديث الشعر والنثر •

كان نصيبه من أبحاث المؤرخين والنقاد في القديم والحديث وافرا عظيما .
وكل ما نستطيع أن نقوله فيه انه كان أحيانا يبالغ في الصنعة حتى يبين في شعره
التعمّل والتكلف والتعسف وحتى تخرج صوره البيانية شائئة مستكرهة،
ويسرف في طلب المطابقة والجناس والمقابلة حتى يكاد يبلغ مبلغ الغثاء .

فمن صوره البيانية غير الموفقة قوله :

كان الزمان بكم كلباً فغادركم بالسيف والدهر فيكم أشهر الحرم
لا تجعلوا البغي ظهراً انه جمل من القطيعة يرعى وادي النعَم

فقد استعار الكلب لخصّة الزمان ، ولم تسعفه الصورة المقابلة فوصف
الزمان بأنه كالأشهر الحرم في فضلها وفي حرمتها وقديستها ، وصوّر البغي
بصورة الجمل يرعى وادي النعم وهي صورة لا توحى بالمعنى الذي رمى اليه
إلا بعسر وتكلف فوق انها ثقيلة على النفس شديدة الوطأة على الذوق .

ومن ذلك ايضا قوله :

لو لم تدارك مسنّ المجد منذ زمن بالجوّد والبأس كان المجد قد خرّقا
وهذا من التشخيص ولكنه تشخيص غير موفق . فهو قد استعار للمجد
القديم صفة الشيخ المسنّ الذي اكلت منه السنون واضرّ به تقادم الزمان
حتى كاد يخرف لولا ان تداركه الممدوح ، وتلك صورة لا توافق معناه ولا
تلائم مراده . واجدر بالمجد القديم ان يشبه بالتحفة الفنية الثمينة كلما
تقادم عليها الزمان زادت قيمتها وعلا شأنها ، وان مكان الممدوح منها الحفيظ
عليها المدرك لقيمتها .

وكان ابو تمام احيانا ينطلق وراء الاستعارة حتى ينسى انها وسيلة
فنية يؤخذ منها بالقدر الذي يتطلبه وضوح المعنى وطرافته وجماله ، والقصد
الى التأثير في السامع او القارئ ، فكان ابو تمام يأتي على تفاصيل في

المستعار تشوّه جمال الاستعارة وتقربها من الحقيقة فيضيع بذلك مكانها
من المعنى • مثال ذلك قوله :

فضربت الشتاء في أخذه ضربة غادرته عوداً ركوباً

فقد صور الشتاء دابة عصيّة لا تذلل لراكب ، وهو يعني بذلك ان
الشتاء لم يكن ملائماً للحرب ولا مناسباً لها ، ولكنه نسي انه استعار للشتاء
تلك الصفة ليقول ان المدح قد طوعه حتى اصبح ذلولاً سهل القياد ،
واندفع في وصف الدابة تفصيلاً حتى ذكر ان المدح قد ضربها في اخذعيها ،
فأساء بذلك الى الصورة وخرج بها عن الغاية التي قصد اليها •

وكان ولوعه بالطباق والمقابلة يحمله احياناً على مثل قوله :

لعمري لقد حرّرت يوم لقيته لو ان القضاء وحده لم يبرّد

تلك امثلة سقناها للتدليل على ان إمعان ابي تمام في طلب البديع
وغلوّه فيه قد كان يسلمه احياناً الى ظهور التكلف والتعسف في شعره ،
وان تفارقه فيه طبيعته الفنية المجيدة ، وتجعل من البديع وفنونه قناعاً ثقيلاً
يجب روق اسلوبه ورواء معانيه •

على انه حين يقتصد في البديع فيلازمه التوفيق ، ويخرج شعره رائعاً
رائقاً جميلاً • وذلك في الحق اكثر شعره واجدره بأن يعتبر مثلاً لمذهب
الفني الذي لم يعد يكتفي بشرف المعنى واستقامة اللفظ ، بل صار يعنسى
بالتجميل والتنميق ، ويراعي التناظر بين أجزاء الكلام فيستخرج للمعاني
صوراً بيانية يستخدمها في التعبير عنها ، ويتخذ من المطابقة وتقسيم الكلام
وسيلة لضرب من فن الهندسة في الاسلوب • ومن هذا الطراز قوله من
قصيدة يمدح بها أبا سعيد محمد بن يوسف الثعري :

غدا الشيب مخطئاً بفودي خطّة سبيل الردى منها الى الموت أوسع

هو الزور يُجفَى والمعاشر يُجتوى
له منظر في العين ابيض ناصع
وذو الألف يُقلى والجديد يُرقع
ولكنه في القلب أسود أسفع

وقوله في الرثاء :

فإن ترم عن عمر تدانى به المدى
فما كنت إلا السيف لاقى ضريبة
فخائك حتى لم يجد فيك منزعا
فقطّعها ثم اتنى فتقطّعا
وقوله في مدح أبي سعيد أيضا :

خشعوا لصولتك التي هي عندهم
فالشي همس والنداء إشارة
كالموت يأتي ليس فيه عثار
خوف انتقامك والحديث سرار
بك والليالي كلها أسحار
أيامنا مصقولة أطرافها

ولست أحسب أن تصوير المعاني وتشخيصها وتركيب الصور بعضها
إثر بعض هو أبرز ما في الشعر عند أبي تمام ، فذلك لون من ألوان الابداع
والابداع من غير شك ، ولكن أبرز جوانب التجديد عنده أنه أراد أن يدخل
الى طريقة الشعراء المألوفة في نظم الشعر طريقة أخرى ، فلم يكفه أن تتكون
القصيدة من أبيات على وزن واحد وقافية واحدة ، بل حاول ان يحدث
في داخل الابيات نفسها صورة من صور النظم ، وذلك ماأشار اليه صاحب
الاجاني بقوله : « وله مذهب في المطابق هو كالسابق اليه جميع الشعراء » .
ويتجلى ذلك النظم في ولوعه بالمطابقة والمقابلة ، وفي قدرته على تقسيم البيت
أجزاء منظومة تنسجم مقاطعها حتى تكاد تتفق أواخرها مثال ذلك قوله
في بائيته المشهورة :

من كفّ معتصم ، بالله منتقم ، لله مرتعب ، في الله مرتقب

وقوله في وصف الشيب في الابيات التي مر ذكرها :

هو الزور يجفَى ، والمعاشر يجتوى ، وذو الألف يقلى ، والجديد يرقع

ولنلاحظ أنه يساوي بين مقاطع العبارات الأربع مساواة تنسجم مع وزن القصيدة ، فيجعل العبارات الأربع في البيت الاول متساوية لان البسيط قابل للتقسيم الى أجزاء متساوية ، وأما البيت الثاني فالعبارة الاولى فيه تساوي العبارة الثالثة والثانية تساوي الرابعة .

ولم يقف أبو تمام بالبدیع عند توارثه عن الاقدمين من الصور الموجزة في البيت وفي العبارة ، بل أخذ في التقنن مآخذ جديدة فابتكر الصورة المفصلة الموضحة ، يستخدمها في التعبير عن المعنى الموجز ويحيط بها كالهالة الجميلة . وكان هذا اللون من التصوير يشبه أن يكون في ظاهره غاية يقصد اليها الشاعر فيطنب فيه ويفيض ، وباطنه أنه يستخدم الصورة لغاية أخرى . كأنه يريد ان يهول معنى من المعاني او يهيئ له ذهن السامع وشعوره حتى يتلقاه بما يستحق ، ويستطرف فيه عنصر المفاجأة والمباغتة . وهو يشبه من بعض الوجوه ما يعرف عند كتاب القصة بالعقدة أو المغزى (Plot) ويستخدم فيه شبيه بما يعرف عندهم بعنصر الترقب (Suspension)

وهو من وجه آخر استخدام لما كان يعرف في الشعر العربي بحسن التخلص على طريقة جديدة مبتكرة . وقد سمّاه أبو تمام المستطرد او الاستطراد .

روى البحتري فقال . أنشدني أبو تمام يوما لنفسه :

وسابح هطل الشعراء هتّان	على الجراء أمين غير خوّان
أظمى الفصوص ولم تظما قوادمه	فخلّ عينيك في ظمآن ريان
فلو تراه مشيحاً والحصى زيم	بين السنايك من مثنى ووحدان
أيقنت إن تثبت أن حافره	من صخر تدمر أو من وجه عثمان

ثم قال لي : ماهذا الشعر ؟ قلت : لا أدري . قال : هذا هو المستطرد

او قال الاستطراد • قلت : وما معنى ذلك ؟ قال : يريد انه يريد وصف
الفرس وهو يريد هجاء عثمان •

وقد فعل البحتري مثل ذلك وقلد أبا تمام فيه ، فقال في قصيدته التي
مطلعها :

أهلاً بـذلكم الخيال المقبل فعل الذي نهواه أم لم يفعل
ومنها في وصف الفرس :

قد رحت منه على أغرّ محجل	وأغرّ في الزمن البهيم محجل
في الحسن جاء كصورة في هيكل	كالهيكل المبني الا انه
صيداً وينتصب اقتصاب الاجل	يهوي كما تهوي العقاب اذا رأت
يريان من ورق عليه موصل	متوجس برقيقتين كأنما
صهباء للبردان أو قطر بثل	وكأنما تفضت عليه صبغها
نظر المحبّ الى الحبيب المقبل	ملك العيون فان بدا أعطينه
يوماً خلا من حمدويه الاحول	ما إن يعاف قذى ولو اوردته

بين البحتري وأبي تمام

وكان البحتري - على ما يرويه مؤرخو الادب ويجمعون عليه -
متصلاً بأبي تمام ، مقراً بأنه استأذنه وقدمته • وقد اخذ في
صناعة البديع مأخذ أبي تمام فيها ولكنه قصد فيه واعتدل
ولم يسرف فيه اسراف أبي تمام ولم يجعل للصنعة على شعره
سلطاناً كما فعل أبو تمام • فخرج شعر البحتري مستويًا في غالب أحواله ،
لا يعلو علو أستاذه أبي تمام إذا أبدع ولا يسف اسفاهه اذا هبط وفارقه
التوفيق • ومن أجل ذلك انتصر له بعض النقاد وفضلوه جرياً على سنة

(٣١) الاغاني ج ١٨ ص ١٧٢ واخبار أبي تمام للصولي ص ٦٨ - ٧٠ •

القدماء في الاعتبار باستواء الشعر وقلة السقط فيه ، وتقليدا لهم في التمسك
بعمود الشعر والاعتصام بطريقة الاولين فيه .

وقد كانت المفاضلة بينهما مددا لبعض نقاد الشعر ، فكتبوا فيها الكتب ،
بعضهم ينتصر لابي تمام وبعضهم ينتصر للبحثري . ولقد ألف أبو بكر
محمد بن يحيى الصولي أخبار أبي تمام لينشر على الناس فضائله ويعلن
فيهم إبداعه وتقدمه على الشعراء ، وكتب الآمدي الموازنة بين الطائيين
واتصر فيها للبحثري من طرف خفي .

وقد كان البحثري يعد متوسط الموهبة في الابداع ، واستطاع أن
يجمع في شعره بين طريقة أستاذه أبي تمام في تصوير المعاني وفي الولوع
بتقسيم الكلام وظم أجزائه ، وبين طريقة الاقدمين في وضوح القصد وفي
البعد عن التكلف والايغال والتعسف في الغوص على المعاني المبتكرة والصور
الجديدة ، فكان شعره علما على السلاسة في التعبير وقرب المنال واستخدام
الصنعة استخداما لا يبلغ بها أن تكون قناعا يخفي وراءه المعنى ويستتر خلفه
الغرض كما كان يحدث لشعر أبي تمام أحيانا .

وبعد فنحن نسمع عن عمود الشعر ونقرأ لبعض النقاد الاقدمين دفاعهم
عنه وغيرتهم عليه ، فما هذا العمود وما حقيقته وما صفتة ؟ وكيف يحكم على
الشاعر انه يلتزمه او يخرج عليه ويفارقه .. أسئلة لا يكاد النقد القديم
يضيء سبيل الباحث فيها بحيث يكون منها على بينة (٣٢) .

(٣٢) ذكر المرزوقي في مقدمة شرحه على حماسة ابي تمام أن عمود الشعر
سبعة ابواب فقال : « انهم - اي الاقدمون - كانوا يحاولون شرف المعنى
وصحته وجزالة اللفظ واستقامته والاصابة في الوصف والمقاربة في
التشبيه والتحام اجزاء النظم والتحامها على تخير من لذيذ الوزن
ومناسبة المستعار للمستعار له ومشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائها
للقافية حتى لا منافرة بينهما » ص ٩٠ - ١١ مقدمة الشارح من كتاب

فان قيل إنه طريقة القدماء من الشعراء في نظام القصيدة وفي اسلوبها فقد كان ابو تمام هو الذي حفظ هذه الطريقة او انتهى اليه حفظ هذه الطريقة ، وهو الذي لهذا الاسلوب سابق عهده وقديم سلطانه في الشعر العربي . فهو لم يسلك سبيل المجددين في تفكيك الاسلوب وتسهيله والانحطاط به الى الدرك الذي بلغه عند أبي العتاهية واضرابه من شعراء القرن الثاني . وهو ايضا لم يجدد في نظام القصيدة وفي شكلها فيتجاوز على تقاليد الشعراء ، كالاقتحاح بالنسيب وما يتصل به من ذكر الديار والوقوف على الاطلال ، بل كان ممن حافظ على تلك التقاليد وتمسك بها .

ما الذي احده اذن ابو تمام حتى قيل إنه فارق عمود الشعر ، بل خرج عليه ؟

والجواب على هذا يقتضينا نظرة مجملة في طريقة التعبير المألوفة عند القدماء ، وفي الصورة المثلى للاسلوب عند المحافظين من نقاد الشعر . والظاهر ان هؤلاء كانوا يعتدّون بالوضوح والصراحة، وسرعة الشعر الى نفس السامع والقارئ ، من غير تأمل في الصور البيانية للتعبير ، او تدبر للمعنى او انشغال بفن الاسلوب وصناعته ، لانهم كانوا يرون - فيما يظن - ان تلك امور تشغل من يتلقى الشعر سماعا - في الغالب - عن ان يشارك الشاعر في غرضه وفي فكرته وفي عاطفته ، وتقطع صلة التجاوب العاطفي بينه وبين الشاعر ، وتجعل الشعر ضربا من العمل المصطنع المتكلف الذي لا

شرح المرزوقي على ديوان الحماسة نشر الاستاذ احمد امين والاستاذ عبدالسلام هرون . ويعيننا هنا انه يرى ان المبالغة في التشبيه والاستعارة خروج على عمود الشعر وذلك الذي كان يقع فيه ابو تمام احيانا . ثم ان ولوع ابي تمام بالصناعة اللفظية قد كان يخرج شعره احيانا الى التكلف فتفوته مشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائها للقفية حتى لا منافرة بينهما .

يؤدي الى غايته في نظرهم ، وهي التعبير الصادق الواضح عن العاطفة •

وهنا يتجلى لنا اثر للحضارة في الفن عموماً وفي الشعر على وجه الخصوص ، لان من مقومات الحضارة جمال المظهر وناقته وتنسيقه وتنميته ، وتلك امور قد تجور في بعض الاحيان على جوهر العاطفة وحقيقة الفكرة • واذا كان صدق العاطفة وصراحة الفكرة ووضوحها هو المقوم الاول للشعر ولغيره من الفنون ، وان التفنن في إظهارها والتنصنع في تجميلها ليس إلا وسيلة لتحقيق التواصل والتجاوب بين الشاعر وسامعيه او قارئيه ، وهو كذلك الى ابعد مدى ، فينبغي ان لا تطفئ الوسيلة في الفن على الغاية ، وان لا يجور المظهر فيه على المخبر • والتوفيق بين الغاية في الشعر وهي الصدق والصراحة والوضوح المؤثر ، وبين الوسيلة وهي التجميل والتفنن ، هو المثل الاعلى في فن الشعر وهو الطريقة المثلى فيه •

ذلك مجمل ما تفهمه من اختلاف النقاد بين هذين المذهبين في فن الشعر فن أبي تمام وفن تلميذه البحتري ، وانقسامهم بين مفضل لابي تمام مقدم له سواء من الشعراء ، وعائب عليه خروجه بالشعر من الطبع الى الصنعة المتكلفة التي لا تخلو من كدّ وروية وإعمال ذهن •

ابن المعتز

ونحن لا نكاد نعرف بعد أبي تمام من اعلام البديع — في الحقبة التي نبحت فيها — اخطر شأناً من ابن المعتز ، على انه لم يخطُ بالبديع في شعره نحو التقدم والابلغ في هذا الفن مبلغاً ذا بال ، بل يصحّ ان نقول : إنه انحط به من الصور المركبة كالمجاز والاستعارة الى الصور البسيطة كالتشبيه ، وهو ادنى عند علماء البلاغة واقرب في فنّ الاسلوب غوراً •

ومهما يكن من إعجاب النقاد بتشابهه ووقوفهم عندها وقوف المندesh وان بينهما ايضاً شيئاً من الاستقلال تعرف به حقيقة كل منهما •

فهي من وجهة الفن الشعري سذاجة فنية لا تبلغ مبلغ ما وصلت اليه فنون البيان عند مسلم بن الوليد وأبي تمام ، ولا تصل حتى الى صناعة البحري الذي اعتدل فيها وقصد ، فاعتدّه النقاد من المطبوعين .

وإنما نقول إن التشبيه عملية فنية ساذجة بالقياس الى المجاز والاستعارة لان في الاستعارة امتزاج المستعار له بالمستعار بحيث يكون الثاني في نظر الاديب والشاعر هو الحقيقة ، فيدير الكلام عليه مباشرة ولا يلقي الى الاول بالاً ، في حين ان التشبيه إقرار بأن في الامر مقارنة بين شيئين ومجاورة ،

والأمر أن الامتزاج في الاستعارة بين طرفيها مرحلة شعورية اعمق وابعد غوراً وأدل على ان التجربة النفسية قد استغرقت الاديب او الشاعر فنسي الواقع المادي أو أهمله ، وان الصلة بين المتجاورين قد بلغت مبلغ الاتحاد والحلول ، ومن اجل ذلك نرى ان التشبيه يدل على ان الاديب او الشاعر على جانب من السطحية وقرب الغور ، حتى إنه لم يتمثل التجربة النفسية التمثّل الكافي . وليست التجربة النفسية في مثل هذه الحالة إلا إدراكاً او اكتشافاً للعلاقة بين شيئين متجاورين ، وكلما استطاع الاديب ان يتعمق تلك العلاقة وان يكشف عن توثقها وتمكنها ، حتى يحيل الشئيين المتجاورين واحداً ، كان اعمق في الشعور وامكن في الفن .

على ان ابن المعتز كان ذا فضل على البديع من وجهة اخرى فقد خدمه خدمة علمية إذ وضع فيه كتابه البديع وتتبع فيه فنونه في الشعر القديم وصنفها واحصاها .

وبعد فأننا لنسأل : ماذا خلف اهل الفن في الشعر العربي ، وماذا كانت آثارهم فيه ؟ وهل كانت فنون البديع هي كل ما تركوه من الآثار ؟ ونحسب ان البديع قد ترك في الشعر العربي أثراً اخطر واعمق غوراً . وذلك انه اقرّ في الشعر التعمق في المعاني والغوص وراءها ، وتحوّل

بالشعر من فنّ مطبوع يأتي غفو خاطر ، لا روية فيه ولا تأتّي ولا كدّ ،
الى فنّ مصنوع ينقّب فيه الشاعر عن المعاني الجديدة ، ويتكرّ فيه الصور
الجميلة ، ويعنى فيه بصقل الاسلوب وتنسيق العبارة عناية كبرى •

ومن هنا ندرك ان بلاغة الكلام ليست وفقاً على اللفظ وظاهر الاسلوب
فان لذلك كله ارتباطاً ، كلّ الارتباط ، بالمعاني وليست الصور البيانية ،
وهي جانب مهم من مقومات البلاغة ، الا صوراً للمعاني تقوى بهما وتضعف ،
وتتضح بها او تضلّ في الغموض • وليست الصناعة اللفظية من جناس
وغيره الا ضرورياً من التقنن في اجزاء التراكيب ، وهي دلائل المعاني
وصورها الماثلة •

ومن اجل ذلك كان اثر المتقنين في فنّ الشعر ابتكاراً للمعاني وغوصاً
على دقائقها • وقد لمحنا ذلك في شعر زهير والمولدين ، مسلم بن الوليد
في مثل قوله :

أما الهجاء فدقّ عرضك دونه والمدح عنك كما علمت جليل
فأذهب فأنت طليق عرضك انه عرض عززت به وأنت ذليل

وابو تمام ومعانيه المبتكرة اشهر من ان يدل عليها وان يمثل لها • ثم
انتهت آثار هذا المذهب في الشعر الى الدقة التي عرفها عند ابن الرومي
ومعانيه المبتكرة الطريفة وما تميز به من توليدها واستقصائها ، وحتى وصل
ذلك الشعر الى المتنبّي وابي العلاء المعري (في سقط الزند) •



خاتمة

لقد كان انتقال الحياة الادبية الى بغداد حدثاً خطيراً في تاريخ الادب العربي عامة وفي تاريخ الشعر العربي بصفة خاصة .

فقد اصبحت عاصمة الخلافة لاول مرة في التاريخ هي المركز الادبي الاول وكانت بيئات الادب والشعر منه على الخصوص مواطن تباعد عنها السلطان وهجرها الحكم فخلت الى الادب والشعر وصرفت همها اليه .

وكانت حياة الشعر في بغداد صورة من صور التنافس على البقاء بين القديم والجديد . القديم الذي توارثه الشعر من عصوره الاولى والجديد الذي خلفته عوامل السياسة والاجتماع والحضارة والفكر في البصرة والكوفة وفي بغداد نفسها من بعد .

وفي بغداد التقى القديم بالجديد وكان كلاهما بالاضافة اليها - او الى البيئة العراقية عامة - اصيلاً غير دخیل فقد انتقل الى بغداد طائفة من القديم والجديد من الكوفة والبصرة وغيرهما . ووجد ذلك فيها مجال الحياة الرحب وميدان الصراع الواسع ؛ وكانت طبيعة الحياة فيها مما اعان على ذلك ، وبعث في القديم والجديد كليهما اسباب القوة وامده بالنشاط .

وقد ورد الشعر ببغداد وهو في معاملة العامة جماع الحياة العقلية والاداة الاولى للتعبير عن الافكار والمشاعر وتغلب عليه سمة الجد والموضوعية . وتلك صفات توارثها الشعر العربي من قديمه البعيد وتاريخه الطويل يوم ان كان عند العرب ديوان مفاخرهم وسجل مآثرهم وتجاربهم في الحياة .

على انه كان يحمل في ثناياه يومئذ بذور التحول من الموضوعية الى الذاتية ومن الجد الى الهزل ، وكان يرود هذا التحول فيه طائفة من شعراء البصرة والكوفة عكفوا على انفسهم وعقولهم واستبعدهم السلطان عن المشاركة في جد الامور وخطيرها ، وتأثروا بمعالم الحضارة والحياة العقلية واستجابوا اليها •

وقد ظهرت عند هؤلاء الشعراء فنون جديدة في الشعر وتطورت عندهم فنون اخرى وسلكوا في اسلوب الشعر طرقا جديدة على ما سبق يساانه من قبل •

ولقي هؤلاء الشعراء في بغداد ارضاً بكرأ تعهدت جديدهم بالرعاية ، وافسحت له سبيل الحياة بما هيأت لهم من رخاء وما أتاحت لهم من استقرار وما ضمنت لهم من رزق • فانصرفوا الى أنفسهم يستمدون منها الوحي وعكفوا على مشاعرهم الخاصة واستجاباتهم الذاتية للحياة الجديدة يجعلونها موضوع شعرهم ومادته • فازدهر الجديد وابتغى غرسه وآتى أكله •

ولم يكن موقف بغداد من الجديد سلبيا تأخذ فيه ولا تعطي ، وتقنيس فيه ولا تبتكر ، بل كان لها من ماضي أهلها وهم بقية مما ترك أهل العراق الاقدمون وورثة حضارات وادي الرافدين ما امد الجديد بضروب أصيلة من وسائل الحياة والنماء والازدهار في أساليب العيش وفي صنوف اللهو وفي الثقافة العقلية •

على أن مجال الحياة في بغداد لم يكن ليخلو لهذا الجديد الطارئ على الشعر ، فقد كانت بغداد وكانت خلافتها امتدادا للحياة الاسلامية ، وكان روح الحكم وأساسه الاحتفاظ بالعروبة وحفظ التوازن بين عناصر الدولة لا يطنى بعضها على بعض ولا يؤدي ذلك الى انحراف بها عن أصولها الاولى • بل كانت حياة الشعر في بغداد امتدادا لتاريخه البعيد في أغوار الزمن •

وقد التمس القديم في كل ذلك مجال الحياة والاستمرار ، وكان يعتقد نفسه ويعتده العرف العام هو الشعر بحق وما سواه هذر أو عبث أو هزل • وكانت ظروف الحياة العامة تحمل أصحاب الجديد - طوعا أو كرها - على ان يسلكوا طريق القديم اذا ارادوا ان ينالوا حظهم فيها ويشتهروا ويقوم شعرهم عند نقاد الادب وجهابذة القريض •

وقد تميز القرن الثاني للهجرة بغلبة التجديد فيه لان هذا التجديد كان يستند في بعض فواحيه الى الاعاجم ، أولئك الذين ولوا مراكز السلطان واستحوذوا على جانب كبير من الحياة العامة ، ولانه كان يستند أيضا الى الجديد في الحياة العقلية والاجتماعية والحضارية وهي يومئذ ألوان براققة تذهب بالابصار لجديتها وتأسر الالباب والمشاعر لطرافتها •

واعتصم القديم في هذا القرن بمعاقله الحصينة عند الخلفاء وأمراء العرب من الولاة وقادة الجيوش • ولولا يقظة الخلفاء من أول الامر ولولا امراء العرب لتحولت الحياة العباسية حياة اعجمية ، او لانقصمت صلتها بالقديم على الاقل •

ثم كانت بداية القرن الثالث للهجرة مبدأ تحول في الشعر من طراز آخر أعاد له طابعه العام ومكانته الاولى من الحياة العربية • فقد أدى النزاع على الخلافة بين الامين والمأمون الى أن تعود الحياة الى الجد وتقل فيها دواعي الهزل واللهو والعبث •

ثم ان الحياة العقلية قد أخذت في النضج والتكامل ، والحياة الحضارية قد أصابها شيء كثير من التركيز والاستقرار وألفها الناس فلم تعد تستخفهم في الاندفاع اليها • فكانت آثار ذلك في الشعر أن عاد اليه الوقار وأخذ من الحياة العقلية خلاصتها ومن الحضارة زبدتها ولبابها ، فغلبت فيه الصنعة الجمالية وظهر عليه العمق في المعاني والابداع في تصويرها وفي التعبير عنها •

وعاد الشعر في موضوعاته الى القديم بصورة عامة وهجر طائفة مما جسد فيه من الموضوعات فاستقل بها النثر لانه اخلق بها وأجدر ، وعاد نظام القصيدة الى تعدد الموضوع في الغالب •

وأصبحت ملامح الشعر العامة في هذا العصر عمقا في المعاني وابداعا في تصويرها وتناسقا في التراكيب والتعابير وطلاوة تلوح على الاسلوب • وهي صفات كانت ثمرة الحياة في بغداد الى حد بعيد •

وهذه الملامح هي التي كتب لها أن تكون علما على الاجادة والابداع في الشعر العربي منذ ذلك العصر الى يومنا هذا



فهرس الآيات القرآنية (١)

الآية	رقمها	السورة	الصفحة
ام يقولون شاعر تتربص به ربب المنون	٣٠	الطور	٧١
بل قالوا اصفاء احلام بل افتراه	٥	الانبياء	٧١
بل هو شاعر .			
وما علمناه الشعر وما ينبغي له	٦٩	يس	٧١
وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون	٤١	الحاقة	٧١
قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان ياتوا بمثل ..	٨٨	الاسراء	٧٢
ام يقولون افتراه قل فأتوا بعشر	١٣	هود	٧٣
سور مثله ...			
تجافى جنوبهم عن المضاجع	٢٤	السجدة	٨٧
قل لا اسالكم عليه اجرا الا المودة	٢٣	الثورى	٨٩
في القربى			
واولوا الارحام بعضهم اولى ببعض	٧٥	الانفال	١٠٣
وقال موسى لآخيه هارون	١٤٢	الاعراف	١٠٤
			١١٣
ما كان محمد ابا احد من رجالكم	٤٠	الاحزاب	١٠٧
ونريد ان نمن على الذين استضعفوا	٥	القصص	١١٢
في الارض			
قال ارايت اذ اؤينا الى الصخرة	٦٣	الكهف	٢١
يا ايها الذين امنوا لا تكونوا كالذين	٦٩	الانعام	١٩
آذوا موسى فبراه الله			٢٠١
ولا تزر وازرة وزر اخرى	١٦٤	الانعام	٢٦٨
وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما	٣٤	لقمان	٢٧٣
تدري نفس باي ارض تموت			
لكل اجل كتاب	٣٨	الرعد	٢٧٣
ان اكرمكم عند الله اتقاكم	١٣	الحجرات	٢٧٣

(١) رتبت الآيات القرآنية حسب

تسلسل ورودها في الكتاب .

★ قام بعمل هذه الفهارس عبدالرزاق احمد الحربي .

فهرس الاحاديث

رقم الصفحة

الحديث

١١٣ ، ١٢٣

٢٧٣

انت مني بمنزلة هارون من موسى
رجعنا من الجهاد الاصفر الى الجهاد
الاكبر

فهرس الاعلام (١)

« حرف الالف »

- اسحاق بن ابراهيم الطيمي ١٤ .
- اسماعيل بن يسار ١٠٢ ، ١٣٩ .
- اسماعيل بن عمار ١٦٦ ، ١٦٨ .
- اشجع السلمي ١٤٦ .
- الاصبھاني = ابو الفرج .
- ابن الاعرابي ١٥٤ ، ٢٥٣ ، ٣١٨ .
- اعشى قيس ٩١ .
- الاعمى = ابو العباس .
- الاغر = المظفر بن عاصم .
- الافشين ١٣٢ .
- اقليدس ١٩٦ .
- امان ١٧٨ .
- امرؤ القيس ٦١ ، ٨٢ .
- اوليري ٢٧٦ .
- اوير ٢٣ .

« حرف الباء »

- بابك الخرمي ١٣٢ .
- البفاء = ابو الفرج .
- البحثري ١٣٠ ، ١٥٩ ، ٢٢٩ ، ٣٠٧ ، ٣٢٨ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٦ .
- ٣٤٧ .
- بختيشوع ٥١ .
- بروخ الثاني - بالادان ٢٢ .
- بشار بن برد ٨٥ ، ١٣٠ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٩٧ ، ١٩٨ .
- ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٥ ، ٢٢١ ، ٢٣٥ .
- ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤١ ، ٢٤٣ ، ٢٤٦ .
- ٢٥٠ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٧٦ .
- ٢٩١ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ .

- ابان بن عبدالله (اللاحقي) ١٠٩ ، ١٦٩ ، ٢٠٢ ، ٢٢٣ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ .
- ٢٧٦ ، ٢٨ ، ٢٩٣ ، ٣٠٧ ، ٣٢٢ ، ٣٢٠ .
- ابراهيم بن عبدالله بن الحسن ٢٣٧ .
- ابراهيم الفزازي (الفلكي) ٢٠٢ ، ٢٧٦ .
- ابراهيم بن ميمون بن ماهان ١٧٧ .
- ابراهيم (الامام) ١٠٤ .
- ابراهيم بن المهدي ١٢٤ ، ١٧٥ ، ٢٦٧ .
- ابراهيم النظام ١٩٣ .
- ابراهيم سلامة ٧ .
- ابراهيم بن اسحاق الموصلي ١٤٥ ، ١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٧ .
- ابن الاثير ١٥ .
- احمد سوسة ١٣ .
- احمد بن حميد بن جبلة ٤٦ .
- احمد امين ١٣ .
- احمد الشايب ٧ .
- احمد بن طيفور ١٢ .
- الاخطل ٧٨ ، ١٣٥ ، ١٥٠ ، ٢١٤ ، ٢٥٩ .
- الازدي ١٩٣ .
- ابن اسحاق ٥٤ .
- اسحاق بن ابراهيم الطاهري ١٧٩ .
- اسحاق الموصلي ١٤٨ ، ١٧١ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨٣ ، ٢٥١ ، ٣٢٤ .

(١) تم حذف الالف واللام وابو وابن

حبيب بن اوس الطائي ٨٥ ، ١٣٢ ، ١٥٧ ،
٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٧٦ ، ٣٠٥ ،
٣٠٧ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ،
٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ،

- الحجاج بن يوسف الثقفي ٣٤٦ .
- الحسن البصري ١٦٩ .
- الحسن بن موسى النخعي ١٣٣ .
- حسين كامل سليم ٧ .

الحسين بن الضحاك (الخليع) ١٣١ ،
١٣٢ ، ٢٣٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ،
٢٩٢ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٣٠١ ،

٣٠٣ .

- حسين بن اسحاق ١٩٧ .
- حفص بن ابي بردة ٢٦٣ .
- ابن ابي حفصة = مروان بن ابي حفصة
- الحلاج ٢٦٧ .

حماد عجرد ١٦ ، ١٦٩ ، ١٩٤ ، ١٩٨ ،
١٦٩ ، ٢٠٠ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ ،
٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٦ ، ٢٩٣ .

حماد بن سلمة ٥٤ ، ١٩٤ .

حماد الراوية ٩٣ ، ١٥٠ ، ١٦٩ ، ١٩١ ،
٢٣٦ .

- حماد الزبرقان ١٩٤ .
- الحماسي ٢٩٢ .
- حمورابي ٢١ ، ٢٥ .
- الحميري = السيد الحميري .
- ابو حنيفة ٥٢ ، ٥٤ ، ١٩١ .
- حميد الطوسي ١ ، ١٥٧ .

« حرف الخاء »

- خالد بن برمك ١٣٧ .
- خالد بن يزيد الكاتب ١٨٦ .
- الخراساني = ابو مسلم .

٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ،
٣٣٤ ، ٣٣٥ .

- بشار المرعث ١٦٩ .
- بشار الاعمى ١٩٣ .
- بشر بن المعتمر ٢٠٢ ، ٢٧٨ .
- بشير يوسف ١٣ .
- بكر بن النطاح ١٥٣ .

ابو بكر (الخطيب البغدادي) ١٣ ، ١٥ ،
٢٣ ، ٢٤ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٤ ،
بونون ٢٣ .

« حرف التاء »

ابو تمام = حبيب بن اوس

« حرف الشاء »

- ثبلير ٢٢ .
- ثعالب = ابو العباس احمد الشيباني .
- الثوري = سفيان .

« حرف الجيم »

الجاحظ ٦١ ، ٨٨ ، ١٢٣ ، ١٦٩ ، ١٩٦ ،
٢٠٠ ، ٢٥١ ، ٢٧٨ .

جبريل بن بختيشوع النسطوري ١٩٦ .

جبلة = احمد بن حميد .

ابن جزع ٥٤ .

جرير ٧٨ ، ١٣٥ ، ١٥٠ ، ٢١٤ ، ٢٥٣ ،
٢٥٩ .

جعفر البرمكي ١٤٦ ، ١٧٦ ، ١٨٣ ،
٣٣٤ .

جميل بن محفوظ ١٦٩ .

جمال الالوسي ٥ .

« حرف الحاء »

- الحارث بن حلزة الشكري ٦٩ .
- ابو حاتم السجستاني ٣٢٣ .

زهير بن ابن سلمى ٦٩ ، ٢٤١ ، ٢٧٠ ،
٣٢٦ ، ٣٤٨ .

« حرف السين »

السجستاني = ابو حاتم .
سحيم ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ١٢٨ .
سدیف ١٠٥ ١٢٧
ابن سريج ١٧٧ ، ١٧٨ .
ابو سعد المخزومي ١٦٠
سعدة ١٦٦ .
سفيان الثوري ٤ .
سليمان بن عبد الملك ٨٥ .
سليمان الاعمى ٢٠١ .
ابن سلام ٧٢ .
سلم الخاسر ١٨٤ ، ٢٠٥ ، ٣١٩ ، ٣٢٢
السندي = ابو العطاء
سيبويه ١٩٥ .
السيد الحميري ١٠٥ ، ١١٥ ، ١١٧ ،
١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ٢٠٢ ،
٢٧٧ .

« حرف الشين »

الشافعي = محمد بن ادريس
شراة بن الزند ١٦٦ ، ١٦٩
ابو الشمقمق ١٥٠ ، ٢٣٥ ، ٢٦٠ ،
٢٦٢ .
شوقي ضيف ٧ .
الشيبياني = ثعلب = ابو العباس احمد
الشيبياني = معن بن زائدة .
الشيبياني = محمد بن الحسن

« حرف الصاد »

صالح بن عبد القدوس ١٩٣ .
صفوان الانصاري ٢٠٠ .
« حرف الضاد »

الخرمي = بابك الخرمي .
الخليل ١ ، ١٩٢ .
الخليع = الحسين بن الضحاك .
الخنساء ٢٢٧ .

« حرف الدال »

داود بن علي ١٣٦ .
دعل ١١٨ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ،
١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٧٦ ، ٢٥٤ ،
٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٧ ، ٣٣٧ .
ابو دلف = القاسم بن عيسى .

« حرف الذال »

الذبياني = النابغة الذبياني
ذو الرمة ٨٦ ، ١٩٥ ، ٢٥١ .

« حرف الثاء »

الراعي ٧٨ ، ١٥٠ ، ٢١٤ ، ٢٥٩ .
ابن رامين ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ .
الربيع = الفضل بن الربيع .
ابن ابي ربيعة = عمر بن ابي ربيعة .
ربيعة ١٦٦ .
رزين العروضي ٣٠٧ ، ٣١٠ ، ٣١٢ ،
٣١٣ .
الرشيد = هارون الرشيد .
ابن رشيق ٦٩ .
رولنسون ١٥ ، ٢١ ، ٢٢ .
ابن الرومي ٢٠٦ ، ٢٦٤ ، ٢٨١ ، ٣١٨ ،
٣٢٥ .

« حرف الزاي »

الزبير ١٩٢ .
ابن الزبير ٧٦ .
زبيدة ٤٩ .

٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ،
٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٦ ،
٣٣٧ ، ٣٤٥ .

العجلي = ابو دلف القاسم بن عيسى .

ابن عربي ٢٩٨ .

ابن ابي عروبة ٥٤ .

عدي بن زيد العبادي ٩١ ، ٩٣ ، ١٩١ .

ابو عطاء السندي ١٠٢ ، ١٢٩ .

عقبة بن مسلم ١٢٠ .

علي بن جبلة العكوك ١٥٥ ، ١٥٦ ،

١٥٧ ، ٢٥٣ .

علي بن الجهم ١٧٤ ، ١٨١ .

علي بن موسى الرضا ١٢٣ ، ١٢٤ ،

١٢٥ .

ابو العلاء المعري ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٧٦ ،

٣٠٥ .

عليه بنت المهدي ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ،

٢٠٤ ، ٢٢٧ .

علي بن حمزة الكساني ٥٢ ، ٥٥ ،

١٩٥ ، ٢٥٢ .

علي بن ثابت ٢٥ .

العماني (الراجز) ١٤٩ .

عمرو بن عبيد ٥٢ .

ابر عمرو بن العلاء المازني التميمي ٥٤ ،

١٩١ ، ١٩٢ .

عمرو بن عبيد ١٩٣ .

عمارة بن عقيل ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٢ ،

٣٢٢ .

عمر بن ابي ربيعة ٨٢ ، ٨٣ ، ٢٣٠ ،

٢٦٨ ، ٢٩٥ ، ٣١٤ .

ابو العيثل ٢٢ .

عون العبادي الحيري ١٦٦ .

عيسى بن داب ٥٢ .

عيسى بن موسى ١١٧ ، ١١٨ .

ابو عيسى الوراق ١٣٣ .

الضبي = الفضل الضبي .

ضيف = شوقي ضيف .

« حرف الطاء »

الطبري = محمد بن جرير

الطرماح ٨٨

طلحة ٧٨ ، ١٩٢ .

الطوسي = حميد

الطوسي = الفضل بن سليمان (ابو

العباس) .

« حرف العين »

عارف بن اثل الطائي ١٥٨ .

عاتكة بنت شهدة ٢٥٢ .

العباس ١٣٣ .

ابو العباس الناشئ ٢٠٢ ، ٢٧٦ .

ابو العباس الاعمى ١٠٢ ، ١٢٨ .

العباس بن الاحنف ٢٢٦ ، ٢٧١ ، ٣٢٤

ابو العباس المبرد ٢٥١ ، ٢٥٣ .

ابو العباس السفاح ٣١ ، ١١٤ ، ١١٥ ،

١٢٧ ، ١٣٧ .

ابو العباس احمد الشيباني ٥ ، ١٩٥

العباس بن عبدالمطلب ٣٨ ، ٣٩ ،

١٠٣ .

عبدالله بن الزبير ٣٩ .

عبدالله بن العباس ٣٩ .

عبدالمالك بن صالح العباسي ١٧٦ .

عبدالله بن المقفع ١٦٩ ، ٢٢٤ .

عبدالله بن العباس المفتون ١٦٦ .

عبدالله بن ابي بكر العتكي ١٢٠ .

عبدالكريم بن ابي العوجاء ١٩٣ .

ابو العتاهية ١١١ ، ١١٣ ، ١٢ ، ٢٠٤ ،

٢٠٥ ، ٢٣٥ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٧٠

٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥

٣٠٧ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١٢ ، ٣١٤

« حرف الفين »

ابن غزالة ٢٥٢

غنيمة = يوسف .

« حرف الفاء »

الفتح بن خاتان ١٥٩ .

الفراء ٢٥٢ .

فرزدق ٧٨ ، ٤ ، ١٣٥ ، ١٥٠ ، ٢١٤ ،

٢١٨ ، ٢٣٠ ، ٢٥٩ .

ابو الفرج الاصبھاني ١٤ ، ١٢٠ ، ١٣١ ،

١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ٢٥٢ ،

٢٨٦ ، ٣٢٨ .

ابو الفرج البغفاء ٢٧ .

الفضل بن الربيع ٤٥ .

الفضل ١٠٩ ، ١١٤ ، ١٤٧ ، ٨٣ .

الفضل بن سليمان الطوسي ٣ .

« حرف القاف »

القاسم بن عيسى (ابو دلف) ١٠١ ،

١٣٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ٢٤٢ .

ابن قتيبة ١٠٧ ، ٢٥١ ، ٣٠٩ .

القطامي ٧٨ .

« حرف الكاف »

الكرخي = معروف الكرخي .

الكسائي = علي بن حمزة .

ابن الكلبي ٢٣ .

كلثوم بن عمرو العتابي ١١١ ، ٢٤٤ ،

٢٤٦ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ .

الكميت ٨٦ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ١١٣ ، ١١٤ ،

١٢٧ ، ١٦٠ .

« حرف اللام »

ليد ٧٤

لسترنج ١٣ ، ١٥ .

الليث ٥٤ .

ابن لهيعة ٥٤ .

ليلي الاخيلية ٢٢٧ .

« حرف الميم »

المأمون ٥٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٥٥ ، ١٥٩ ،

١٧١ ، ١٩٥ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ،

٢٦٧ ، ٣٢٢ .

مالك ٥٤ .

مالك بن دينار ١٦٩ .

ابن المبارك ٤

المبرد = ابو العباس المبرد .

المثنى ٢٧٦ ، ٣٠٥ .

محمد بن قحطبة ١١٧ .

محمد بن يحيى الثعلبي ١٢٦ .

محمد بن جرير الطبري ١٥ ، ٤٦ .

محمد بن يوسف الثفري (ابو سعيد)

١٣٠ .

محمد المخلوع ١٣٢ .

محمد الامين ١٣٣ ، ٣٢٢ .

محمد بن عبدالله الاسكاف (ابو

جعفر) ١٣٣ .

محمد بن الحسن الشيباني ٥٢ .

محمد بن العباس ٢٣٦

محمد بن الاشعث الزهري المغني ١٦٦ .

محمد بن سليمان ١٦٦ ، ١٦٨ .

محمد بن داود الظاهري ٢٩٧ .

محمد بن مناذر ٣٢٣ .

محمد بن يحيى الصولي (ابو بكر)

٣٤٤ .

محمد بن ادريس الشافعي ٥٦ .

محمد المهدي ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٤ ، ٤٥ ،

٤٥ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١١ ،

١١٦ ، ١١٨ ، ١٣٠ ، ١٣٦ ، ١٣٩ ،

٤٥ ، ١٤٦ ، ١٧٧ ، ١٨٢ ، ٢٢١ ،

٢٣٨ ، ٣١٤

« حرف الياء »

- ياقوت ٢٤ ، ٣ ، ١١ .
- يحيى بن خالد البرمكي ١٣٨ ، ١٤ ، ١٨٣ .
- يحيى بن زياد ١٦٩ ، ٢٣٦ .
- يزيد بن مزيد ١٠٠ ، ١٣٤ ، ٣٢٠ .
- يزيد بن الفيض ١٦٩ .
- يعقوب بن داود ١٣٠ .
- ابو يوسف ٥٤ .
- يوسف بن غنيمه ١٣ ، ٢٥ .
- يونس بن ابي فروة ١٦٩ .

ابن هبيرة ٣١ .

ابن هرمة ١٢٣ ، ١٢٧ ، ٢٤١ ، ٢١٣ ، ٢٤٤ ، ٣٢٨ ، ٣٢٧ ، ٣١٨ ، ٣٢٩ .

هنسيمة الخماره ١٨٨ .

الهمداني ٥٠ .

هوميروس ٦٦ .

هيسود ٦٦ .

« حرف الواو »

الوائق ١٧٥ ، ١٧٦ .

واصل بن عطاء ١٩٣ .

والية بن الحجاب ١٥٠ ، ١٦٢ ، ١٦٩ ، ٢٣٥ ، ٢٩٣ .

واليس يدج ١٥ .

الوليد بن يزيد ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ١٦ ، ١٩١ ، ٢٣٠ ، ٢٣٦ ، ٢٤٢ ، ٢٨١ .

ابن وهب ٤٤ .



فهرس المدن والاماكن (١)

دير الروم ٢٨١ .	ارمينية ٣٣ .
الرصافة ٣١ ، ٣٥ ، ٣٦ .	الانبار ٢٩ .
الري ١٧٧ .	اهواز ١١٨ .
سامراء ٣٠١ .	بابل ٢١ ، ٥٤ .
سوق يحيى ٣٦ .	باري ١٧١ .
سونايا ٢٧ .	بياخمرى ١١٨ .
شارى - شبت ٢٢ .	بستان القس ٣٢ .
الشام ٢٨ ، ٥٤ ، ٧٩ ، ٩٣ ، ٢٣٠ ، ٢٨١ .	البصرة ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٧ ، ٤٧ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٧٧ ، ١٢١ ، ١٤٠ ، ١٤٠ .
الشماسية ٣٦ .	١٥٠ ، ١٦٥ ، ١٦٩ ، ١٧ ، ١٩٠ .
الطائف ١٦٥ .	١٩١ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢١٢ .
طخارستان ١٤٠ .	٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٥ ، ٢٤٩ ، ٢٦ ، ٢٤٠ .
طيسفيون ٢٢ .	بكدادا - بكدادو ٢١ ، ٢٢ ، ٢٦ .
عمورية ١٣٢ ، ١٣٣ .	بنى ١٧١ .
فارس ٢٨ ، ٤١ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١١٨ ، ١٣٧ ، ١٩١ ، ١٩٣ .	ببزنطة ٩٨ .
فخ ١١٨ .	تل حرمل ٥٦ .
القاهرة ٧ ، ١٤ .	الحجاز ٢٨ ، ٧ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ١٢٩ ، ١٧٥ ، ٢١٤ ، ٢٣٠ .
قطفتا ٢٧ .	جند يسابور ١٩٦ .
قطر بل ٢٧ ، ٣٢ ، ١٧١ .	الحيرة ٢٩ ، ٧٧ ، ١٩١ .
الكرخ ٣٥ ، ٤٣ ، ١٧٤ ، ١٨١ .	الحز ٢٣ .
الكوفة ٣١ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٧ ، ٤٧ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ٩٣ ، ٩٩ ، ١٠١ ، ١١٨ ، ١٣٦ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٧٠ ، ١٧٥ ، ١٧٧ .	خراسان ٩٩ ، ١٣١ ، ١٣٦ .
	الخضرية ٣٦ .
	دمشق ٥١ ، ١٦٥ ، ٢١٠ .
	دير حنه ١٧٤ ، ٢٨١ ، ٢٨٤ .

(١) لم نذكر مدينة بغداد ، لان موضوعات الكتاب تدور حولها .

المناذرة ١٩١ .	١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ،
الموصل ١٧٧ ، ٣٣ .	٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ،
نينوى ٢٢ .	٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٦٠ ، ٢٨١ ،
الهاشمية ٣١ .	٣٤٩ .
الهند ١٩٣ ، ٩٨ .	كلواذى ٢٧ .
ورثالا - ورثال ٢٧ .	المخرم ٣٦
اليمامة ٧٨ .	المدينة ١٦٥ ، ٥٤ .
اليمن ٥٤	المدائن ٢٩ ، ٣٠ ، ٤٠ .
	مكة ١٦٥ .



فهرس الكتب (١)

- | | |
|-----------------------------------|------------------------------------|
| الزهرة ٢٩٧ . | الاغاني ١٤ ، ١١٦ ، ١٥٥ ، ١٦٥ ، ١٦٩ |
| سقط الزند ٣٠٥ ، ٣٤٨ | ١٧٦ ، ١٧٩ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٩ |
| الشاهنامة ٢٩ . | ٢٠٥ ، ٢٤٤ ، ٢٤٧ ، ٣٠٣ ، ٣٢٩ |
| ضحى الاسلام ١٣ . | ٣٣٨ ، ٣٤١ . |
| العثمانية ١٣٣ . | اخبار ابي تمام ٣٤٤ . |
| الكامل ٢٥١ . | امالي ثعلب ٢١ . |
| الكامل في التاريخ ١٥ . | البديع ٣٤٧ . |
| كليلة ودمنة ٢٠٢ ، ٢٢٤ ، ٢٧٦ ، ٣٢٠ | بغداد ايام الخلافة العباسية ١٣ . |
| الموازنة بين الطائيين ٣٤٤ . | تاريخ بغداد (لطيفور) ١٢ . |
| مروج الذهب ١٥ . | تاريخ بغداد (البغدادى) ١٣ ، ١٥ . |
| الموطأ ٥٤ . | تاريخ الامم والملوك ١٥ . |



(١) لم نذكر اسماء الكتب الواردة في الهوامش .

فهرس الاغراض الشعرية

- | | |
|--|--|
| <p>الفخر ١٣٩ ، ١٤٠ ، ٢٢٢ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ .</p> <p>الفن المسرحي الكوميدي ٢٦٨ .</p> <p>المأساة (التراجيديا) ٦٧ .</p> <p>المهابة (الكوميديا) ٦٧</p> <p>المدح ٨٣ ، ٨٥ ، ١٢٣ ، ١٤٦ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ٢٢١ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٣٠٣ ، ٣٠٩ ، ٣١١ ، ٣٤١ .</p> <p>الهجاء ٨٣ ، ١٢٥ ، ١٦٠ ، ١٦٩ ، ١٩٨ ، ٢٠٣ ، ٢٢٢ ، ٢٣٢ ، ٢٤٤ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ .</p> <p>الوصف ٩٢ ، ١٨٧ ، ٣٠١ ، ٣٤١ .</p> <p>وصف مجالس الخمر ١٤٨ ، ١٨٩ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٨٠ ، ٢٨٥ ، ٢٨٩ .</p> <p>٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٥ .</p> <p>وصف الديار ٢٩٩ .</p> | <p>الحكمة ٢٠٨ ، ٢٧ ، ٢٧٣ ، ٣١٧ .</p> <p>الخمر ٢٠٨ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ .</p> <p>الرثاء (المراثي) ٦٦ ، ٣ ، ١٢٢ ، ١٢٧ ، ١٣٢ ، ١٥٧ ، ٢٠٥ ، ٢٠٨ ، ٣٤١ .</p> <p>الزهد ٢٠٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧٣ .</p> <p>الشعر السياسي ١٢٧ .</p> <p>الشعر التعليمي ٢ ، ٢٢٩ ، ٢٧٦ ، ٢٧٩ .</p> <p>الشعر الغنائي المنفرد ٦٦ .</p> <p>الشعر الغنائي الجمعي ٦٧ .</p> <p>الشعر الخلفي ٢٧٢ .</p> <p>الغزل ٩٢ ، ١٥١ ، ٢٠٨ ، ٢٢٧ ، ٢٣٢ ، ٢٣٨ ، ٢٤٤ ، ٢٦٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩٥ ، ٣١٤ ، ٣٢٤ .</p> <p>الغزل بالمذكر ٢٢٧ ، ٢٣٢ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٨ ، ٣٣٣ .</p> |
|--|--|



فهرس الاشعار^(١)

« الهمزة »

الصفحة	آخره	اول البيت
١٨٣ .	ضياء	اذا ظلم
٢٧٤ .	بلاء	فلا تعشق
٢٨٥ .	ظلماء	يا رب مجلس
٢٨٥ .	بلالا	شرب صافية
٢٨٦ .	والشاء	بدلت من

« حرف الباء »

الصفحة	آخره	اول البيت
٨٥ .	قارب	اقول لركب
٨٦ .	شنب	لمياء في
٨٨ .	وارحب	يقولون لم
٨٩ .	انقبوا	ولانتقلت
٩٣ .	العنب	اصدع نجى
١٠٧ .	العواقب	جحدت نبى
١٠٩ .	والعرب	نشدت بحق
١١٢ .	غضوا	وما تقموا من نبى
١١٣ .	وارحب	يقولون لم يورث
١١٤ .	واندب	ولن اغزل
١٢٥ و ١٥٨ .	غرب	بكى لشتات
١٣٣ .	اللعب	السيف اصدق
١٣٩ .	النصاب	رب خال
١٤٢ .	للضب	اذا ما
١٤٢ و ٢٩٩ .	الخطوب	دع الاطلاع

(١) ذكرت الابيات حسب تسلسل ورودها في الكتاب .

اول البيت	آخيره	الصفحة
فاطيم منه	اريب	١٤٣ و ٢٩٩
لولا حميد	نسب	. ١٥٥
على مثلها	السواكب	. ١٥٧
لقد ضاع	الكرب	. ١٥٨
اصبح اللهو	الاحباب	. ١٨٨
تكلف القول	خطب	. ١٩٨
وان لكل حادثة	حسابا	. ٢٧٣ و ٢٧٥
وان لكل مطلع	كتبا	. ٢٧٣ و ٢٧٥
وان لكل	جوابا	. ٢٧٥
قطربل مربعي	العنب	. ٢٨٣
هم القاضي	عوتب	. ٣١٠
ما في الدنيا	اقلب	. ٣١٠
احمد الله	منيبا	. ٣٢٥
فانك واحراجك	نكوب	. ٣٢٨
يعقوب قد	النشاب	. ٣٣٠
طال الثواء	بخضاب	. ٣٣٣
فضربت الشتاء	ركوبا	. ٣٤٠
من كف معتمص	مرتقب	. ٣٤١

« حرف التاء »

اول البيت	آخيره	الصفحة
ولقد قضيت	لذاتي	. ٩١
قبور بكوفان	صلوات	. ١١٨ و ١٢٣
واخرى بارض	القربان	. ١١٨ و ١٢٣
يا امين الله	الولاة	. ١٢١
بنات زياد	الفلوات	. ١٢٣
الطريق الطريق	والقدرة	. ٢٦٢
حريث ابو الصلت	الفاسدة	. ٢٦٦
ليتني والجاهل	بليت	. ٢٩٣
قلت ممن	بيت	. ٢٩٣
الا يا عتبة	الساعة	. ٣٢٣

« حرف الثاء »

٤٥ .

بالكرات

ان من يطعم

« حرف الجيم »

الصفحة	آخره	اول البيت
٢٠٤ .	لسمج	نبي الحب
٣٢٠ .	اللهج	من راقب

« حرف الحاء »

الصفحة	آخره	اول البيت
١٧٤ و ٢٨٤ .	الصاحي	يا دير خنة
٢٢٣ .	الجناح	شاعر مفلق
٢٢٣ .	كالتفاح	كم وكم
٢٢٤ .	السماح	ما انا واهن
٢٧٤ .	الجموح	خانك الطرف
٢٨٣ .	الصبوح	غرد الديك
٢٨٣ .	القبيح	واسقني
٢٨٤ .	نوح	قهوة تذكر
٢٨٤ .	والراح	دع التشاغل
٣٢١ .	بالبطاح	يا عزيز الندي
٣٢٨ .	شحاها	واني وتركي

« حرف الدال »

الصفحة	آخره	اول البيت
١١٠ .	عوائد	ايادي بني العباس
١٢٠ .	المؤكد	اذا انا لم
١٢٥ و ١٥٩ .	محمد	ويسومني المأمون
١٢٦ و ١٥٩ .	القردد	توفي على هام

الصفحة	آخره	اول البيت
١٤٢٠ -	داود	بني امية
١٤٢١ -	المهندا	اظل حزنا
١٤٢٢ و ٢٩٩٦ -	البلد	عاج الشقي
١٤٢٩ -	مسرند	من يلقه
١٥٩٩ -	يصعد	ويحل في
١٨٦٦ -	والابد	امسى السلامة
١٨٧٣ و ٢٠٠٠ -	للجرد	لا تبك رسما
١٨٧٤ و ٢٠٠٠ -	ندي	قد كفتك
١٨٨٨ -	معمود	اقفر من
٢٠٠٠ -	والزند	زعمت بأن
٢٠٠١ -	الخلد	وفيهام مقام
٢٠٠٢ و ٢٠٠٨ -	الهند	فيه احتمالات
٢٠٠٣ -	المتجرد	وذات خد
٢٢٢٩ -	داود	بني امية
٢٤٤٩ -	مشرد	وطول مقام
٢٥٠١ -	جدا	مد لك الله
٢٦٢٤ -	عباد	اولى الامور
٢٥٨٣ -	فغدا	خليلي لا
٢٦٩٤ -	الرشاد	ايها الامرء
٢٦٩٥ -	بمرصاد	داء دفين
٢٦٣٦ -	المتورد	فلما انتضى
٢٦٤٠ -	يبرد	لعمري

« حرف الذال »

الصفحة	آخره	اول البيت
١٧٧٤ -	طيرانا باذا	قالوا تنك

« حرف الراء »

الصفحة	آخره	اول البيت
٨٦ -	الوبارا	اذا ما الهجارس
٩٢ -	عقارا	اسقني من

الصفحة	آخره	اول البيت
١٠٠ و ١١٩ و ١٢٤.	من عذر	ارى امية
١٠٧ .	كثير	الا لله در
١١١ .	وتظهير	ماذا عسى
١٢١ .	يعذر	اتيت دعي
١٢١ .	العنبر	ايبتذر الحر
١٢٢ .	والمنكر	ونحن على رغمك
١٢٤ .	مضر	وليس هي
١٢٩ .	النار	فليت جور
١٣٣ و ٢٤٨.	حذار	الحق ابلغ
١٤٠ .	وجار	خليلي لا انام
١٤١ .	وافخر	اصبحت مولى
١٤٤ .	والمطرا	دع الرسم
١٥٧ .	بالكفر	هجرتك
١٧٢ .	وقورا	اسرب الزاح
١٧٨ .	القطر	واني لتعروني
١٨٣ .	النظير	لاح بالمفرق
١٨٤ .	مر	سلم يا سلم
١٩٨ .	النار	الارض مظلمة
٢٠٣ .	مهذار	قل لزهير
٢٠٤ .	والتفكير	ليس امر
٢٣ .	ضجر	قد لامي
٢٤٨ .	من قار	سود اللباس
٢٧٣ .	عمري	ليت شعري
٢٧٨ .	الختر	الناس دابا
٢٧٩ .	الظفر	او ابد الوحش
٢٨١ .	والسكر	احل العراقي
٢٩٢ .	الصمد	رمتك غداه
٢٩٣ .	صدري	اخي كف
٣٠٢ .	امري	اديري علي
٣٠٣ .	لا تدري	اذا ما عصت
٣٢٠ .	الجسور	من راقب
٣٣١ .	بكرا	يا ليلتي
٣٣٤ .	الناظر	قلو كان

الصفحة	آخره	اول البيت
٣٣٥ ٠ ٣٤١	تقصير عشار	في ناظري خشموا

« حرف السين »

الصفحة	آخره	اول البيت
٠ ١١٥ ١٢٨ ٠ ١٤٦ ٠ ١٤٨ ٠ ١٧٠ ٠ ١٧٦ ٠ ٢٠١	الدارسا انسي الشمس فارس خمسا بمقباس مفروس	دونكموها يا بني ليت شمري ذهبت مكارم تدور علينا لما طلعت يا موري لا بد للارض

« حرف الضاد »

الصفحة	آخره	اول البيت
٠ ٢٢١	راض	اجمل الحب

« حرف الطاء »

الصفحة	آخره	اول البيت
٠ ٢٦٧	ولا تسخطوا	يا معشر الاجناد

« حرف العين »

الصفحة	آخره	اول البيت
٠ ١٨ ٠ ١١١ ١١٧	يرجع ينتفع فجما	ما تنقضي حيرة اي امرى ابا المنازل

الصفحة	آخره	اول البيت
١٢٣ .	ترفع	رأس ابن بنت
١٤٦ .	وتنفع	عند الملوك مضرة ومنافع
١٤٨ .	المزرع	ان العروق
٢٦٣ .	تتبع	لقد كان في
٢٦٥ .	يصفعا	قصرت اخادعه
٢٩٦ .	مدمعا	لا وجيك
٣٤٠ .	اوسع	غدا الشيب
٣٤١ .	يرفع	هو الزور

« حرف الفاء »

الصفحة	آخره	اول البيت
١٣٢ .	التلف	هلا بقيت
٢٦٦ .	يرفى	خبز اسماعيل
٢٦٧ .	يخفى	عجبا من

« حرف القاف »

الصفحة	آخره	اول البيت
٩٣	ابريق	ودعوا بالصبوح
١٢٥ و ١٧٦ .	لمخارق	ان كان ابراهيم
١٤٠ .	الحمق	وهجاني معشر
١٤١ .	الاعناق	امتى من بني
١٩١ .	تستفيق	بكر العاذلون
٢٦١ .	عتيقا	لا تبالي اذا
٣٢٤ .	حقا	احمد قال
٣٣٩ .	خرقا	لو لم تدارك

« حرف الكاف »

الصفحة	آخره	اول البيت
١٧٧ .	والملك	يا ربة المنزل
٢٩٦ .	اراك	وصف البدر

الصفحة	آخره	أول البيت
٣١١ .	الا قربوك	قربوا جمالهم
٣١١	الوك	من مبلغ
٣٢٢ .	باسك	بمن استجير
« حرف اللام »		

الصفحة	آخره	أول البيت
٢٧ .	قطربل	كم للصباية
٧٤ .	زائل	الاكل شيء
٩٠ .	مقبل	الاهل عم
١٢٢ و ١٢٧ .	بالباطل	شاء من الناس
١٥٤ .	اشيل	بنو مطر
١٥٦ .	خليلا	ليس لي
١٧٤ .	زلزل	سقى الله
١٨٢ .	المفضل	نزلنا
١٨٤ .	ويا عويلي	ايا غمي لغمك
١٩٨	مثلا	مالي اشايع
١٩٩ .	جليل	يا ابن نهبي
٢٠٤ .	حلا	يا عاقد القلب
٢٤٤ و ٣٢٩ .	كالحلل	ارسم سودة
٣٢٩ .	كالهل	لما رأى
٣٣٦ .	بالشعل	يفشى الوغى
٣٣٧ .	جليل	اما الهجاء
٣٤٣ .	مجمل	واغرفي
٣٤٨ .	جليل	اما الهجاء

« حرف الميم »

الصفحة	آخره	أول البيت
١٠٥ و ١١٧ .	مريما	منعوا تراث
١٠٦ و ١٠٨ .	ذوي الارحام	يا ابن الذي
١٠٧ .	الانعام	ما للنساء
١١٥ .	لازم	ما بال مجرى

الصفحة	آخره	اول البيت
. ١١٦	العالم	فانها بيضاء
. ١١٦	درهما	قل لابن
. ١٢٦	الاعمام	انى يكون
. ١٢٩	ايتام	امت نساء
. ١٣٠	الاسلام	يا ضيعة الدنيا
. ١٣٩	العلم	ونبتت
١٤٧	لا تنام	اما والله
. ٢٩٤ و ١٦٢	ولم انم	يا شقيق النفس
. ٢٣٧	بسالم	ابا جعفر
. ٢٥١	حازم	ومدرجة
. ٢٥٢	خازم	اذا مضر
. ٢٦٠	الغنم	يا ابا الفضل
. ٢٦٤	محام	قل للامام
. ٢٦	المقتصم	جاء سليمان
. ٢٩٥	مكنتما	وابابي مقحم
. ٣٠٣	الظلم	الى خازن
. ٣٠٤	والنم	وللنون
. ٣٣٢	دما	اذا ما
. ٣٣٣	تبسم	وبيضاء
. ٣٣٩	الحرم	كان الزمان
. ٣٣٩	النعم	لا تجملوا

« حرف النون »

. ١٠٨	الاركان	جبل تلوز
. ١١٨	الحسن	فلا بكين على
. ١١٢	هرون	آل الرسول
. ١٤٩	بستان	لعمرى لئن
. ١٥٣	شيبان	معن بن زائدة
. ١٥٨	الراذين	ما ان يزال
. ١٦٠	مسلمينا	الا حييت عنا
. ١٦٦	رامين	هل من شفاء
. ١٦٧	سين	وهاج قلبي
. ١٦٧	شورين	اذك انعم

الصفحة	آخرة	اول البيت
١٦٧ .	الشعانيين	يشوي
١٦٨ .	المساكين	اية حال
١٧٢ .	يومين	سقيا
١٧٨ .	طفيانا	قلت لما
١٨٧ .	يبين	هتفت
١٨٨ .	والقيان	تولى الموصللي
١٩٩ و ٢٦٠ .	شريكين	بكي حريب
١٩٩ و ٢٦١ .	اثنين	امسى حريب
٢٣٧ .	ظعنوا	لولا مكانك
٢٦١ .	قحطان	قل لميسى
٢٧٧ .	يلعبان	اتي حسن
٢٨٨ .	كانا	يا حانة الشط
٢٨٩ .	واعلانا	لا تفقدينا
٢٩٦ .	بالاماني	ان من لا
٢٩٧ .	ينتحيان	بابي من
٣١٥ .	فاستريني	بالله يا حلوة
٣٢٠ .	تهتان	نعاصم
٣٢٣ .	واستلهتنا	ان الدنيا
٣٢٤ .	القدمان	اخصب
٣٣٥ .	تكفان	اتركني
٣٤٩ .	خوان	وسابح

« حرف الهاء »

الصفحة	آخرة	اول البيت
٨٥	ترده	ارق المحب
٨٧ .	لوامعه	اعني على برق
١٠٤ .	اولى بها	بكم رحم
١٠٦ .	دلالتها	طرقتك زائرة
١١٠ .	باذله	هو المرأ
١١١ .	ادلالتها	الا ما لسيدتي
١٢٣ .	فاطمة	ومهما الام
١٤٥ .	نورها	الم تر ان

الصفحة	آخره	أول البيت
. ١٤٦	وزيرها	فالبست الدنيا
١٥٦	ومحتضره	انما الدنيا
- ١٦١	وحاصبها	لست بدلو
. ١٦٨	قلبا	اني لاهوى
- ١٨٦	تذكره	سرورك
- ١٨٦	فيها	تفاحة
. ٢٨٠ و ٢٠٢	دمنه	هذا الكتاب
- ٢٢٩	كذبه	كلفتوقا
. ٣٢٣	الحاره	لما رايت
. ٢٨٢	اسمائها	اثن على الخمر
. ٢٨٧	اشباهي	حيث صبحي
- ٢٨٨	داه	يسقيك من
٣-٩	والفحيحة	ان الرزية
. ٣١٢ و ٣٠٩	صرفها	للمنون
. ٣٢٤	قسها	كان عتابة

« حرف الياء »

الصفحة	آخره	اول البيت
. ٨٢	للمرء ناهيا	امامة ودع
. ١٢٧	دويا	لا يفرنك
. ٢٠٥	ما لدا	الا من لي
. ٣١٢ و ٣١٠	ومالي	عتب ما
٣٣٤	حيلي	ما زلت لي

« الالف المقصورة »

الصفحة	آخره	اول البيت
. ٣٦٥	الشكوى	وجاهل اعرضت
. ٢٧٣	التقى	اشد الجهاد
. ٢٧٥	البلى	وكل طريق
. ٣٣٤	وحسرى	رسل الضمير

التصحیحات (۱)

الخطأ	السطر	الصفحة	الصواب
والمالوك	١٩	١٥	والمملوك
يختيشوع	١٨	٥١	بختيشوع
يدانوا	١١	٥٣	يدنوا
فقر بومهم	١	٥٥	فقر بومهم
بل افتراء	٨	٧١	بل افتراء
من مثله	٨	٧٣	مثله
استاذ	١٩	٩٢	استاذ
ابن الائمة	٣	١٠٨	ابن الأئمة
لتسك	١٧	١٠٩	لتمسك
اللذين	٤١	١١٢	الذين
ولا تتشت	٢٠	١١٣	ولا اتشت
وتأمروا	٢	١١٧	وتأمروا
بمحد	٤	١١٧	بمحمد
مخالفة	٣	١٢٧	مخافة
الطومي	٤	١٣٤	الطوسي
صوتاه	٩	١٣٩	صوتها
اكترها	٢٠	١٣٩	اكترها
يا للموالي	١٠	١٤٠	ما للموالي
كسبت	١٥	١٤٠	كسب

(١) حدثت أثناء الطبع بعض الأخطاء التي لا تفوت القارئ الكريم وقد نبهنا الى بعضها .

الخطا	المسطرة	الصفحة	الصواب
البطاح	٨	١٤٤	الباح
نشات	٧	١٥٨	لشات
اشاعتها	١٦	١٦١	اشاعتها (٢٥)
ريحة	٧	١٦٦	ريحة
اوطانهم	٤	١٦٩	اوطانهم
كان	٧	١٦٩	كان
الاسماع	١٠	١٨٢	الاسماع
فيه	١١	١٩٣	فيها
وعقائدها (٢٥) ٢	١٥	٢٠٢	وعقائدها (٢٥)
بني	١٢	٢٠٤	بني
بابي القتاهة	١٨	٢٠٥	بابي القتاهة
وامر لم	١٠	٢٢١	وامر له
قصائه	٢٢	٢٦٨	قصائده
Pssed to	٢٢	٢٧٧	Passed to
يعجبهم	١١	٢٩٢	تعجبهم
الاعاريض	١٦	٣٠٨	الاعاريض
عرتنا	١٩	٣٢٣	عرتنا
سليا	١٥	٣٢٥	سليا
القريض (١٤)	١٦	٣٢٧	القريض (١٩)
القريحة (١)	١٨	٣٢٧	القريحة (٢٠)
لما	١٠	٣٢٩	لما
الوعي	٧	٣٣٦	الوعي

المحتويات

صفحة

- كلمة المؤلف ٧
مدخل - الشعراء في بغداد حتى نهاية القرن الثالث الهجري ٩

الباب الاول

- تمهيد ١٩
الفصل الاول - بغداد في التاريخ ٢١
١ - بغداد في العصور القديمة ٢١
٢ - تسمية بغداد وأصلها ٢٣
٣ - مبدأ معرفة العرب بها ٢٨
٤ - بناؤها ٣٥
٥ - أسبابه - وصف عام ٣٦
الفصل الثاني - صور عامة للحياة الاجتماعية والعقلية في بغداد ٤٣
١ - الحياة العامة وأثر الخلفاء فيها ٤٣
٢ - تكوين المجتمع البغدادي ٤٦
٣ - عناصر الحياة الاجتماعية ٤٧
٤ - الحياة العقلية وعناصرها ٥٠

الباب الثاني

- الشعر في طريقه الى بغداد ٥٩
١ - قدم الشعر العربي ٦١

- ٢ - مكاتنه في الحياة العربية (موازناً بالشعر اليوناني) ٦٣
- ٣ - غاية الشعر ووظيفته ٦٨
- ٤ - الشعر بعد الاسلام ٧١
- ٥ - حفاظ العراق لتراث الشعر القديم ٧٦
- ٦ - بواكير التجديد في الشعر
 مشاركة غير العرب فيه (سحيم ونصيب)
 تأثره بالحياة العقلية (الكميّ)
 مساهمته لحياة الحضارة (الوليد بن يزيد)

الباب الثالث

العوامل التي اثرت في الشعر ببغداد

- الفصل الاول - العامل السياسي ٩٧

عناصر الحياة السياسية

- ١ - العباسية في الشعر ١٠٣
- ٢ - العلوية ١١٣
- ٣ - الاموية ١٢٧
- ٤ - ضعف الشعر السياسي واسبابه ١٣١
- الفصل الثاني - للعامل الاجتماعي ١٣٥
- ١ - الاعاجم في الحياة العباسية ١٣٦
- ٢ - الشعوية ١٣٨
- ٣ - اثر الشعوية في الشعر ١٤٥

١٤٧	٤ - اثر الاعاجم في الحياة العباسية والشعر خاصة
١٥٢	٥ - الروح العربي واثره في الشعر
١٦٤	الفصل الثالث - العامل الحضاري
١٦٥	١ - حضارة الكوفة والبصرة
١٧٠	٢ - العناصر البغدادية في الحضارة
١٧٥	٣ - الغناء والشراب ، الغناء والشعر
١٨٢	٤ - آثار الحضارة العامة في الشعر
١٩٠	الفصل الرابع - العامل العقلي
١٩٠	١ - تراث البصرة والكوفة
١٩٤	٢ - عناصر الحياة العقلية في بغداد
١٩٧	٣ - مشاركة الشعراء في الحياة العقلية
٢٠١	٤ - آثارها
٢٠٢	٥ - تمثل الشعر للثقافة الجديدة
٢٠٦	٦ - آثارها البعيدة

الباب الرابع

الشعر بين القديم والجديد

٢١٠	تمهيد
٢١٧	الفصل الاول - عوامل التجديد
٢١٨	١ - السياسة
٢٢٢	٢ - غلبة الاعاجم
٢٢٥	٣ - شيوع الحياة الحضرية
٢٢٨	٤ - التقدم العقلي

٢٣١	الفصل الثاني - الشعر والشعراء بين التجديد والتقليد
٢٣١	الاتجاهات الفنية في الشعر
٢٣٤	طوائف الشعراء
٢٣٥	١ - المجددون
٢٤٠	٢ - المتقننون
٢٥٠	٣ - المقلدون

مظاهر التجديد

٢٥٧	تمهيد
٢٥٩	الفصل الاول - الجديد في الموضوع
٢٥٩	١ - الهجاء
٢٧٠	٢ - الحكمة والزهد
٢٧٦	٣ - الشعر التعليمي
٢٨٠	٤ - وصف الخمر
٢٩٠	٥ - الغزل بالمذكر
٢٩٨	٦ - ثورة ابي نواس
٣٠٦	الفصل الثاني - الجديد في الصورة والاسلوب
٣٠٨	١ - الاوزان الجديدة
٣١٣	٢ - سهولة الاسلوب
٣٢٦	٣ - البديع

خاتمة ٣٤٩

فهرس الآيات القرآنية ٣٥٣

فهرس الاحاديث ٣٥٤

فهرس الاعلام ٣٥٥

فهرس الاماكن والمدن ٣٦٢

فهرس الكتب ٣٦٤

فهرس الاغراض الشعرية ٣٦٥

فهرس الاشعار ٣٦٦

التصحيات ٣٧٨



٨١١٥

ج ٩٢٤ الجواري ، احمد عبدالستار

الشعر في بغداد حتى نهاية القرن الثالث الهجري /

احمد عبدالستار الجواري - ط ٢ - بغداد : مطبعة

المجمع العلمي العراقي ، ١٩٩١ ١٦ ص ، ٢٤ سم

١ - الشعر العربي - العصر العباسي

آ : العنوان

ثمن النسخة (٦) دنانير